روايات تاريخ الإسلام

أبو مسلم الخرسانى

جرجي زيدان

دار الهلال

روايات تاريخ الإسلام

أبو مسلم الخرساني

جرجي زيدان

تقديم ودراسة

د. إبراهيم عبد الرحمن محمد

١٩٨٤

مقدمة

حرص جرجى زيدان فيما كتبه من قصص على أن يتخير أحداثها من التاريخ الاسلامى ويصوغها صياغة تأثر فيها بقصص ألف ليلة وليلة ·

وتثير هذه الطريقة فى كتابة القصة مشكلتين تحتاجان الى حل· الاولى : هل تعد هذه القصص قصصا تاريخية بمعنى أنها صياغة قصصية لاحداث التاريخ ، أم انها قصص عادية مثل غيرها من القصص الاخرى بصرف النظر عن أحداثها التاريخية ؟

والثانى : أن جرجى زيدان قد عمد فيما يرى بعض النقاد الى اختيار أحداث بعينها من احداث التاريخ الاسلامى ليست بطبيعتها تصويرا لانصع فتراته ، بل على العكس من ذلك فانها أحداث مليئة بالفوضى والاضطراب والشك مما يلقى شيئا من الشبهات على هذا التاريخ · وهى شبهات يقولون انه قصد الى ابرازها قصدا · والاجابة على السؤال الاول تقتضى منا أن نقف وقفة قصيرة عند الفن القصصى ، نحاول فيها تعريف هذا الفن واستلهام خصائصه المميزة والواقع أن اعتبار هذه القصص التى تستوحى الاحداث التاريخية نمطا من التاريخ الحقيقى ، أمر ينطوى على خطر شديد ، لانه يضيق من مجال الرؤية وبين النفاذ الى المغزى الحقيقى الذى ينبغى أن

توحي به القراءة الفاحصة لهذه الاعمال ذات الطابع التاريخي من ناحية أخرى • والقصة مثل اى جنس آخر من أجناس الادب المعروفة تفرق بين التاريخ في مادته الوثائقية وبين التاريخ عندما ينتقل الى هذه الاجناس ليصبح موضوعا لها • فالاحداث التاريخية وغيرها من ظواهر الحياة وحقائقها الاجتماعية أو السياسية تستحيل في الاعمال الفنية الى صور مختلفة تماما عن صورها الاولى التي كانت عليها قبل أن تصبح موضوعا للفن • ومعنى ذلك أن الاحداث التاريخية التي استخدمها جرجي زيدان في قصصه متميزة من هذه الاحداث نفسها في صورتها الوثائقية • وبعبارة أكثر وضوحا ، ان المادة التاريخية في هذه القصص ليست الا معادلا موضوعيا لقضايا ومواقف وآراء كان يريد الكاتب أن يعبر عنها في شكل قصصي ، وبطريقة فنية غير مباشرة • وعلى هذا الاساس ينبغي أن ننظر الى قصص جرجي زيدان التي تتخذ من التاريخ موضوعا لها ، فلا تعنينا أحداثها في ذاتها من حيث هي تاريخ ، ولكن يجب أن تعنينا من حيث أنها وسيلة فنية وموضوعية يتخذ منها المؤلف رموزا على أحداث وقضايا كانت تشغله وتؤرقه وتحمله على التعبير عنها في هذا الاطار القصصي •

وتسلمنا هذه الملاحظة الى الاجابة عن السؤال الثاني ، أعنى حرص جرجي زيدان على اختيار أحداث تاريخية بعينها • وسبب ذلك فيما أرجح ، أن جرجي زيدان قد كتب هذه القصص في مرحلة سياسية معينة،وكان يخوض فيها مع غيره من الشوام الذين هاجروا

الى مصر ، صراعا عنيفا مع السـلطان عبد الحميد الذى كان يطارد الوطنيين الثائرين على نظام حكمه مطاردة عنيفة ، كانت تحملهم على الهرب والتخفى من جواسيسه ، ومثل هذا الموقف من شـأنه أن يؤكد ميل جرجى زيدان الى استغلال التاريخ فى كتـابة قصصه ليتخذ من أحداثه رموزا على قضايا هذا الصراع السـياسى وبواعثه دون أن يعرض نفسه للخطر • ومن ثم فان هذه الاحداث التى كان يتخيرها تخيرا خاصا بما تشخصه من ضعف وتفكك وفوضى تكـون اقدر على تصوير هذا الصراع الذى كان يخوضـه الوطنيـون مع الاستعمار التركى وغيره من القوى الاجنبية التى اخذت قبضـتها تشتد على الوطنيين فى مراحل بقائها الاخيرة فى العالم العربى •

وفى الحقيقة لم يكن جرجى زيدان فى هذا الاتجـاه الفنى بدعا من غيره من الكتاب والشعراء قديما وحديثا:فمراجعة تراثنا الثقافى شعرا ونثرا من الممكن أن تطلعنا على هذا الجانب من الرمز الذى كان يشيع فى شعر الشعراء وكتابات الكتاب ، ولا نستطيع بالطبع أن نقف عند نماذج من هذا التراث لتأكيد هذه الفكرة ، ولكنا نشير فقط الى قصص ألف ليلة وليلة التى تأثر بها المؤلف كما تأثر بها غيره من كتاب القصة المحدثين من امثال محمود تيمور . ففى هذه القصة نقد سياسى واجتماعى ودينى من خلال أحداثها التاريخية ، وقد توافر على دراستها كثير من الدارسين الذين كشفوا عن هـذه الرموز المتخفية وراء مادتها التاريخية والاجتماعية وأشـعار خليل

مطران التى يستوحى منها القصص القـــديم ليرمز به عن صراعه السياسى ضد السلطان عبد الحميد ولعل فى هذه الاحداث المتخيرة من حيث ضعفها واضطرابها ، ما يصلح أن يكون رموزا على ما كان يحدثه الاتراك وغيرهم من فوضى وينزلونه من ظلم بالعالم العــربى ابان حكمهم له ٠

فاذا تركنا هذين الموضوعين الى القصة التى بين أيدينا ،أبو مسلم الخراسانى ، وجدنا أنفسنا أمام حدث تاريخى هائل هو ســـقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية ، بكل ما خلفه ذلك الانتقــال السياسى والدينى من فوضى واضطراب ، وسفك دماء ، وضـــياع للحقوق ، ساقه المؤلف فى شكل قصصى سار فيه على درب قصص الف ليلة وليلة ٠ وقد تخير مرحلة معينة من مراحل هذه الاحداث هى مرحلة الدعوة العباسية التى قصدت الى نقل التشيع من تشيع الى أبناء على الى تشيع الى أبناء العباس ابن عبد المطلب ، مستعينين على بلوغ هذه الغاية من اسقاط الحكم الاموى وقيــام حكم عبــاسى بالفرس فى شخص أبى مسلم الخراســـانى ٠ وقد جعــل المؤلف الاحداث تدور حول محور واحد يتمثل فى فتاة فارسية من بنــات الدهاقين رمزا على دور هذه الطبقة في قيام الدولة العباسية ، من خلال تجربة عاطفية بين هذه الفتاة وبين أبى مسلم الخراسانى ، مما

انتهى بمقتل أبيها وهربها من قصرها ثم لجوئها في آخر الامر الى احد الاديرة لقضاء بقية حياتها فيه ، اقرارا بالفشـــل المطلق في مواجهة الظروف المتغيرة بعد سقوط الدولة الاموية ومقتل أبي مسلم الخراساني .

ولا أريد في الحقيقة تلخيص القصة حتى لا أفسد على القـارىء متعة قراءتها ولكنني أريد أن أسوق بعض الملاحظـات على أحداثهـا وشخوصها مما يمكن أن يفتح الباب أمام القارىء للكشف عن رموزها وحل أسرارها . أو بعبارة أخرى مما يمكن أن يمهد للقـــارىء فهم الرموز التاريخية التي قصد اليها الكاتب من خلال هـذه الاحداث التي تخيرنـا .

والملاحظة الاولى : أن جرجي زيدان قد جعل قيام الدولة العباسية يعتمد على الدس والوقيعة والقتل بمجرد الشك في النوايا على نحو ما جاء في وصية الامام ابراهيم الى أبي مسلم الخراســاني . وقد حرص على ابراز هذه النقطة عن طريق سرد [illegible] التي وقعت بين أبي مسلم والاشخاص الذين قتلهم لمجرد [illegible] دون أن يتبين نصيب هذا الشك من الصحة . يستوى في ذلك [illegible] لابي مسلم والمدعوه العباسيه المســاعدات المالية والحـربية ، [illegible]

الذين لم يقدموا وسواء أكانوا من علية القوم أو عامة الناس ! وكأن المؤلف يريد أن يؤكد ظاهرة القتل العشوائى التى صاحبت قيام الدولة العباسية ، وهو ما يمكن أن يتخذ اشارة الى ما كان يوقعه الحكام الاتراك وغيرهم بالثائرين على حكمهم فى سائر أقطار العالم العربى فى تلك الفترة التى سبقت خروج تركيا من العالم العربى .

والملاحظة الثانية : أن المؤلف قد جعل هذه الاحداث فى صورها المختلفة من تدبير شخص واحد ، جعل له قدرة سحرية على صنع الاحداث وتوجهها واللعب بأفكار الحكام والسيطرة على عقولهم ، وهو واحد من زعماء الخوارج تسمى بأسماء مختلفة في هذه القصة! ويستغرب المرء أن يلعب مثل هذا الشخص دورا خطيرا كهذا الدور بحيث يقدر على خديعة سائر المشتركين في الاحداث ، سواء في ذلك الامويون أو العباسيون ، ولا يكتشف أمره الا بعد أن يتم له صنع الاحداث بالصورة التي كان يريدها ، وبصرف النظر عن رأينا في هذه الشخصية بوصفها شخصية قصصية فان الذى يعنينا من رسم المؤلف لها على هذا النحو هو دلالتها الرمزية ، وكأنه يريد بذلك أن يطلعنا الى مدى تمكين أن يضل الحكام ضلالا بعيدا حين تصور لهم الاحداث على هذا النحو أو ذاك ، البعيد عن الحقيقة فيندفعون

فى تصرفات لا تبررها حقائق الاحداث • أو بعبارة اخرى انه يطلعنا على لون من الدس والخداع والتآمر الذى كان يشـــيع فى بلاط الحكام والذى يشقى منه الوطنيون شقاء بعيدا •

والملاحظة الثالثة : ان المؤلف كما حرص على أن يجعل تصرفات صناع الاحداث فى هذه القصة أسرى الدس والخديعة والجهـــل بحقائق الامور ، فانه قد جعلهم فى الوقت نفســه اسرى الايمــان بالتنجيم والسعى الى معرفة الاسرار عن طـريق العرافين ، الذين حرص على ان يكونوا هم ايضا اشخاصا مدسوسين عليهم • وبذلك تكتمل الصورة التى اراد أن يرسمها لهذه الفترة التــاريخية بكل مافيها من فوضى وظلم وجهل • وهى صورة يمكن أن نقول فى آخر الامر انه يعادل بها فى شكلها التاريخى والفنى واقع الحياة العربى بكل ما كان فيه من صراع وفوضى وجهل ، وما كان يؤدى اليه ذلك من ظلم وسفك للدماء •

واذا كان لنا ان نقول شيئا عن القصة بوصفها عملا فنيــا فهو انها نمط من الكتابة القصصية ، يقترب من الفن القصصى فى صورته الحديثة ولكن لا نتحقق فيه مقومات الفن الروائى فى صـــــورته

المكتملة ، ومن ثم فاننا نستطيع أن نرى فى هذه الاعمال الروائيه تمثيلا لمرحلة مهمة هى مرحلة البدايات فى كتابة الرواية العربية الحديثة ، كان لجرجى زيدان ومحمد حسين هيكل فضل ريادتها ٠

ولعل أهم ما نأخذه على هذه القصة أن المؤلف قد اقام الاحداث على عامود واحد . هو كما أشرنا من قبل رجل من الخوارج ، تخفى فى شخصيات مختلفة واتصل برؤساء الاحداث من الجانبين ، واستطاع بدهائه أن يسير بهذه الاحداث الكبيرة فى الطريق التى يريدها ٠ ويستغرب المرء أن نكون لشخصية واحدة مثل هذا التاثير الضخم فى توجيه أحداث هذا الانقلاب الكبير الذى انتهى بسقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية !

ومهما يكن رأينا فى ذلك ، فان قيام الرواية على شخصية رئيسية واحدة يمكن أن يعرضها للانهيار بانهيار هذه الشخصية نفسها ، وهو عيب فنى بدأت القصة الحديثة تتخلص منه بانتقالها من البطولة الفرديه الى ما يسمى بالبطولة الجماعية ٠

د ٠ ابراهيم عبد الرحمن محمد

أبو مسلم الخراساني

رواية تاريخية

تشتمل على سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية، وسعى أبي مسلم الخراساني فى تأييدها بالقتل والفتك وشدة البطش ، الى ولاية المنصور ، ومقتل ابى مسلم . ويتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين واخلاقهم ونقمة الموالى على بنى امية ، وتنافس بنى هاشم على البيعة

تاليف

جرجي زيدان

دار الهلال

أبطال الرواية

* ابراهيم الامام	: صاحب الدعوة العباسية
* أبو مسلم الخراسانى	: عبد الرحمن بن مسلم
* أبو العباس عبد الله بن محمد	: أول الخلفاء العباسيين
* أبو جعفر المنصور	: ثانى الخلفاء العباسيين
* نصر بن سيار	: أمير خراسان
* دهقان مرو	: أحد الامراء الفرس
* جلنار	: ابنة دهقان مرو
* مروان بن محمد	: آخر الخلفاء الامويين
* خالد بن برمك	: قائد عباسى
* أبو سلمة الخلال	: ممول الدعوة العباسية

مراجع هذه الرواية

هذه هى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

* تاريخ الطبرى
* تاريخ ابن الأثير
* تاريخ ابن خلكان
* تاريخ الاصطخرى
* تاريخ التمدن الاسلامى
* مروج الذهب للمسعودى
* معجم الادباء لياقوت
* الاحكام السلطانية

— ١ —

الأمويون والعباسيون

تمتاز دولة بنى أمية عن دولة الخلفاء الراشدين بأن السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية الى الملك السياسى . وتمتاز عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة شديدة التعصب للعرب ، كثيرة الاحتقار لسواهم . ولذلك فان أهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الأصليين قاسوا من خلفاء بنى أمية ومن عمالهم الأمور الصعاب .. حتى الذين أسلموا منهم ؛ فان العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد . وكانوا يسمونهم « الموالى » ويعدون أنفسهم ذوى احسان عليهم لأنهم أنقذوهم من الكفر . واذا صلوا خلفهم فى المسجد حسبوا ذلك تواضعا لله . وكان بعض العرب اذا مرت به جنــازة مسلم قال : « من هــذا ؟ » فاذا قالوا : « قرشى » قال : « وا قوماه » واذا قالوا : « عربى » قال : « وا بلدتاه » واذا قالوا . « مولى » قال : « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » . وكانوا يحرمون الموالى من الكنى ولا يدعونهم الا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون فى الصف معهم ؛ وكانوا يسمونهم العلوج . وفى كتاب الموالى للجاحظ أن الحجاج لما قبض على

الموالى الذين حاربوا مع ابن الأشعث أراد أن يفرقهم حتى لايجتمعوا ، فنقش على يد كل واحد اسم البلدة التى وجهه اليها . وقد تولى ذلك النقش رجل من بنى عجل . فقال الشاعر :

وأنت من نقش العجلى راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم (١)

فكان سكان المملكة الاسلامية غير العرب يقاسون مر العذاب من عمال بنى أمية ، ويودون التخلص من دولتهم . وكانوا أول المجيبين لمن يدعو الى غيرها ، أو يطلب اسقاطها —

ولولا دهاء بعض خلفائها وأمرائها لما طالت مدة حكمها ، ولكنها قامت بدهاء معاوية وأنصاره : كزياد بن أبيه ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة . والناس بايعوا معاوية رهبة من سيفه أو رغبة فى عطائه ، وهم يعتقدون أن أهل بيت النبى أولى بذلك الأمر ، وقد تهيأت لهذه الدولة ظروف كثيرة ساعدت على بقاء الخلافة فى بنى أمية نيفا وتسعين سنة

وكان أهل بيت النبى فى أثناء ذلك يطلبون الخلافة لأنفسهم ولا يفلحون ، وهم فئتان كبيرتان : فئة ترجع بأنسابها الى الامام على ابن عم النبى وهم العلويون ، وفئة ترجع الى العباس بن عبد المطلب عم النبى وهم العباسيون . والعلويون فئتان : فئة تطالب بالخلافة لأبناء على من زوجته فاطمة بنت النبى ، وهم : الحسن

---

(١) التمدن الاسلامى — الجزء الثانى

والحسين ومن تسلسل منهما ، وفئة تطلبها لابنه محمد بن الحنفية . وكان دعاة محمد هـذا يقال لهم الكيسانية ، وأما العباسيون فتسمى شيعتهم الراوندية

والعباسيون لم يطالبوا بالخلافة الا فى أواخر دولة بنى أمية . وأما العلويون فما انفكوا من زمن معاوية وهم يطالبون بها ، فيرسلون الدعاة الى أنحاء المملكة الاسلامية يدعون الناس اليهم، وكثيرا ما اجتمع حول بعضهم ألوف من الأنصار والأشياع ، ولكنهم لم يفلحوا .. حتى اذا انقضى القرن الأول وأخذ شأن بنى أميـة فى الضعف . وأخذت دولتهم فى الانحلال ، كانت دعوة الكيسانية قد وجدت صدى . وهم يدعون لأبى هاشم بن محمد بن الحنفية المذكور . وقد كثر دعاتهم فى العراق وخراسان ؛ وكان أبو هاشم قد أوصاهم انه سيحول الدعوة الى آل العباس . فلما علمت شيعة أبى هاشم بموته قدموا الى محمد بن على بن عبد الله ابن عباس المذكور وبايعوه ؛ فبعث الدعاة الى الآفاق فى السنة المائة للهجرة سرا . وكان أكثر الذين أجابوا الدعوة من الموالى غير العرب ، وخاصة فى خراسان لبعدها عن مركز الخلافة الأموية بدمشق . وفى سنة ١٢٤ هـ توفى محمد بن على صاحب الدعوة فبايع الناس ابنه ابراهيم وكانوا يسمونه الامام . وما زال أمر العباسيين يقوى وأمر الأمويين يضعف حتى انقضت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ ، وكان قائد شيعة

الموالى الذين حاربوا مع ابن الأشعث أراد أن يفرقهم حتى لايجتمعوا ، فنقش على يد كل واحد اسم البلدة التى وجهه اليها .

وقد تولى ذلك النقش رجل من بنى عجل . فقال الشاعر :

وأنت من نقش العجلى راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم (١)

فكان سكان المملكة الاسلامية غير العرب يقاسون من العذاب من عمال بنى أمية ، ويودون التخلص من دولتهم . وكانوا أول المجيبين لمن يدعو الى غيرها ، أو يطلب اسقاطها —

ولولا دهاء بعض خلفائها وأمرائها لما طالت مدة حكمها ؛ ولكنها قامت بدهاء معاوية وأنصاره : كزياد بن أبيه ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة . والناس بايعوا معاوية رهبة من سيفه أو رغبة فى عطائه ، وهم يعتقدون أن أهل بيت النبى أولى بذلك الأمر ، وقد تهيأت لهذه الدولة ظروف كثيرة ساعدت على بقاء الخلافة فى بنى أمية نيفا وتسعين سنة

وكان أهل بيت النبى فى أثناء ذلك يطلبون الخلافة لأنفسهم ولا يفلحون ، وهم فئتان كبيرتان : فئة ترجع بأنسابها الى الامام على ابن عم النبى وهم العلويون ، وفئة ترجع الى العباس بن عبد المطلب عم النبى وهم العباسيون . والعلويون فئتان : فئة تطالب بالخلافة لأبناء على من زوجته فاطمة بنت النبى ، وهم : الحسن

---

(١) التمدن الاسلامى — الجزء الثانى

والحسين ومن تسلسل منهما ، وفئة تطلبها لابنه محمد بن الحنفية . وكان دعاة محمد هـذا يقال لهم الكيسانية ، وأما العباسيون فتسمى شيعتهم الراوندية

والعباسيون لم يطالبوا بالخلافة الا فى أواخر دولة بنى أمية . وأما العلويون فما انفكوا من زمن معاوية وهم يطالبون بها ، فيرسلون الدعاة الى أنحاء المملكة الاسلامية يدعون الناس اليهم، وكثيرا ما اجتمع حول بعضهم ألوف من الأنصار والأشياع ، ولكنهم لم يفلحوا .. حتى اذا انقضى القرن الأول وأخذ شأن بنى أمية فى الضعف ، وأخذت دولتهم فى الانحلال ؛ كانت دعوة الكيسانية قد وجدت صدى ، وهم يدعون لأبى هاشم بن محمد بن الحنفية المذكور ، وقد كثر دعاتهم فى العراق وخراسان ، وكان أبو هاشم قد أوصاهم انه سيحول الدعوة الى آل العباس . فلما علمت شيعة أبى هاشم بموته قدموا الى محمد بن على بن عبد الله ابن عباس المذكور وبايعوه ، فبعث الدعاة الى الآفاق فى السنة المائة للهجرة سرا . وكان أكثر الذين أجابوا الدعوة من الموالى غير العرب ، وخاصة فى خراسان لبعدها عن مركز الخلافة الأموية بدمشق . وفى سنة ١٢٤ هـ توفى محمد بن على صاحب الدعوة فبايع الناس ابنه ابراهيم وكانوا يسمونه الامام . وما زال أمر العباسيين يقوى وأمر الأمويين يضعف حتى انقضت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ ، وكان قائد شيعة

العباسيين شابا فارسيا اسمه أبو مسلم الخراسانى ، هو بطل هذه الرواية

– ٢ –

دهقان مرو

كانت بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر قبل الفتح الاسلامى مؤلفة من المدن والقرى ، وكان رجال الحكومة يقيمون فى المدن ويجعلون فيها كل قوتهم ، وأما القرى فقد كانت فى حوزة جماعة من أشراف الفرس يعرفون بالدهاقين ، على نحو ما كانت عليه حال قرى أوربا فى عصر الاقطاع .. اذ كانت البلاد فى أيدى الأمراء الأشراف من الكونتية واللوردية ، وكل أمير منهم يحكم مقاطعة تعرف باسمه يحرسها جنده ويزرعها رجاله ، وهو فيهم مكان الحاكم المطلق . وكان الدهقان ورجاله يحكمون أهل القرى سكان البلاد الأصليين ، ويستخدمونهم استخدام الرق ، وكان السكان خليطا من الشعوب الآرية يمتازون بضخامة البدن وبروز الصدر

كذلك كان الدهاقون فى خراسان وغيرها حينما فتح العرب تلك البلاد .. فهم انما فتحوا المدن وأقاموا فيها الحامية . أما القرى فأقروا فيها الدهاقين على نحو ما كانوا عليه فى دولة الفرس ،

واستعانوا بهم فى كثير من الأحوال ، وبخاصة فى جمع الخراج بما كان لأولئك الدهاقين من النفوذ العظيم على أهل البلاد الأصليين ، وكثيرا ما كانوا يتجسسون بهم على أحوال الحكام وغيرهم . وكان الدهاقون من الجهة الأخرى ينتفعون بتقربهم من الفئة الحاكمة ويجتزئون مما كانوا يجمعونه من الخراج ، فتضاعفت ثروتهم وزاد نفوذهم . على انهم كانوا يتفاوتون ثروة ونفوذا فمن صاحب القرية الصغيرة ، أو المزرعة ، الى صاحب الرساتيق العديدة والبلاد الواسعة ، وكثيرا ما كانوا يتولون الحكومة كالأمراء ، لكن بنى أمية كانوا يسيئون الى أولئك الدهاقين أحيانا فى جملة اساءتهم الى غير العرب .. وكانت ديانة الدهاقين المجوسية ديانة الفرس القدماء ، وانقضت أيام بنى أمية ولم يسلم منهم الا القليلون

وكان أعظم دهاقين خراسان فى أوائل القرن الثانى للهجرة دهقانا كانت ضياعه أكثرها بجوار مدينة مرو عاصمة خراسان فى ذلك العهد ، ولذلك غلب عليه الانتساب الى تلك المدينة فكان يسمى « دهقان مرو » . وكان لهذا الدهقان ابنة اسمها جلنار غلبت شهرتها على شهرته بالجمال والعقل ، وقد ذاع ذكرها بين الناس حتى أصبحت مضرب أمثالهم بالانفة والامساك عن الزواج مع كثرة الخطاب من كبار الدهاقين والأمراء . وكان اذا طلبها طالب ، عرض أبوها عليها أمره ورغبها فيه .. فاذا أبت جاراها

فى الرفض

وكان الدهقان المذكور يقيم فى مزرعة له على بضعة أميال جنوبى مرو فى قصر فخم تأنق فى بنائه ، وأنشأ حوله الحدائق غرس فيها الأشجار المثمرة وأصناف الرياحين والأزهار وسرّح فيها الطيور الداجنة ، وفى جملتها الطاووس ، والديك الهندى ، وأصناف الدجاج ، وقد ابتنى لها أقفاصا فى بعض جوانب الحديقة ، وأقام حول القصر والحديقة سورا عاليا منيعا كأسوار القلاع .. وخارج السور منازل رجال الحاشية والأعوان ؛ وبينها أعشاش يقيم فيها الحراثون والخدم

ولم يكن يقيم فى القصر الا الدهقان ونساؤه وخدمه وبنته ، ولم يكن له أبناء سواها . والقصر المذكور مبنى على نمط خاص يحسبه المقبل عليه هيكلا من هياكل النار التى كان الفرس يصلون فيها قبل الاسلام . والظاهر ان هذا القصر كان هيكلا لعبادة النار ، فلما أسلم أصحابه حوّلوه الى قصر للسكن ، وأنشأوا حوله الحديقة والسور . ولذلك كان المقبل على القصر يرى فى صدره أساطين من الرخام ضخمة عليها نقوش فهلوية هى عبارة عن صور بعض الأبطال ، وبعض نصوص الأدعية أو الصلوات على اصطلاحهم . وتحيط هذه الأساطين برحبة أرضها من الرخام مرتفعة عن أرضية الحديقة وتشرف عليها ، وفى سقفها نقوش ملونة تمثل بعض الخرافات القديمة عند المجوس ، وفيها مواقع حربية أو

حوادث دينية ، وكانوا يسمون تلك الرحبة قاعة الأساطين أو القاعة الكبرى . ووراء تلك القاعة غرف كبيرة مفروشة بأثمن الأثاث من الديباج والابرسيم على النمط الفارسي

— ٣ —

جلنار

وذات ليلة من ليالي رجب المقمرة من سنة ١٢٩ هـ كان الدهقان جالسا فى تلك القاعة بين تلك الأعمدة ، وقد فرشوا المكان بالسجاد وفوقه الوسائد المزركشة بالذهب ، وفى وسط القاعة شبه منضدة من خشب الصندل المرصع بالأصداف الملونة ، وعلى المنضدة تمثال صغير من الذهب يشبه فارسا فارسيا عليه الدرع وعلى رأسه الخوذة والى جنبه السيف ، وعينا الفارس وعينا الجواد من الحجارة الكريمة . وقد علقوا فى سقف القاعة عدة مصابيح بينها مصباح كبير فى وسطها ، فأضاءوا المصابيح فى تلك الليلة كالعادة ولكن القمر أغناهم عن نورها

وكان الدهقان جالسا فى صدر القاعة على وسادة من الحرير وعليه قباء من الديباج الأحمر وعلى رأسه قلنسوة من الجلد الملون ، وحول القلنسوة عمامة صغيرة من نسيج الكشمير يغلب فيها اللون الأبيض . وكان القباء مبطنا بالفرو لأنهم كانوا فى

فصل الربيع . وكانت تلك الليلة باردة ، فالتف الدهقان بقبائه وبالغ فى الالتفاف حتى غطى الفرو عنقه ومعظم لحيته . وكان كبير الوجه ، جاحظ العينين ، ضخم الأنف ، أشقر الشعر ، وقد خالطه الشيب قليلا فيحسبه الناظر اليه فى الخمسين من عمره وهو فوق الستين ، وبعد أن جلس هناك وحده ساعة نهض بغتة ودخل يطلب غرفة ابنته ، فبغت الخدم لقيامه وتفرقوا من بين يديه ثم وقفوا احتراما له . وكانت جلنار قد ذهبت الى غرفتها بعد العشاء وبعثت الى ماشطتها الخاصة فجاءتها وأعانتها على خلع ثيابها ونزع حليها ، ثم جلست الى جانب فراشها لتحادثها ريثما تنام وقد آن وقت النوم ، ولكن جلنار احتالت فى الذهاب الى الفراش لتخلو بماشطتها وتحدثها بما فى نفسها

وكانت جلنار على جانب عظيم من الجمال ، مستديرة الوجه ، ممتلئة الجسم ، معتدلة القامة ، بيضاء البشرة مع حمرة تتلألأ تحت ذلك البياض ، سوداء الشعر مسترسلته ، نجلاء العينين كحلاءهما مع جاذبية وحلاوة يندران فى البيض ، لأن الجاذبية تغلب فى السمر . وكان لها فى مقدم الذقن فحصة ، واذا ابتسمت ظهر لها الى جانب الفم فحصتان هما الغمازتان

فلما فرغت الماشطة من تبديل ثيابها ألبستها قميصا من الحرير الناعم وردى اللون ، وحلّت شعرها وسرحته بمشط من العاج ، فاسترسل الى كتفيها ثم ضفرته ضفيرة واحدة لئلا يضايقها أثناء

النوم . وكانت الماشــطة من أهل الذكاء والعقل وأصلها سرية ابتاعها الدهقان فى جملة جوار بيض من بعض تجار الرقيق الذين يتجرون بالمماليك من بلاد الترك والخز ، ولكنها تمكنت بذكائها وأسلوبها من اكتساب ثقة الدهقانة جلنار حتى جعلتها ماشطتها . والماشــطة من أصحاب النفوذ الأكبر فى بيوت الدهاقين ، لأن نساءهم يفضين بأسرارهن الى الماشطة ويعتمدن عليها فى المهام العظام . فاذا كانت من أهل الذكاء والدهاء ملكت زمام القصر وسيطرت على الدهقان والدهقانة

وكانت ماشطة جلنار واسمها ريحانة قد ملكت ثقة سيدتها وتمكنت من محبتها ولاسيما بعد وفاة والدتها ، فأصبحت ريحانة مركز آمالها وخزانة أسرارها ، فلما فرغت من تبــديل الثياب استلقت جلنار على فراش أنيق من ريش النعام ، غطاؤه سماوى اللون .. فغرقت فيه ، واتكأت بذراعها اليسرى على وســادة مزركشة وأسندت خدها على كتفها وتغطت باللحاف الى أسفل الكتف وأرسلت يدها اليمنى فوقه ، وقــد نزعت من معصمها أكثر الحلى الا الأساور ، وانحسر الكم عن زندها فظهر بضا أبيض . فتوسدت على تلك الصورة ووجهها نحو ريحانة ، وكانت ريحانة قد لفت رأسها وحول عنقها بخمار من نسيج الكشمير ولبست دراعة مستطيلة تحتها سراويل منتفخة على نمط ملابس الفرس فى تلك الأيام وليس عليها شىء من الحلى

جلست ريحانة الى جانب جلنار وقد تملكتها الدهشة لما آنسته من سكوتها وانقباضها أثناء تبديل الثياب .. وكانت عادتها أن تغتنم مثل تلك الساعة للممازحة والمضاحكة . فلما رأت ريحانة سكوتها جارتها فى السكوت تأدبا ، وصبّرت نفسها حتى تبدأ هى الحديث مع علمهـا ببعض ما يجول فى خاطر سـيدتها من الهواجس . فلما اتكأت جلنار أشارت الى ريحانة أن تغلق باب الغرفة ففعلت وعادت الى مكانها ، ومدت يدها الى شعر جلنار وجعلت تلاعبه بين أناملها ثم مرّت بيدها على رأسها ، وهى تنظر الى وجهها وتبتسم كأنها تستفسر منها عن سبب ذلك السكوت . فقالت جلنار باللغة الفارسية ، وكانت تعرف العربية مثل معظم أهل فارس فى ذلك العصر لأنها لغة الفئة الحاكمة .. لكنهم كانوا يتفاهمون فيما بينهم بالفارسـية لغة آبائهم ، فقالت جلنـار : « ما قولك فى أبى .. ؟ »

قالت ريحانة : « انه يريد لك الخير .. »

قالت : « صدقت .. ولكنى أراه شديد الرغبة فى زواجى .. »

فقالت ريحانة : « أتلومينه على ذلك ؟.. وأى أب لايريد أن يزوج بناته ؟.. وأنت ـــ من نعم المولى ـــ فى رغد وسعادة وأبوك أكبر دهاقين خراسـان وليس له سواك ، وكلما جاءك طالب رفضته ، أفيلام أبوك اذا غضب ... »

فتنهدت جلنار وكأنها أرادت السكوت ولم يطاوعها قلبهـا

فقالت ، وهى تتشاغل باصلاح قميصها عند العنق : « وهل تظنين انى أكره الزواج ..؟ لكنى أرى أن والدى لايهتم فى زواجى الى غير مصلحته ، وأنت تعلمين ذلك »

فتجاهلت ريحانة وقالت : « لا أراه كما تقولين — يامولاتى — لأنه انما أراد زواجك بأكبر أمراء العرب فى خراسان ، ولا يخفى عليك ان هذا الأمير لا يطلب فتاة الا نالها لأنه الحاكم النافذ الكلمة .. ومن تقرب منه اكتسب مثل هذا النفوذ .. »

فقطعت جلنار كلامها قائلة : « وهذا ما أقوله .. ان أبى يريد تزويجى بابن الكرمانى أمير هذا الجند ليكتسب النفوذ عنده وليكثر دخله من جباية الخراج .. ثم ان الكرمانى هذا لم يتم له الأمر ، فهو ليس الأمير الحاكم وانما هو يطلب الحكم لنفسه وما أدرانا انه سوف يناله ؟ ! »

قالت ريحانة : « أما ظفره بالامارة ، فاننى واثقة من ذلك لما علمته من قوة جنده ، فهو الآن يحاصر مرو عاصمة خراسان وقد ضيق على أميرها نصر بن سيار حتى فرَّ نصر من بين يديه . ولا يبعد أن يعود نصر الى التسليم فيصير الكرمانى صاحب الأمر والنهى فى خراسان ، فتكونين حينئذ أميرة خراسان... »

قالت : « أراك تخلطين وتتخبطين .. أأتزوج ابن الكرمانى على أمل أن أباه سيغلب أمير خراسان ويقوم مقامه ؟ وما أدرانا أن الخليفة فى الشام سيرسل جندا ليحارب الكرمانى هذا ويقهره ..

فكيف تكون حالنا ؟ »

فابتسمت ريحانة وقالت : « أما من ناحية الخليفة فى الشام ، فكونى على يقين من انه لن يحرك ساكنا لاشتغاله بما حوله عما هو بعيد عنه . فقد علمت من خادمك الضحاك انه لما تولى الخليفة الحالى مروان بن محمد قامت الناس عليه ، حتى أهله ورجاله . وقد قضى زمنا وهو يحارب ويغالب فى بلاد الشام ولم يستطع اخضاع تلك البلاد الا بشق الأنفس . فهو لايطمع فى استرجاع خراسان اذا تغلب عليها رجل مثل الكرمانى »

قالت جلنار : « لقد ذكرتنى بذلك المضحك .. انه خفيف الروح ، وأراه برغم أنه عربى يعرف اللغة الفارسية جيدا ، ومع ما يظهر من بلهه وضحكه المتواصل وخفة روحه فانه بعيد النظر ذو دهاء ، ويمكن الاعتماد عليه . ومن الغريب انه عربى وقد دخل فى خدمتنا على هذه الصورة .. أين هو الآن ؟ استدعيه لعلنا نستفيد شيئا من حديثه .. »

— ٤ —

طارق

فهمّت ريحانة بالنهوض ، فسمعت خفق نعال أمام باب الغرفة فعرفت للحال ان الدهقان مار من هناك ، فلبثت ريثما ... فاذا هو

قد وقف بالباب ثم فتحه ودخل وهو ملتف بالقباء كما تقدم ، فأسرعت ريحانة وهرولت نحو الباب وخرجت احتراما لسيدها . وأما جلنـــار فانها جلست فى الفراش وقد ظهرت البغتـــة على وجهها ، ولكنها كانت رابطة الجأش فتجلدت ورحبت بوالدها . فأقبل حتى وقف بجانب فراشها ثم انحنى وأمسك ذقنها بين أنامله كأنه يلاعبها استعطافا لها واسترضاء لخاطرها .. أما هى فلم تجهل غرضه ، فظلت صامتة حتى خاطبها قائلا : « أراك تلتمسين النوم فى ساعة مبكرة ياجلنار ..؟ »

قالت : « شعرت بالتعب ، فأحببت أن أستريح فى الفراش .. وأنا لا أشعر بالنعاس .. »

قال : « هلمّ بنـــا اذن الى القاعة الكبرى فان الجلوس فيها يشرح الصدر لما تطل عليه من الأزهار والرياحين ، ونحن فى ابان الربيع فضلا عن نور القمر الساطع .. »

فلم يسع جلنـــار الا أن تنزل عنـــد رأى والدها ، فنهضت وتزملت بملاءة كبيرة من نسيج الكشمير يغلب فيها اللون العنابى غطت ثيابها .. ومشت معه حتى وصلا الى القاعة ، فجلسا على وســـادتين متحاذيتين وجلنار تتوقع من أبيها حديثا لايرضيها ، فلما استقر بهما الجلوس قال الدهقان : « رأيتك ياجلنار فى هذا المســـاء على غير ما تعودته من طاعتك ، فما الذى حملك على ذلك ؟ »

فقالت وهى مطرقة : « انى أطوع لك من بنانك يامولاى .. »

قال : « فما بالك لما ذكرت لك ما بعث به الينا أمير العرب من خطبتك لابنه سكت وتجاهلت ؟ ألا تعلمين ان مصاهرة هـذا الأمير ستكون من أكبر أسباب سعادتك ؟ »

قالت : « وأى أمير تعنى يا أبتاه ؟ »

قال : « أعنى ابن الكرمانى قائد قبائل اليمنية الذى يحاصر مدينة مرو الآن ، أو هو فتحها على ما بلغنى وقد فرّ نصر منها »

قالت : « انى لا أفعل الا ما تأمرنى به ، لكننى لا أثق بفوز هذا الأمير .. وقد رأيتك لما بعث نصر بن سيار أمير تلك المدينة يطلبنى منك لابنه ، لم تجبه مع أنه صاحب حكومة خراسان .. »

قال : « وهذا يدلك على اعزازى لك وسعيى فى راحتك ، لأن نصراً هذا لايلبث أن يغلب على ما فى يده ويخرج من هـذه البـلاد مدحوراً لضعف حاميته وانحطاط دولة بنى أمية على الاطلاق ، وقد أصبح أهل خراسان كافة ناقمين عليها بعد ما ظهر لهم من ايثارها العرب على الفرس ومطالبتهم بالضرائب الفادحة بغير حق ، حتى طلب عمالها الجزية من المسلمين على غير القواعد المرعية فى الاسلام .. »

قالت : « لا أجهل استبداد هذه الدولة ، ولكنها لا تزال فى اعتبارى أقوى من رجال لا دولة لهم ولا حكومة كابن الكرمانى. فانه أشبه برجل ثائر على حكومته ، وشأنه فى ذلك شأن جماعة

الخـوارج الذين يجتمعون على الدولة ثم يتفرقون ويقتـلون وآخرهم شيبان الذى رأيناه بالأمس محاصراً لمرو . وزد على ذلك ان ابن الكرمانى ليس معه من الأحزاب الا القبائل اليمنية من العرب ، وأما سائر القبائل المضرية فهم مع نصر بن سيار ــ وربما كانوا فى قوة اليمنية أو زادوا عليها ــ وهل نسيت حزب الشيعة القائم الآن فى بنى العباس وامامهم ابراهيم بن محمد .. ألم نكن نحن فى جملة الفرس الذين عاهدوا دعاة العباسية على نصرتهم وأكثر أحزابهم من أهل خراسان ؟ »

قال : « صدقت ، نحن عاهدنا الشيعة وساعدناهم . ولكن يظهر لى انهم يقولون ولا يفعلون .. فقد مضى عليهم عدة أعوام منذ دعونا الى نصرتهم سراً فمـددناهم بالأموال مراراً ولكنهم لايزالون الى الآن يتكتمون . وأما ابن الكرمانى هذا فانه جمع الجند ولا يلبث أن يستولى على مرو ، واذا هو فتحها أصبح أمير خراسان .. ثم يفتح سواها ، وتصير له دولة قوية تقوم مقام دولة بنى أمية .. وأكبر شاهد على ذلك انه تغلب بالأمس على الحرث ابن سريج وقتله وشتت جنده ، ثم انتصر على مرو وفرّ نصر منها وهو لايزال فاراً .. فابن الكرمانى صاحب الأمر والنهى الآن .. فأطيعينى وأنت الرابحة ، واذا كان الأمير صهرنا فيكون لنا النفوذ الأعظم وتكونين أنت أميرة خراسان كلها .. ومع ذلك فانى قد وعدته بك من قبل ، وبعث الىّ بالمهر مع الرسول »

فسكتت جلنار وأطرقت ، فظن أبوها أن سكوتها دليل على الموافقة . وأراد أن يثبت ذلك فصفق ، فجاءه أحد الغلمان فقال : « آتونى بالضحاك العربى .. »

— ٥ —

الضحاك

ولم يمض قليل حتى جاء الرجل ، وكان طويل القامة ، رقيق البدن ، محدودب الظهر قليلا بسبب طوله ، وكان لاينفك ضاحكا لغير سبب بما يشبه البله ، وكان يعتم بعمامة كبيرة جداً مع صغر وجهه ، وغور عينيه وصغرهما ، وخفة شعر لحيته وشاربه ؛ فيصير منظره مضحكا ، ولا يكلمه أحد الا أضحكه ، وكان قد دخل فى حوزة الدهقان على سبيل البيع ، فاشتراه من بعض تجار الرقيق وقد احتفظ به لأنه عربى . وكان يندر أن يباع العرب بيع الرقيق فى تلك الأيام . وقد أعجبه ما كان فيه من خفة الروح ، فكان كثيراً ما يدعوه ويسأله بعض الأسئلة عن العرب فيجيبه عنها اجابة خبير ويخلط الجد بالهزل . فلما أنس الدهقان فى ابنته الانقباض فى تلك الليلة أراد أن يفرج عنها فاستقدمه . فلما دخل ألقى التحية ثم غمز عمامته فانحرفت الى جانب رأسه فأصبحت

بكبرها وانحرافها ذات منظر غريب ، والضحاك مع ذلك يضحك ويقهقه بلا سبب ظاهر

فلما رأته جلنار ضحكت لأنها كانت تستأنس به كثيراً ، وكانت تتوقع أن تستخدمه فى بعض مصالحها لمـا تحققته من جده فى معرض المزاح . فقال الدهقان : « متى يثبت سلطان بنى أمية فى خراسان ..؟ »

فأجاب على الفور : « متى شاب الغراب يامولاى !.. »

فالتفت الدهقان الى ابنته وابتسم كأنه يقول لها : « ألم أقل لك ذلك ؟ » ثم التفت الى الضحاك وقال : « كيف تقول ذلك والأمويون لايزالون أهل سلطان ، وخليفتهم فى الشـام عنده الجند والأعوان ، ألا تظنه ينجد هذه المدينة وينقذها من أصحاب الكرمانى ؟ »

فقهقه الضحاك قهقهة عظيمة وقال : « مسكين نصر بن سيار . لقد بح صوته وهو يستنجد بنى أمية وينذرهم بسوء المغبة ان لم ينجدوه وما من مجيب . وقد بلغنى انه استعان فى اقناع الخليفة بالشعر فنظم له قصيدة قال له فيها :

أرى بين الرماد وميض نار
وأخشى أن يـكون له ضرام
فان النـار بالعـودين تذكى
وان الحـرب مبـدؤها كلام

فقلت من التعجب ليت شعرى
أأيقــاظ أميــة أم نيام ؟ ..

« أتدرى بماذا أجابه الخليفة على ذلك ؟ »

قال الدهقان : « بماذا أجابه ؟ »

قال : « كتب اليه ان الشاهد يرى ما لايراه الغائب (وضحك ضحكة طويلة) ولم يسعفه بشيء »

فنظر الدهقان الى ابنته واكتفى بتلك النظرة تأييداً لقوله . وكانت هى فى الحقيقة لم تقتنع.. ولم يكن تمنعها لسبب سياسى أو طمع فى سلطان .. ولكنها كانت ذات قلب يحب ويبغض ، فاذا سلمت قيادها الى والدها لا تستطيع أن تسلم قلبها لابن الكرمانى لاشتغالها بحب رجل رأت انه يستحق محبتها ، وكانت قد شاهدته فى مجلس والدها مرة فأعقبت تلك النظرة ألف حسرة ، ولكنها لم تكن تجرؤ على مخاطبة أبيها لأنها لم تكن تعلم ما اذا كان عند الرجل مثل ما عندها ، فسكتت . فأشــار والدها الى الضحاك فخرج مهرولا . فلما خلا الدهقان بابنته قال لها : « سأرد رسول الكرمانى فى الغد بجواب الرضى وتوكلى على الله » فلم تجب فلم يهمه سكوتها لاعتقاده انه سكوت الحياء

وكانت هى فى أثناء صمتها ، قد شغل ذهنها سماع أجراس عن بعــد لهدوء الطبيعة فى تلك الليلة المقمرة ، ثم سمعت نبــاح الكلاب وهى لا تنبح الا على طارق . فتشاغلت عن سؤال أبيها

بالاصغاء الى رنات الأجراس ، فانتبــه أبوها لذلك فقال لها : « يظهر ان قافلة تسير ليلا فى ضوء القمر » ثم أخذت أصوات الأجراس تقترب ونباح الكلاب يشتد والدهقان وابنته صامتان ، وكل منهما فى شغل . وقد فرح الدهقان بقبول ابنته لاعتقاده بما سيكون من أمر الكرمانى وسلطـانه ، وما سينـال من النفوذ والكسب على يده ، ولعلمه انه اذا لم يقبل طلبه طوعا فسيضطر لقبوله كرها

– ٦ –

أبو مسلم الخراسانى

ولم يمض قليل حتى سمع صوت الجمال وصهيل الخيل وضوضاء الناس ، ثم جاء بعض الغلمان مهرولين وهم يقولون : « ان قافلة كبيرة وقفت بجانب القرية تطلب النزول بدار الضيوف »

فقال : « وهل هم كثيرون ..؟ ومن أين هم قادمون ؟ »

قالوا : « انهم يزيدون على مائة نفس ومعهم الجمال والخيل »

فقال : « لا أظنهم يريدون الاقامة جميعا عندنا ، ومع ذلك فادعوهم للنزول »

فعاد الغلمان وبعد قليل جاء أحدهم وهو يقول : « ان رجال القافلة يطلبون مقابلة الدهقان »

قال : « فليدخلوا .. »

فوقفت جلنار تريد الرجوع الى غرفتها فأمسكها أبوها وقال :

« لا بأس عليك .. انتظرى حتى نرى من هم القادمون .. »

وبعد قليل أقبل رجلان قد تزمل كل منهما بقباء أسود وتلثم بلثام أسود ، ووراءهما رجلان يحملان حزمة طويلة يسندانها من طرفيها على أكتافهما . فلما وصلا الى مكان الدهقان فى القصر ، أنزلاها الى الأرض ووقفا هناك . أما الاثنان الأولان فدخلا دخول الأمراء ، وحييا الدهقان بالفارسية..فلما سمع تحيتهما أجفل لأنه سمع صوت رجل يعرفه ، فتقدم ذلك الرجل الى الدهقان ولم يلتفت الى ابنته وسلّم . فلما دنا من المصباح صاح الدهقان : « عبد الرحمن .. »

فلما سمعت جلنار اسمه اختلج قلبها في صدرها ونظرت الى وجهه وهو ملثم فلم تعرفه ، ولكنها توسمت خيراً من قصر قامته مع طول صدره وقصر ساقيه .. فظلت جالسة وهى تنتظر أن يبعد اللثام . فلما سمع الدهقان يرحب به نزع اللثام فبان من تحته وجه أسمر جميل نقي البشرة ، أحور العينين ، عريض الجبهة ، حسن اللحية وافرها ، طويل الشعر (١) فلما رأته جلنار علمت للحال انه عبد الرحمن بن مسلم (وقد سمى بعد ذلك أبا مسلم الخراسانى فنسميه بهذا الاسم منذ الآن) فامتقع لونها لما أصابها

---

(١) ابن خلكان ــ الجزء الاول

من البغتة عند رؤيته على غير انتظار ، مع ما فى نفسها من حبه ..

أما الدهقان فحالما عرفه رحب به ودعاه للجلوس فجلس ، ثم دعا أبو مسلم رفيقه للجلوس أيضا وهو يقول له بصوت خافت وجأش رابط : « اجلس يا خالد »

فنظر الدهقان الى الرجل كأنه لايعرفه ، فقال أبو مسلم : « هذا صديقنا خالد بن برمك » فبغت الدهقان وقال : « ابن صاحب النوبهار ؟.. »

فأجاب خالد قائلا : « قد انقضت أيام النوبهار وتخلصنا من عبادة النار . اذ هدانا الله بالاسلام »

قال الدهقان : « صدقت .. أهلا بكما ومرحبا » ثم صفق فجاء بعض الغلمان فأمرهم باعداد الطعام للضيوف وتقديم ما تحتاج اليه القافلة من الزاد والعلف

فاعترضه أبو مسلم بهدوء وسكينة قائلا : « لا تتعب نفسك ولا تشغل رجالك ، فاننا لا نحتاج الى شيء من ذلك ونحن نشكرك لحسن وفادتك »

فقال الدهقان : « ومن أين أنتم قادمون ؟ »

قال : « من الحج .. » وفى ملامح وجهه ما يدل على انه يعنى غير ما يقول ، ففهم الدهقان انه يريد الكتمان كعادته من قبل . فقد كان أبو مسلم يفد على الدهاقين فى طلب المدد من المال ونحوه انتصارا للشيعة .. وكان يفعل ذلك سرا ، خوفا من عمال

بنى أمية ، فسكت الدهقان فأدرك أبو مسلم ظنه فقال : « لاتظننا نريد التكتم ، فقد انقضى زمن الأسرار وآن لنا أن نظهر دعوتنا .. فهل أنتم على عهدكم معنا ؟ »

فتذكر الدهقان انه وعد الكرمانى بمصاهرته ، وبذلك يكون قد خالف العهد ، وقد كان فى جملة من عاهد على نصرة بنى العباس ، ولكنه لم يتوقع ثباتهم لتكرار فشل الشيعة فى نصرة أهل البيت ، ومع ذلك فقد ظن فى كلام أبى مسلم مبالغة فأراد أن يتحقق منه ، على أن يكتم عنه أمر الكرمانى ثم يكون بعدئذ مع الغالب فقال : « وماذا تعنى بذهاب زمن الأسرار ؟ »

قال : « اعنى اننا كنا نأتيكم سرا باسم ابراهيم الامام وننصركم على بنى أمية ريثما يحين الوقت للظهور واخراج دعوتنا من القول الى الفعل بالسيف ، فنبشركم ان الامام قد أمرنا باظهار الدعوة »

فقال الدهقان : « هل جندتم الرجال ؟ »

قال : « لم نجند أحدا لأننا لم نبدأ باظهار الدعوة بعد ، وأنت أول من عرف بعزمنا على ذلك ، ونرجو اذا أظهرناها أن يستجيب لنا كثيرون لأن أنصار شيعتنا عديدون فى خراسان ، ومعظم الدهاقين معنا »

قال الدهقان : « هذا صحيح .. ومن هم الذين معك فى القافلة ؟ »

قال : « النقباء وهم سبعون نقيبا اختارهم الامام من شيعته ووجوههم لدعوة النـــاس الى اتباعه وحمل السلاح فى نصرته وسنفرقهم فى خراسان قريبا .. »

قال الدهقان : « وكيف استطعتم المرور بهذا العدد الكبير فى البلاد دون أن يشك العرب فى أمركم ؛ وهم يسيئون الظن بكل فارسى ؟ »

– ٧ –

وصية الامام

فلما سمع أبو مسلم سؤاله أحب أن يفيض فى وصف حالهم تثبيتا للدهقان فى نصرته ، لعلمه انه اذا نصره هو اقتدى به دهاقون كثيرون فقال : « انت تعلم يا أعظم الدهاقين ان العرب يفاخروننا بالنبوة لأن النبى منهم ، وقد احتقرونا وأذلونا وعاملونا معاملة الرق ولو استطاعوا ألا يبقوا منا أحدا لفعلوا . مع ان الفئـــة السائدة منهم الآن ـــ وهم بنى أمية ـــ ليسوا من أقارب النبى بل هم أعداء أهله ، وقد اضطهدوهم وقتلوهم وبخاصة آل على ابن أبى طالب ابن عمه فانهم ساموهم العذاب الشديد ، ولا يخفى عليك ان آل بيت النبى لا يرون فرقا فى الاسلام بين العربى والاعجمى ، بل هم يفضلون العجم على العرب . ولذلك كانت شيعتهم من

الفرس كما تعلم . ثم سلّم آل على حقوق الخــلافة الى آل العباس عم النبى ، وكبيرهم الآن ابراهيم الامام فتحولت شيعة بنى على فى هذه البلاد الى نصرة بنى العباس .. فالامام الآن مقيم فى الحميمة بالبلقاء قرب الشام يبث الدعاة ويخابر الأنصار . وقد عهد الىّ فى العام الماضى ان أتولى الاشراف على هذا الأمر ، وكتب الى أصحابه أن يطيعونى ، وجعلنى أميرا على خراسان وما أفتحه من البلاد . فاستصغرنى بعض النقباء لصغر سنى لأنى دون العشرين من العمر وهم شيوخ كبار ، لكنهم أذعنوا أخيرا . وقد أوصانى الامام يوم وداعه فى العام الماضى وصيّة ذات بال هى أساس كل عمل عملته أو سأعمله فى سبيل هذه الدعوة »

وكان الدهقان يسمع كلام أبى مسلم وهو مندهش من رزانته على صغر سنه ، وقد أحس وهو يسمع كلامه كأنه يخاطب شيخا كبيرا أو ملكا جليلا لما كان فى وجهه من الهيبة والوقار . فلما سمعه يشير الى وصيّة الامام أصاخ بسمعه ليفهم تلك الوصية جيدا ، وكانت جلنار تتظاهر بالانزواء وكلها عيون وآذان لترى وتسمع . ولا تسل عن حالها فى تلك الجلسة وهى المرة الثانيــة التى قابلت فيها أبا مسلم ، ولم تبق جارحــة من جوارحهــا لم تتمثل صورة أبى مسلم فيها

أما هو فقد كان فى غفلة عما يتقد فى قلب تلك الفتاة ، وانما كان همه القيام بتلك الدعوة على أكمل وجه . فلما ذكر الوصية

مد يده الى جيبه وقال : «ها أنا ذا أتلوها عليك كما تلقنتها بالعربية حرفيا » وأخرج ورقا ملفوفا نشره وأخذ يقرأ والحاضرون يسمعون :

« يا عبد الرحمن انك رجل من أهل البيت فاحتفظ بوصيتى ، وانظر الى هذا الحى من اليمن .. فأكرمهم وحل بين أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الأمر الا بهم . وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم . وانظر هذا الحى من مضر فانهم العدو القريب الدار . فاقتل من شككت فى أمره ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شىء . وان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل .. فأى غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » (١)

فلما فرغ من تلاوة الرق ، لفه وأرجعه الى جيبه وهو ينظر الى الدهقان . وكان الدهقان حينما سمع تلك الوصية ، قد ارتعدت فرائصه من شدتها وقونها ، وسره نقمة الامام على العرب لما فى نفسه منهم .. ولم يكن رضاه بابن الكرمانى صهرا الا من قبيل الخوف ، ولكنه كان لايزال ضعيف الثقة بشيعة بنى العباس. على انه كتم ذلك وتظاهر بالاعجاب وقال : « انها وصية لايقف عليها حكيم . ويكفى من بواعث اجتماع الفرس عليها انها تأمر باذلال العرب وقتلهم ، فلا أظن دهقانا أو أى رجل فارسى يطلع على هذه الوصية الا كان من المتشيعين لآل العباس.. ألا ترى ذلك ياخالد؟»

وكان خالد فى نحو الأربعين من عمره ، وهو ابن برمك (جد

(١) الطبرى

البرامكة) صاحب النوبهار – وهو بيت نار كان للفرس فى مدينة بلخ – وكان برمك مجوسيا والغالب انه مات ولم يسلم ، فخلفه ابنه خالد هذا وهو من أكثر الرجال عقلا ودهاء وبطشا ، وكان فى جملة من أسلم من عظماء الفرس .. وتشيّع لآل العباس انتقاما من بنى أمية ، والتماسا لما كانوا يتوقعونه من السلطان لأنفسهم والاجتزاء من النفوذ اذا قامت الدولة بهم . وكان برغم أنه كهل قد رضى برياسة أبى مسلم وهو شاب لا تزيد سنه على العشرين الا قليلا ، ومثل خالد كهول وشيوخ كثيرون ممن قاموا بدعوة العباسيين .. وقد رضوا بأبى مسلم قائدا لهم احتراما لأمر ابراهيم الامام . وكان أبو مسلم يحترم خالدا ويقدره حق قدره ويستشيره فى أموره .. ولذلك فانه حينما أراد مقابلة الدهقان اختصه بصحبته دون سائر الرفاق

فلما خاطب الدهقان خالدا بشأن الوصية واستطلع رأيه ، أجابه على الفور : « لاريب عندى ان الفرس يتفانون فى نصرة العباسيين لأنهم انما يسعون فى مصلحة أنفسهم ، ويجب على كل فارسى أن يقدم نفسه وماله لنصرة بيت النبى لأن فى نصرته رفع شأن الفرس .. »

فأراد الدهقان أن يطرى أبا مسلم تقربا منه وايهاما له بأنه شديد التمسك بدعوته ، اخفاء لما سبق من وعده بمصاهرة ابن الكرمانى فقال : « ولا غرو اذا انتصر الشيعة وفيهم مثلكما ..

من رجال الحزم والبسالة والعقل »

فقال خالد : « ان البسالة والقوة لايكفيان للقيام بهذا العمل، ياحضرة الدهقان »

فأدرك الدهقان انه يلمح الى المال فقال : « على كل منا أن يقدم مما عنده ، وكما اننا لم نقصر فى الماضى والدعوة لا تزال سرية ، فلا تظننا نبخل الآن بشىء .. »

فعاد أبو مسلم لاتمام حديثه فقال : « فجئت الى خراسان وقمنا بالدعوة سرا كما تعلم وأنا أختلف الى الامام ، أحمل اليه ما يجتمع عندنا من المال وأتلقى أوامره ، فلما كان هذا العام بعث يستقدمنى اليه فسرت ومعى النقباء الذين ذكرتهم ، فاشتبه الحكام فى أمرنا أثناء الطريق . فكنا اذا سألونا عن مقصدنا ، قلنا الى الحج . ولما بلغنا قومس أتانى كتاب الامام باسمى واسم سليمان بن كثير ، وهو من كبار النقباء ، ومع الكتاب راية النصر (وأشار الى الحزمة المطروحة أمام القصر) وقد قال لى فى ذلك الكتاب (وأخرج الكتاب من جيبه وقرأ) قد بعثت اليك براية النصر فارجع من حيث لقيك كتابى واظهر الدعوة فان الله ناصركم»

— ٨ —

الظل والسحاب

فلما أشار أبو مسلم الى الحزمة توجهت عينا الدهقان اليها

فأدرك أبو مسلم انه يريد رؤيتها ، فنادى الرجلين اللذين كانا يحملانها فأسرعا اليها وحملاها .. فلم تسعها القــاعة لطولها ، فأدخلوها من أحد طرفيها وظل الطرف الآخر خارجا ، وكانت ملفوفة بقماش أســود ففكاه وأخرجا منه لواء أسود وراية سوداء . واللواء معقود على رمح طوله . ذراعا والراية على رمح طوله ١٣ ذراعا ، فوقف أبو مسلم احتراما للواء وقال : « ان هذا اللواء يسمى الظل ، والراية تسمى السحاب .. ولونهما أسود واللون الأسود هو الشعار الذى اختاره الامام ابراهيم لشــيعته ، فهم من اليوم يلبســون العمائم السود والأقبيــة السوداء وراياتهم أيضا سوداء كما ترى »

وكان الدهقان قد وقف حالما رأى أبامسلم واقفا ، ووقف خالد أيضا .. فهمت جلنار بالوقوف فلم تساعدها ركبتاها لمــا غلب عليها من التأثر بعد ما شهدت من أبى مسلم وما سمعت ، وانه قائد هذا الجند . فأصبح همها الاطلاع على مكنونات قلبه من جهتها لعله ينتبه لها فيرمقها بنظرة تفهم منها شيئا فيطمئن بالها ، فوقفت وهى تســتند الى أحد الأعمــدة وتصدرت قليــلا حتى انتبه لها خالد ، فنظر الى وجهها نظرة الاعجاب والدهشة ، أما أبو مسلم فبالغ فى التجاهل والاغضاء حتى كأنه لايرى شيئا

ولمــا فرغ أبو مسلم من كلامه قال الدهقان : « وما المراد باختيار السواد شعارا لبنى العباس ؟.. ألعلهم أرادوا الاشارة

الى الحداد على قتل أهل البيت العلويين ، ومنهم على والحسين وغيرهما .. أم ماذا ؟ »

فجلس أبو مسلم وهو يشير الى الرجلين أن يعيدا الحزمة كما كانت ، وجلس خالد والدهقان وظلت جلنار واقفة ، ثم قال أبو مسلم : « ان السواد شعار أهل بيت النبى لأن راية النبى كانت سوداء وهى راية العقاب »

أما الدهقان فقد وقر فى نفسه ما علمه من أمر الشيعة وخاف على نفسه من أبى مسلم اذا علم ما فى ضميره ، فيشك فيه . والامام قد أوصاه اذا شك فى أحد أن يقتله ، فتظاهر بالتحمس وقال : « لقد أيقنت الآن بفوزكم وظهور الفرس ، ولا بد من استنجاد سائر الدهاقين وترغيبهم فى الاسلام لأن أكثرهم لايزالون على المجوسية »

فقال خالد : « اذا أسلم الدهاقون وأنجدونا بأموالهم ورجالهم فانما ينجدون أنفسهم لأنهم ينشئون دولة فارسية ترفع شأن الفرس .. »

فقال الدهقان : « انى ضامن لكم اسلام معظم الدهاقين فى خراسان ، والأموال كثيرة .. » ثم صفق فأتاه غلام فأمره أن يستدعى خازنه

فلما سمعه أبو مسلم يدعو خازنه أدرك انه يريد أن يدفع اليه مالا على سبيل المساعدة على جارى عادته فى مثل هذا الحال .

فأشار أبو مسلم الى أحد الرجلين صاحبى الحزمة اشارة فهم غرضه منها ، فخرج مهرولا ، ثم عاد ومعه رجلان قد تأبط أحدهما خريطة كبيرة كالكيس الكبير لكنها فارغة ، ورفيقه رجل قصير القامة فى سمن قليل وعليه قباء واسع وعمامة كبيرة ، وكان لقصره يكاد يجر قباءه جرا .. ووراءه غلام يحمل دواة وقلما ، فلما وصلوا الى القاعة وقفوا فى أحد جوانبها ، فنادى أبو مسلم صاحب القباء قائلا : « تقدم يا ابراهيم واستلم من الدهقان ما جادت به نفسه فى نصرة أهل البيت »

وكان خازن الدهقان قد جاء وأسرَّ اليه الدهقان كلاما ، فرجع ثم جاء ومعه غلام يحمل أكياسا من جلد قد أثقلت كاهله حتى وضعها بين يدى الدهقان . فلما أمر أبو مسلم خازنه ابراهيم باستلام المال تقدم وأخذ فى عد الأكياس وهى مختومة وقد كتب على كل منها « ألف دينار يوسفية » فبلغت ٢٠ كيسا ، فأشار الى رفيقه والغلام الآخر ، فتقدما وتعاونا على نقل الأكياس فى الخريطة الكبرى . وتناول هو القلم والدواة وأخرج من تحت قبائه درجا كتب فيه عدد الأكياس وما تحويه من الدنانير

وكان أبو مسلم فى أثناء ذلك مطرقا كأنه يفكر فى أمر يهمه ، وقد زاده التفكير هيبة وشغله عما حوله . وكانت جلنار قد تعبت من الوقوف فجلست على وسادة بجانب والدها وهى تختلس النظر الى أبى مسلم ، وهو لاينتبه لها .. وكان خالد قد أدرك ذلك

منها وفطن لما يجيش فى خاطرها من أمر أبى مسلم ، ولكنه كان يعلم زهـد هـذا الشاب البطل فى النساء وانشغال خاطره فى المشروع الخطير الذى انتدب له ..

فلما فرغ الخازن من تدوين المال نهض واستأذن فى الانصراف ولحظ الدهقان فى أبى مسلم الرغبة فى الانصراف أيضا ، فقال له : « اذا كنتم تريدون الذهاب للنوم ، فهـذه دار قد أمرنا باعدادها لنزولكم » وأشار الى أحد جوانب الحديقة

فنهض أبو مسلم.. فلم يسع الحضور غير النهوض تهيبا واحتراما ، وقال : « ننصرف الآن الى النوم فان السفر قد أتعبنا هـذين اليومين » قال ذلك ومشى ، فمشى الدهقان معه الى آخر القاعة حتى ودعه .. وصفق فجاء بعض الغلمان ، فأمرهم أن يمشوا بين يدى الأمير بالشموع الى المنزل المعد له . فمشوا وعاد الدهقان الى ابنته ، وكانت واقفة بجانب العمود ولم يبق هناك سـواهما

— ٩ —

الدهقان والدهقانة

وتوسم الدهقان مما شاهده من انقباضها ، انها تفكر فى أمر زواجها بابن الكرماني ، وأنها ستحتج على والدها لما أبداه فى حديثه الى أبى مسلم فى تلك الليلة بحيث أصبح شأن الكرمانى

ضعيفا ، فابتدرها أبوها قائلا ، وقد وضع يسراه على كتفها ومشى نحو غرفتها وهي تمشي معه : «لا أظن أن هؤلاء الدعاة سيفلحون ، ولا أرى أمرهم هذه المرة الا صائرا الى الفشل كالمرات الماضية »

فلم يفتها غرض والدها من هذه المفاجأة بعد ما دار بينها وبينه فى ذلك المساء .. فقالت وهى تجاريه فى المشى : « اذا كنت تعتقد أنهم سيفشلون ، فما بالك تعاهدهم على القيام بنصرتهم وتبذل الأموال لهم ؟ »

فضحك ووقف وقبض على لحيته بيمينه ، وظلت يسراه على كتفها ، وقال بصوت منخفض وهو يتلفت : « انى أفعل ذلك من قبيل الاحتياط فقط ، لأننا اذا أظهرنا له الجفاء كنا فى خطر على حياتنا وأموالنا وخاصة بعدما سمعنا من وصية ابراهيم الامام فانه أمره أن يقتــل كل من يشك فيه . ومع ذلك فنحن غير واثقين ثقة تامــة بفشــل هؤلاء ، وان كنت أرجح الفوز للكرمانى للأسباب التى ذكرتها لك قبلا .. فتظاهرنا بالمسالمة أو المساعدة لا تضرنا بل نحن نتوقع أن تنفعنا . وليس ما نؤديه لهم بالشىء الذى يذكر بالنسبة الى ما نتوقعه من الكسب اذا كنا فى جانب المنتصر من هذه الأحزاب » وكان قد عاد الى المسير حتى دنا من غرفة جلنار ، وليس فى الدار أحد من الخدم لأنهم تفرقوا حالمــا رأوا الدهقان والدهقانة يتساران

فلما فرغ الدهقان من كلامه قالت جلنــار : « لقــد أصبت

يا أبتـاه ، انك تجامل أبا مسلم بالأموال والوعود ، وتجامل الكرمانى بجلنار » قالت ذلك وغصت بريقها ودخلت الغرفة على عجل وألقت نفسها على الفراش ، فلحقهـا أبوها وهو يتجاهل وقال : « يظهر انك متعبة يا جلنار ، نامى وتوكلى على الله ، وأنا أعرف تعقلك وحسن تدبيرك ، وأعتقـد انك اذا كنت عنـد الكرمانى وكنت أنا مع أبى مسلم بتنا فى مأمن ، وأصبح الفوز مضمونا لنا فى كل حال .. نامى ياحبيبتى واستريحى الآن » . قال ذلك وخرج وهو يتظاهر بأنه لم يفهم مغزى كلامها

أما هى فلما خلت بنفسها عادت الى هواجسها وتصورت ما هى فيه من الارتباك ، فلم تعد تدرى أتطيع والدها أم تطيع قلبها . على انها لو تحققت من ان عند أبى مسلم مثل ما عندها لهان عليها اغضاب والدها ، وان كان ذلك مما لا يقـدم عليه أمثالها . ولكنها لم تر من ذلك الحبيب الا الاغضاء ، فأخذت تناجى نفسها وتتذكر ما شاهدته منه فى أثناء تلك الجلسة ، فلم تر فى شىء من حركاته أو أقواله ما يفتح لها نافذة من الأمل . ولكن الحب كان يعترض عوامل اليأس عندها ، ويهوّن عليها ما ظهر من بروده ، فأخذت تنسب ذلك الى انشغال خاطره بتدبير شئونه ثم تعود الى رشدها ، فترى انه لاعذر له وانه لو كان عنده بعض ماعندها لأحست به

قضت مدة فى تلك المنـاجاة ، وقد طار النوم من عينيهـا ،

واستوحشت من الوحدة فتذكرت ماشطتها ، وكانت تأنس بها كثيرا وودت لو أنها تأتيها تلك الليلة لتشكو لها حالها وتستشيرها فى أمرها . ثم ما عتمت أن سمعت وقع خطوات بطيئة ، فعلمت أنها خطوات الماشطة ، فنهضت وفتحت لها فدخلت وأغلقت الباب وراءها ، فأمرتها جلنار بالجلوس وهى تقول لها : « ما الذى جاء بك يا ريحانة على غير انتظار ؟ »

قالت الماشطة : « علمت انك فى ارتباك فجئت لتسليتك .. »

قالت : « وكيف علمت ذلك ؟ ومن أنبأك به ؟ »

قالت وهى تحاول معانقتها وضمها الى صدرها : « أتظنين يا مولاتى انى غافلة عن أحوالك وما طرأ عليك من الهواجس ، وخصوصا بعد قدوم هؤلاء الضيوف »

فقالت جلنار : « وهل شهدتهم .. وسمعت أقوالهم ؟ »

قالت : « شهدت كل شىء ، وسمعت كل كلمة خلسة من وراء الستار »

فلم تتمالك جلنار أن تقول : « هل رأيت أبا مسلم ؟ »

قالت : « خفضى صوتك يامولاتى لأن لهذه الجدران آذانا .. نعم شاهدته وشاهدتك أيضا .. » قالت ذلك بنغمة خاصة

فخجلت جلنار من تسرعها فى اظهار عواطفها ، ثم تذكرت ثقتها بريحانة فقالت : « وكيف رأيته يا ريحانة ؟ »

قالت : « رأيته لائقا .. ولكن تمهلى ولا تتعجلى ، ان فى العجلة

الندامة .. وفى التأنى السلامة » .

قالت : « أراك قد أدركت مكنونات قلبى ولم يخف عليك شيء ! »

قالت الماشطة : « لم يخف علىّ شيء ، ولكننى أرى المسألة تحتاج الى الحكمة والتؤدة .. »

فلم تعد جلنار تستطيع اخفاء عواطفها ، فقالت : « وما العمل يا ريحانة ؟ دبرينى برأيك .. لقد نفد صبرى ، فانى لا ألبث أن أزف الى ابن الكرمانى ، وأنا لا أريده ولا أحبه .. »

قالت : « أتحبين أبا مسلم ؟ » وضحكت

فأطرقت جلنار ولسان حالها يقول : « نعم .. أحبه .. »

فقالت ريحانة : « وهل هو يحبك ؟ »

فرفعت جلنار نظرها الى ريحانة وفى عينيها دمعتان تترددان بين المآقى ، وأرادت الكلام .. فشرقت بريقها ، وسكتت ..

فقالت ريحانة : « انك لا تعلمين وأنا لا أعلم .. فما علينا الا التحرى والاستفهام »

قالت جلنار : « من يكشف لنا حقيقة ذلك ؟ »

قالت ريحانة : « ألا تعرفين الضحاك ؟ »

فقالت جلنار : « وهل تظنينه يستطيع خدمتنا فى هذا الأمر؟ »

قالت : « أظنه أقدر الناس على ذلك اذا أراد . ولا يغرنك

ما يبدو من مجونه فانه داهية حازم ، يعتمد عليه فى الأمور العظام »

فقالت جلنــار : « ومن يخاطبه فى الأمر ..؟ اننى أخشى أن يفشى سرنا فيطلع والدى على أمرنا ، فتكون البلية الثانية شرا من الأولى »

قالت : « كونى فى سلام وطمأنينة ، وأنا أدبر الأمر معه .. انما نحتاج الى بعض النقود »

فقالت جلنار : « هل تعرفين أن للمال قيمة عندى ..؟ ! اطلبى من خازنتى ما تريدين ، وتصرّفى كما تشائين ، وانبئينى بنتيجة سعيك »

قالت : « ينبغى لنا أن نسعى فى الأمر الليلة اذ لا نضمن بقاء هؤلاء الضيوف عندنا الى غد أو بعده .. »

فنهضت جلنار من فراشها الى صندوق صغير فى أحد جوانب الغرفة أخرجت منه صرة من الحرير ودفعتهــا الى ريحانة وهى تقول : «هذه خمسمائة دينار استخدميها فيما تشائين ولا تبطئى ، واذا وفقت الى ما أريد فلن أنسى تعبك »

فتناولت ريحانة الصرة ، ونهضت وهى تقول : « اطمئنى » وخرجت وهى تسترق الخطى .. وتركت جلنار على مثل الجمر

— ١٠ —

نسب أبى مسلم

لم تكد ريحانة تخرج من الغرفة حتى رأت الضحاك قادما كأنه كان على موعد معها .. فلما رآته بغتت ، ولكنها تجلدت وأشارت اليه أن يتبعها عن بعد ، وسارت الى عرفتها فى طرف القصر مما يلى الحديقة ، فدخل فى أثرها ، فأغلقت الباب وراءه وهى تنظر اليه وتضحك ، وكان وهو داخل قد دق رأسه فى عتبة الباب لطوله ، فوقعت العمامة على الأرض .. فاذا هو حليق الرأس ، فدهشت لذلك وأرادت أن تسأله عن السبب .. لكنه أسرع الى العمامة فوضعها على رأسه وتقدم اليها وهو يقول : « يظهر انك تحبيننى يا ريحانة ، بارك الله فيك .. » وضحك وعض على شفته السفلى، وتشاغل باصلاح عمامته ، ثم ضحك ضحكة البله، وجعل يطرق بأطراف أنامله على أسنانه . فضحكت ريحانة من قوله وحركته ، ثم عبست فى وجهه عبوسا يخالطه الابتسام وقالت : « انى أحبك لخفة روحك وعلو همتك .. وخصوصا اذا أطعتنى فيما سأخاطبك بشأنه الآن .. هل عندك للسر مكان ؟ »

فقال وهو يضحك : « عندى لكل سر مكان وللأسرار عندى منازل وطبقات .. واذا كنت تشكّين فى ذلك ، فاخبرينى فأخرج حالا .. »

فضحكت وقالت : « ألا تكف عن مجونك يا رجل ؟.. أعرنى أذنك الآن ، واصغ لما أعرضه عليك ، بحياة الدهقانة وحرمتها عندك .. »

فتجلد الضحاك ، وأظهر الجد ، وتأدب فى موقفه ، وقال : « قولى انى طوع أمرك .. »

قالت : « هل تعرف ضيوفنا الليلة ؟ »

قال : « أيهم تعنين ؟ هل تعنين أبا مسلم الخراسانى الذى لايعرف أباه ، أم خالد بن برمك المجوسى صاحب النوبهار ، أم خازن أبى مسلم ابراهيم اليهودى ؟ »

فضحكت ريحانة من توسعه فى تلك المعرفة ، ولكنها استغربت قوله ان أبا مسلم لايعرف أباه ، فقالت : « وماذا تعنى بقولك ان أبا مسلم لايعرف أباه ؟ »

قال : « اذا كنت لا تصدقيننى فاسأليه »

قالت : « صدقتك ولكننى أسألك عن كيفية ذلك »

قال : « لو سألته هو عن نسبه ما عرفه . أما أنا فأخبرك ان والده فارسى ، بعضهم يسميه مسلم وبعضهم يسميه عثمان ، وهو يزعم ان نسبه يتصل ببزرجمهر الحكيم الفارسى المشهور .. وهذه عادة كبار القوم عندنا ، فمن كان منهم دنىء الأصل رفعه جاهه الى طبقات الأشراف . فاذا كان عربيا أوصل نسبه الى أبى بكر أو عمر أو الحسين . واذا كان فارسيا جعل نفسه من نسل

بزرجمهر أو أزدشير أو كسرى أنوشروان .. وأما الذى نعلمه من أمر أبى مسلم فهو أن أباه المذكور كان من أهل قرية ماخوان التى تبعد عن مرو ثلاثة فراسخ . وكانت هذه القرية له مع عدة قرى ، وكان فى بعض الأحيان يجلب الى الكوفة المواشى ، ثم انه ضمن خراج رستان فريدين على عادة الدهاقين فى أيام هـذه الدولة (بنى أمية) فانهم يقاسمون الحكومة أموالها بنفوذهم . فلما حان وقت الوفاء ، عجز عن تأدية ما عليه . فقبض عليه العامل وأرسل معه من يذهب به الى الديوان فى الكوفة ، وكان عنده جارية يحبها فاخذها معه وهى حامل واحتال فى الطريق وفرّ من الحرس نحو اذربيجان ، وتوجهت معه ، فمرّا برجل اسمه عيسى ابن معقل ، فتركها عنده وذهب الى اذربيجان حيث مات بها ..

ثم ولدت الجارية صاحبنا أبا مسلم هذا ؛ فربى فى بيت عيسى المذكور وهو يحسب نفسه من أولاده . وكان عيسى هذا وأخوه ادريس فى ضمان الخراج أيضا كما تقدم ، فأصابهما ما أصاب ذاك من تأخير الخراج ، فقبض عليهما عامل اصبهان وشكاهما الى أمير العراقين يومئذ خالد القسرى ، فبعث من حملهما الى الكوفة وسجنهما فيها وكانا قد أنفذا أبا مسلم قبل القبض عليهما فى مهمة ، فلما رجع وعلم بسجنهما جاء الى الكوفة وجعل يتردد عليهما فى السجن

واتفق فى ذلك الحين ان جماعة من النقباء دعاة بنى العبـاس

جاءوا الى الكوفة سرا ، يدعون الناس الى أهل هذا البيت .. فلقوا أبا مسلم هناك فأعجبهم عقله ومعرفته وكلامه وعرف هو أمرهم ، وانضم اليهم.. وخرج معهم الى مكة فأهدوه الى ابراهيم الامام هناك ، فأعجب به وتوسم فيه الخير وأقام عند الامام يخدمه . ثم ان الدعاة عادوا مرة ثانية وطلبوا رجلا يقوم بأمر خراسان فدفع اليهم أبا مسلم هذا وهو صغير السن كما ترين وأوصاه بما أوصاه (١) .. فهل يعرف أباه ؟ »

فاستغربت ريحانة هذه الحكاية ، ولكنها عادت الى المهمة التى هى فيها ، فقالت للرجل : « آمنا وصدقنا .. والآن لا تخرج عما أحدثك فيه ، انظر (ومدت يدها وأخرجت الصرة ودفعتها اليه) هذه هدية من مولاتك جلنار (فتناولها وهو يضحك) وأنا أريد أن أكلفك بمهمة سياسية »

فوضع الصرة فى جيبه وهو يقول : « السمع والطاعة »

قالت : « انت تعلم ان مولاتنا الدهقانة مخطوبة لابن الكرمانى أمير الجند المحاصر لمرو ، وستزف اليه قريبا بارادة والدها . ولكننى رأيت الليلة أن أجل الكرمانى قصير لأن هذا الخراسانى على ما يظهر سيغلبه ، ولقد لحظت أنا منه انه يميل الى مولاتنا وأظنه يريد أن يتزوجها ، ولكنه لم يصرح بذلك .. فالمطلوب

---

(١) ابن خلكان ــ الجزء الاول

الآن أن تبحث عن صحة هذا الأمر بدهاء وحسن أسلوب بدون أن يشعر أحد بك واخبرنى .. ولا بد من معرفة ذلك الليلة »

قال : « هذا أمر هين عليّ .. واذا فرضنا انه لم يحبها بعد فانى أجعله يحبها .. فما رأيك ؟ »

قالت : « اذا كان ذلك فى امكانك فان مكافأتك ستكون عظيمة جدا .. وهذا سر عميق »

فأطرق الضحاك برهة ، وقد بدا الجد فى وجهه ، ثم التفت الى ريحانة وقال : « انى ذاهب الساعة .. فادعى لى بالتوفيق »

قالت : « امض .. وفقك الله »

فقال : « امهلينى ريثما أصلح من شأنى أمام مرآتك» ووقف أمام مرآة من النحاس معلقة على الحائط ، وحلّ عمامته وجعل يلفها على نظام مضحك .. وعبث بشعر لحيته وشاربه حتى تشعث وانتفش .. وخلع جبته وقلبها ، ولبسها بقفـاها ، ونزع نعليـه وثبتهما فى منطقته ، وسـار حافيا وهو يضحك كالأبله وخرج

أما أبو مسلم فانه سـار مع خالد والخدم يسيرون أمامهما بالشموع بين الأشجار والرياحين حتى وصلوا الى بيت بجانب السور قد أضيء بالمصابيح .. فدخلا وقد سبقهما الخدم فدنوهما على الأسرّة المعـدة للنوم ورجعوا .. فأسرع أبو مسلم بنزع ثيابه وسلاحه ، وأخذ يتأهب للنوم ، وهو لايتكلم .. وكان خالد فى شغل من أمر جلنار وما شهده من جمالها وما لحظه من نظرها

الى أبى مسلم وما كان من جمود أبى مسلم بشـأنها . وكان يتوقع أن يسمع منه شيئا عنها فاذا هو لم يفه بكلمة . فظل خالد ساكتا وأخذ فى خلع ثيابه وسلاحه ، ولم يستغرب سكوت أبى مسلم لعلمه انه كثير السكوت لايتكلم الا قليلا وينـدر أن يضحك

– ١١ –

ابراهيم الخازن

أما ابراهيم الخـازن فانه رجع بالأكياس الى غرفة من ذلك المنزل بعيدة عن غرفة أبى مسلم وخالد . فلما دخل الغرفة أمر الغلمان أن يضعوا الأكياس وينصرفوا . وكان ابراهيم يهودى الأصل وقد أسلم أبوه .. لارغبة فى الاسلام ، ولكن لأنه رأى فى الاسلام سبيلا الى الكسب ، وشب ابراهيم هذا وهو أطمع من أبيه ، وتزلف وتملق حتى تقرب من النقباء رجال الدعوة .. وكان محاسبا ماهرا فجعله أبو مسلم خازنا له ، وكان يقبض الأموال ويقيدها رغبة فى الكسب من ذلك . ولم يكن كسبه من التلاعب فى عد النقود أو سرقة شىء منها لأنه لم يكن يستطيع ذلك الا نادرا ، ولكنه كان يكسب باستبدالها .. لأن النقود كانت فى ذلك الحين أنواعا كثيرة ، ومنها ناقص الوزن وكامله باختلاف ضاربيها..

فالنقود التى ضربها الحجاج سنة ٧٥ هـ كانت ناقصة فلما تولى ابن هبيرة ضرب أجود منها ، ولما تولى خالد القسرى شدد فى تجويدها ، وضرب بعده يوسف بن عمر فأفرط فى التشديد والتجويد .. فكانت النقود الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بنى أمية وسميت نقود الحجاج المكروهة (١) فكان ابراهيم اذا قبض مالا من الدهاقين أو غيرهم من نصراء الشيعة قيَّدها فى دفاتره بعددها ولكنه لا يذكر صنفها ، فاذا كان فيها نقود هبيرية أو خالدية أو يوسفية أبدلها بالنقود المكروهة فيربح من ذلك شيئا كثيرا . وكان لايخلو صندوقه الخاص من أكياس من النقود المكروهة لأجل الاستبدال عند الحاجة . فلما خلا الى نفسه تلك الليلة ، أغلق باب غرفته وأطفأ المصباح واشتغل فى ابدال تلك النقود خلسة وهو يحاذر أن يسمع رنينها

وكان الضحاك يعرف ابراهيم هذا ويعرف أباه من قبله . فلما كلفته ريحانة بتلك المهمة ، اعتزم أن يستعين بابراهيم فى تيسيرها ، عن طريق اغرائه بالمال لعلمه بأنه يتفانى فى سبيله .. أما ابراهيم فلم يكن يعرف الضحاك ، ولا فهم من أمره الا انه رجل مهذار خليع أو مجنون

فمشى الضحاك فى الحديقة ، والقمر قد تكبد السماء ، وجعل يخطر الهوينى ، وهو يتطلع الى النجوم كأنه يعدها ، أو كأنه

---

(١) الاحكام السلطانية

يقرأ صحيفة مكتوبة فيها ، حتى دنا من غرفة ابراهيم وهو حاف . فوقف ببابها وتظاهر بالبله، وأذناه مصغيتان، فتنسم حركة فأرهف سمعه ، فسمع خشخشة ضعيفة . وكان أبو مسلم وخالد قد ناما وانصرف الخدم ولم يبق فى الحديقة أحد ، ولم يعد يسمع غير صوت الجمال خارج المحلة عن بعد .. وظل الضحاك واقفا بباب ابراهيم حتى ظنه فرغ من عمليته ، فطرح كيس النقود الذى معه على بلاطة هناك .. فكان لوقعه طنين وخشخشة ظهرا قويين لهدوء الليل ..

وكان ابراهيم يشتغل فى ابدال النقود ويحاذر أن تسمع حركته أو احتكاك النقود ، فأصبح لشدة حذره يخاف أن يكون لتنفسه صوت . وكان يتوهم كل شيء ساكنا هادئا ، فلما سمع وقع كيس الضحاك على البلاط أجفل وبغت ، وظل هنيهة جامدا ينصت لعله يسمع صوتا آخر فلم يسمع . فأقبل الى الباب ففتحه رويدا رويدا خوفا من صريره ، وأخرج رأسه وتلفت فرأى الضحاك على بعد بضع خطوات من غرفته ، واقفا مقنعسا ويداه على فخذيه وقد ولّى وجهه نحو السماء ينظر الى غيوم تتسابق الى القمر . فتفرس ابراهيم فى المكان الذى سمع منه الخشخشة فرأى كيسا حريريا ملونا ، فحدثته نفسه أن يخرج لالتقاطه ولكنه خشى أن ينتبه له الضحاك ، ثم تذكر أنه أبله لايفقه شيئا.. وأنه لو كان ممن ينتبهون لما سقط منه الكيس على

تلك الصـــورة ، فتقدم خطوتين حتى تنـــاول الكيس ، وهمّ بالرجوع.. واذا بذلك الأبله يقهقه بصوتعال، فارتعدت فرائص ابراهيم وانتفض انتفاض الطير حتى كاد الكيس يسقط من يده ولكنه تجلد وتظاهر بأنه خرج من الغرفة لغرض له ونظر الى الضحاك ، فرآه يمشي نحوه .. وهو يخطر ويطيل خطـــاه كأنه يتخطى قنوات .. فابتدره ابراهيم بالكلام ، وهو يظهر أنه خالي الذهن من كل شيء وقال : « هل أنت تذرع الأرض أم تعد نجوم السماء ؟ »

قال وهو ينظر الى السماء : « بل أنا أفتش عن نقودي فقـــد كان معي كيس وأظنه وقع هنا » وأشار الى القمر

فضحك ابراهيم وتأكد من بله الرجـــل .. واعتزم أن يخفي الكيس وقال : « يحتمل ذلك » وتحوّل الى غرفته . ولم يصل الى الباب حتى أدركه الضحاك ، وقبض على رقبته بشـــدة .. ودخل به الى الغرفة ، وكان ابراهيم لقصر قامته وجبنه لو أراد الضحاك أن يقبض عليه ويرمي به من فوق السور لفعل .. على انه لو كان شجاعا ما استطاع غير السكوت خشية الفضيحة ، لأنه لو صاح لأيقظ النائمين ، وربما استيقظ أبو مسلم أو خالد أو غيرهما ممن يخشى الفضيحة على يده لأن الأكياس كانت لاتزال مفتوحة والنقود مبعثرة . وزد على ذلك ان الذنب يصغّر النفس ويذلها ويجعل السيد عبدا . ولكن ابراهيم لم يكن ليفتح باب

غرفته فى تلك الساعة لو لم يسمع طنـين الدراهم . فلما رأى الكيس على الأرض ، بدا له أن يلتقطه ويرجع حالا . فلما رأى نفسه بين يدى الضحاك وقد دخل معه الغرفة ارتبك فى أمره ، ولكنه فضل السكوت ثم أظهر الممازحة وقال له : « هذا كيسك قد سقط لى من السماء فخذه .. ! »

— ١٢ —

الضحاك والخازن

فوقف الضحاك وتنـاول الكيس بأطراف أنامله ، ثم تركه فسـقط على الأرض فخشخش ، فأسرع ابراهيم فالتقطه وهو يقول : « أليس هذا كيسك ؟ »

قال وهو يضحك : « لا أعرفه الا فى النور .. بالله الا أضأت شمعة ؟ »

فقال : « تعال ننظر اليه فى ضوء القمر » قال ذلك وأمسكه بيده وأراد اخراجه ، فاذا هو ثابت فى مكانه كالشجرة المغروسة لا يتزحزح فقال له : « اذا كنت تظن أن نقودك قليـلة ، فأنا أزيدك منها »

فنظر اليه وهو يحنى رأسـه كالساجـد وقال : « ولكننى لا آخذ الا نقودا يوسفية .. »

فلما سمع ابراهيم قوله خفق قلبه لأن ضميره بكته وتصور أن ذلك الأبله مطلع على أسراره ــ والمجرم يخاف من خياله ويحسب أن عناصر الطبيعة ترقب أعماله ــ ولكنه عاد الى عقله واستبعد اطلاع ذلك الأبله على سره ، وقال : « هى نقود يوسفية .. نعم »

قال : « ألم تبدلها بعد ؟ » .. وضحك ..

فتحقق ابراهيم من ان الضحاك مطلع على كل شيء من أمره وربما كان قادما اليه بدسيسة ، ولكنه عمد الى المغالطة وأراد اخراجه من الغرفة ليبعده عن مكان الشبهة فلم يستطع ، فقال له : « تفضل اجلس » وهو يتوهم انه سيخالفه فيخرج فاذا هو قد جلس على الأرض وأمسك بيد ابراهيم وأجلسه ، فجلس وهو لايدرى ماذا يعمل .. وقد خشى ذلك الأبله فأطاعه ليرى ما يبدو منه ، والغرفة لم تكن فى ظلمة حالكة لأن ضوء القمر كان قد نفذ اليها من الباب ، وكانت الأكياس والنقود ظاهرة لأقل تأمل فالتفت الضحاك نحوها وقال : « هل أساعدك فى جمع هذه الأكياس ؟.. وهل أمحو عنها لفظة (يوسفية) وأكتب لك مكانها (حجاجية) فان ذلك أولى من ظهور الخيانة ؟ »

فاقشعر بدن ابراهيم عند ذلك التصريح وقال له : « قل لى بالله من أنت وما غرضك ؟.. فانك لست أبله كما تتظاهر .. من أنت ؟.. »

فقال له : « أنا الضحاك .. ألا تعرفني ؟.. وهـــذه عمامتى ، وهذه جبتى ، وهذه نعالى ، ثم ماذا ؟ »

فقال : « لا تخدعنى بالمزاح .. صرّح لى بالحقيقة ، ولك منى ما تشاء »

قال : « أنا الضـــاحك المبكى .. وأرجو ألا تكون باكيا ، وأنت خازن هذه الحملة .. »

قال : « قلت لك صرّح وأخبرنى بحقيقة أمرك ، وأنا طوع ارادتك »

قال : « لا تهمك حقيقة أمرى فأنا ســاتر ذنبك ولى عندك حاجة ، أتقضيها لى ؟ »

فسرّ ابراهيم بذلك الســؤال وأحس بانفراج كربه وقال : « أطلب ما شئت فانى فاعل ما تريد »

قال : « هل لك دالة على أبى مسلم ؟ »

فأطرق ابراهيم وقد ظهر عليه الارتباك وقال : « ان أبا مسلم ليس ممن تؤخذ الدالة عليه لأنه شديد غضوب يندر أن يضحك ، ولا يتكلم الا قليلا ، وجلساؤه يخشون غضبه لأنه يقتل لأقل شــبهة . وأظنك سمعت وصيـــة الامام التى تلاها على مولاك الدهقان الليلة وهو يوصيه فيها بأن يقتل كل من يشك فيه . فمن كان هذا شأنه ، فهل من سبيل الى الدالة عليه ؟.. أما اذا كنت تسعى للحصول على شىء منه ، فانى أبذل ما فى وســعى

للوصول اليه »

قال : « لقد نطقت بالصواب ولو قلت لى غير ذلك لاتهمتك وشككت فيك ، وعند ذلك يحق لى أن أنفذ وصية الامام فيك .. » وضحك ثم قال :

« وأريد أن أسألك سؤالا آخر .. هل عندك للسر مكان ؟ »

قال : « بئر عميقة .. لا تخف »

قال : « لا أخاف منك لأن روحك فى قبضة يدى ، وليس أسهل علىّ من أن ألقى الشك فى قلب أبى مسلم .. ويكفى أن أذكر له مسألة النقود اليوسفية » . ثم نهض بغتة ويده فى منطقته فأخرج منها النعلين ولبسهما ووقف .. فعجب ابراهيم لعمله ، وخشى أن يعاوده الجنون فتحدثه نفسه أن يشكوه الى الأمير فى تلك الساعة ، فنهض معه وأظهر الاهتمام به وقال : « ما بالك يا أخى .. قل ما هو ذلك السر ؟ »

قال : « نسيته فى البيت فأنا ذاهب لاستدعائه .. » وضحك فضحك ابراهيم مجاملة له ، ولكنه ازداد خوفاً من هذا الأبله ، ولم يعلم كيف يسترضيه فقال له : « بالله كف عن المزاح وأخبرنى وأنت القابض على حياتى ، فلا تخف .. وأنا انما أريد قضاء حاجة لك »

فمشى الضحاك فتبعه ابراهيم حتى خرجا من الغرفة ، فلما استقبلا ضوء القمر التفت اليه الضحاك وقال : « هل يحمل

أبومسلم أهله معه اذا سافر ..؟ »

قال : « تعنى هل يصحب امرأته فى سفره .. كلا انه يتركها فى منزلها وحولها الأرصاد والعيون ، لأنه شديد الغيرة عليها ، حتى لايدع لها سبيلا للخروج من البيت ولا يدع أحدا يدخل قصره غيره . وفى قصره كوى يطرح لنسائه منها ما يحتجن اليه . وبلغنى انه يوم زفّت اليه امرأته أمر بالبرذون الذى ركبته فذبح ، وأحرق السرج لئلا يركبه بعدها أحد .. »

فقطع الضحاك كلامه قائلا : « تقول (لنسائه) كأنه تزوج عدة نساء ..؟ »

قال : « كلا .. انه لم يتزوج اثنتين معا قط ، وهو يكره الزواج ويعده جنونا . ومن أقواله المأثورة : « الزواج جنون » ويكفى الانسان أن يجن فى السنة مرة (١) فمن كان هذا اعتقاده كيف يهتم بالنساء ، ولكنى أردت بنسائه اللواتى فى قصره من الجوارى والمرضعات ونحوهن مما تقتضيه مظاهر الامارة »

فلما سمع الضحاك قوله أطرق ، وكأنه ثاب الى رشده . وأدرك ابراهيم ان ذلك السؤال لم يكن عبثا فاستأنس بهدوئه فقال له : « ان أمر هذا الرجل غريب جدا لم أسمع بمثله ، ولعل هذه الخلال من أسباب نجاحه لأنه ينقطع عن كل شىء للقيام بدعوته ، فتراه لا يضحك ولا يمزح ولا يلهو بشىء قط .. »

---

(١) ابن خلكان ــ الجزء الاول

قال الضحاك : « وصلنا الى السر ... بلغنى انه لما شاهد مولاتى الدهقانة الليلة شغف بها ، وأراد أن يتزوجها .. ولأن مولاتى المذكورة مخطوبة لأمير آخر ، فاذا كان أبومسلم يريدها لنفسه فانى قادر على تحويل الخطبة اليه . هذا سر بينى وبينك .. فهمت ؟ »

قال ابراهيم : « لا تخف يا أخى فقد أوسعتنى تحذيرا . اما انه رأى الدهقانة وأحبها فهذا أمر بعيد وهو لايرفع بصره الى النساء قط ، لأنه غيور ويعرف قدر الغيرة . أما اذا كان الأمر بخلاف ذلك فأرجو أن تصرح لى .. »

فألقى الضحاك يده على كتف ابراهيم وهو يخفض بصره ليراه لقصره وقال : « أظنك تعنى ان الدهقانة أحبته وكأنها أحبت الزواج به .. فهب أن هذا هو الواقع ، فما قولك ؟ »

قال وهو يرفع بصره نحوه : « ان ذلك يحتاج الى استرضاء أبى مسلم .. واسترضاؤه ليس بالأمر السهل وخاصة فى مثل هذا الأمر لأنه يكره الزواج كما أخبرتك »

قال : « اذن أنت لا تأمل أن يقبل ذلك ؟ »

قال : « لست أرجح الأمل أو اليأس .. ولكن الأمر يحتاج الى روية وسعى » قال ذلك وأمسك بمنطقة الضحاك وقال : « اسمع انك تجعل نفسك مهزارا وأنت أدهى منى .. قد خطر ببالى سبيل أظنه يؤدى الى المطلوب .. لا يستطيع أحد أن يفاتح هذا

القائد بأمر الزواج ولاسيما الآن، ولكننى أرى أن تخاطبه بشأنها من حيث نستلفت انتباهه . فاذا قلنا له مثلا : ان الدهقانة شديدة الغيرة على أهل الشيعة متفانية فى نصرتهم ، وانها تحب أن تخدمه فيما يؤيد دعوته وينصره على أعدائه .. فمثل هـذه الأقوال تستلفت أفكاره ، فلعله اذا قابل الدهقانة مرة أو غير مرة بهذا الصدد ، ثم رأى منها ما يدل على نصرته حقيقة . لا أظنه الا ساعيا للزواج منها .. هذا ما أراه وقد أكون مخطئا » .. قال ذلك وهزّ منكبيه

قال الضحاك : « لقد رأيت الصواب .. ولعلك تكون واسطة فى تمهيد السبيل لكى تقابله اذا اقتضى الحال .. انى أقول هذا من عند نفسى ، وأخشى ألا تقبل هى »

قال : « انى أكون لك كما تشاء جهد طاقتى »

وكانت ملامح الضحاك قد اكتسبت فى أثناء هـذه المحادثة سوره الجد وكاد المجون يذهب عنها . فلما سمع قول ابراهيم عاد الى مجونه ، فالتقط ذيل جبته وأدارها حول ابراهيم فاختفى فيها لقصره فأجفل وانسحب من تحتها ، فوقعت عمامته على الأرض فالتقطها وهو يضحك ، فقال له الضحاك : « والله انك رجل لطيف ومتواضع لأنك خازن الأمير ، وتحتمل سفاهة خادم مهذار مثلى »

قال : « ما أظنك مهزارا يا أخى ولابد لك من شأن .. والآن

ألا تأخذ الكيس بما فيه ؟ »

قال الضحاك : « ليس هو لى وانما سقط من القمر وأنت التقطته . فاحتفظ به لنفسك ، واذا وفيت لنا بوعدك فلك عندنا من هذه الأكياس ما يغنيك عن استبدال الدرهم بالدرهم سرا حتى تخشى خادما مهزارا .. هل فهمت ..؟ السلام عليكم » قال ذلك وتناول نعليه بيديه وهرول مسرعا الى ريحانة ، وقد تغير الطقس وتلبدت الغيوم بغتة وهبت الرياح وفيها هواء الشتاء .. وكانوا فى أوائل الربيع والطقس يتقلب فيه على غير انتظار

- ١٣ -

على أحر من الجمر

أما جلنار فانها مكثت فى الغرفة تنتظر فى قلق ، وقد اشتد اضطرابها لما تتوقعه من نتائج المهمة التى أسندت الى ريحانة .. وأصبحت اذا سمعت حركة أو خربشة خفق قلبها وحدثتها نفسها أن تخرج من الغرفة لعلها تلهو بشىء ، أو تسمع من ريحانة أو الضحاك ما يقوى قلبها أو يطمئن خاطرها . واستغرقت فى الهواجس مدة ، ثم انتبهت لصوت جمل فى الجهة الأخرى من القصر ، فاستأنست بصوته لأنه من معسكر حبيبها ، ثم تزايد الصوت .. فهمت بالخروج بهذه الحجة ، وهى انما تريد الخروج ضجرا من الانتظار . فوقفت وأصغت ، فلم تعد تسمع صوتا

فعادت الى الفراش وعاد السكوت فرجعت الى الاصغاء والقلق . فسمعت بالباب وقع خطوات خفيفة كأنها خطوات حاف فاستغربت ذلك ، ثم ما لبثت أن سمعت نقرا خفيفا على قفل الباب فنهضت وفتحته ، وقلبها يدق دقا شديدا فاذا هى بريحانة ، فانبسطت نفسها لرؤيتها .. ودخلت ريحانة مسرعة وهى تتعثر بسراويلها المنتفخة والبغتة بادية فى وجهها . فابتدرتها جلنار بالسؤال عما جرى ، فضمت أناملها اليمنى اشارة للانتظار وقالت بصوت خفيض وهى تلهث وتتلفت : « تمهلى يامولاتى .. » ثم أصاخت بسمعها نحو الدار

فسكتت جلنار وأصغت ، فلم تسمع شيئا.. فنظرت الى ريحانة نظرة استفهام .. فأجابتها وهى تبالغ فى خفض صوتها كأنها تتكلم همسا : « لقيت الضحاك وأرسلته فى المهمة المعلومة ومكثت فى غرفتى قليلا ثم خرجت اليك وأنا أحاذر أن يرانى أحد . وقبل دخولى فى هذا الرواق سمعت مولاى الدهقان يتنحنح على مقربة منى فذعرت وخفت أن يكون قد رآنى ، فوقفت هنيهة والضوء ضعيف فلم أسمع شيئا ، فخلعت نعلى ومشيت حافية على أطراف أناملى حتى جئت اليك ، وأنا أخاف أن يكون سيدى الدهقان فى أثرى ولكن يظهر انى واهمة »

فقالت : « أظنك واهمة لأن والدى لايبقى ساهرا الى هذا الوقت .. وهبى انه رآك فماذا يوجب القلق فى رؤيتك ؟..

« أما جلنار فانها مكثت فى الغرفة تنتظر فى قلق ، وقد اشتد اضطرابها لما تتوقعه من نتائج المهمة التى ذهبت من أجلها ريحانة ... »

اخبريني الآن عن الضحاك ومهمته »

فقصت عليها أهم ما ذار بينها وبينه الى أن قالت : « وأنا فى انتظار رجوعه لأرى ما يكون ، ولا ريب عندى اننا وضعنا ثقتنا فى محلها لأن هذا العربى — رغم ما يظهر من مجونه وبلهه — ذو أريحية وحماسة ، ولا أظن مجونه الا تصنعا »

قالت : « وما الذى يدعوه الى التظاهر بالبله وهو عربى ، والعرب أهل الدولة .. فلو لم يكن البله سجية فيه مع ما تدركين من أريحيته لكان من أكبر رجال الدولة وكان فى غنى عن هذه الخدمة .. »

فأشارت ريحانة برأسها وعينيها : أن صدقت مولاتى ... ثم قالت : « ومهما يكن من شأنه فانى واثقة من حميته وصدق خدمته وسترين . ولكن لابد من الذهاب الى غرفتى لأنتظره فيها كما تواعدنا »

فقالت : « أرى أن أخرج معك فألتقى به عندك .. وذلك خير من أن نلتقى فى غرفتى وأسلم عاقبة »

ففهمت ريحانة قصدها وأومأت ايماءة الاستحسان والطاعة ولبثت تنتظر خروجها معها .. فاذا بها تنهض من الفراش ، وكان على اللحاف مطرف من خز أحمر مبطن بالفرو فالتحفت به ، فغطاها كلها ولفت رأسها بشال من الكشمير موشى بالحرير فلم يبق ظاهرا منها الا مقدم وجهها . فمشت الماشطة أمامها ، وسارتا

نحو غرفتها .. ولم تخرجا من ذلك الرواق حتى سمعنا هبوب الزوابع وتنسمنا رائحة الشتاء ، فانبسطت نفس جلنار لسبب لا تعلمه ، وأرادت أن تخاطب ريحانة بشيء ، لكنها صبَّرت نفسها حتى وصلتا الى الغرفة ، فدخلتا وأغلقت ريحانة البـاب وأسرعت فى اعداد مقعد لسيدتها ، فجلست جلنار ووجهها تجاه المسرجة .. ونور السراج يُرقِصه ما ينفذ الى الغرفة من بقايا تلك الزوابع

ولما جلست نزعت الشال عن رأسها ، فبان وجهها وقد زاده الدفء رونقا وجمالا ، فتأملتها ريحانة وهى فى تلك الحـالة وابتسمت ابتسام مندهل بذلك الجمال ، ولم تتمالك عن تقبيل رأسها . ثم جثت بين يديها وأخذت فى اصلاح بعض ما أفسده الخمار من شعرها وهى تقول : « سبحان الخالق .. كيف لايسحر ذلك الخراسانى بهذا الجمال الذى لا مثيل له فى خراسان ولا ما وراء النهر ؟ »

فتنهدت جلنار ، وسكتت هنيهة .. ثم تذكرت شيئا خطر لها حين سمعت هبوب الرياح ، واعتزمت أن تصارح ماشطتها به ، فقالت : « شعرت ياريحانة ونحن قادمتان الآن براحة وطمأنينة لسبب لا أعلمه .. »

فابتسمت المـاشطـة ، وقالت : « جعل الله كل أيامك راحة وسعادة » ثم نهضت وهى تقول : « وأنا أيضا أحسست بنفس

الشعور ، وأظن أن السبب واحد وهو هبوب الرياح وتوقع المطر، فانى كثيرا ما أكون منقبضة النفس مغمومة فاذا أمطرت السماء انبسطت نفسى وذهب عنى الغم .. » ثم وقفت هنيهة تجاه المرآة لغير غرض مقصود ، ثم تحولت بغتة الى سيدتها وهى تقول : « ولكن لسرورنا سبب آخر .. هل أقوله ؟ »

قالت : « قولى .. »

قالت وهى تضحك : « لأن الزوابع يعقبها المطر الشديد ، واذا اشتدت الأمطار كثرت الأوحال وسدت الطرق فيتأخر ضيوفنا عن السفر يوما أو بضعة أيام .. وبقية الحديث عندك »

فابتسمت جلنار بعد أن طال انقباضها وقلقها ، وهمت بالكلام فسمعت ضحكة غلبت قهقهتها على صفير الرياح . فعلمت انه الضحاك ، ولكنها لم تكن تتوقع أن يجعل لقدومه قرقعة وضوضاء وهم فى حال تدعو الى التكتم . فنظرت الى ريحانة فرأتها فى مثل حيرتها وهى تقول : « صدقت يامولاتى .. يبدو انه أبله حقيقة .. »

ولبثتا بعد تلك الضحكة تتوقعان وصوله ، فاذا هو يقول بصوت عال : « صدقت يامولاى الدهقان ان الطقس قد تغير ولا يلبث المطر أن يتساقط لأن مطر الربيع قد يكون جارفا . وأنا لا أستطيع النوم فى مثل هذه الليلة » وضحك . فلما سمعتا ذلك علمتا أن الدهقان لايزال ساهرا ، فخشيت ريحانة أن يشعر بهما..

فتقدمت الى السراج وغطته بحيث لايبدو نوره من شقوق الباب للخارج . فلما فعلت ذلك ، سمعتا ضحكة أخرى أبعد من تلك وقائل يقول : « ألم أقل لمولاى ان ما ظنه نورا خارجا من الغرف انما هو من أثر البرق ، اذ ليس فى هذا القصر ساهر سوى مولاى وأنا .. أما أنا فانى ذاهب الى مخدعى بعد أن أكون فى خدمة مولاى حتى يدخل فراشه لأن سائر الخدم نيام ، واذا أحب أن أونسه بقية هذا الليل فعلت »

فخفق قلب جلنار عند سماعها ذلك لأنها أدركت منه ان والدها أساء الظن بريحانة وبحث عن سبب النور الخارج من غرفتها ، واستحسنت أسلوب الضحاك فى انقاذها من ذلك الخطر . على انهما مكثتا صامتتين لا تتحركان وتكادان تمسكان عن التنفس التماسا للاصغاء ، فلما مضت مدة ولم تسمعا فيها صوتا أيقنتا ان الدهقان ذهب الى فراشه ، ولا يلبث الضحاك أن يعود اليهما . فأخذت جلنار تتأهب لسماع صورة الحكم على عواطفها ، فاما الى النعيم واما الى الجحيم . ولم تكن تتوقع الاحساس بمجىء الضحاك أو سماع خطواته قبل وصوله للباب لتعاظم هبوب الرياح وحفيف الشجر وقصف الرعد

— ١٤ —

ابلاغ الرسالة

ولبثتا صامتتين كأن على رأسيهما الطير ، حتى سمعتا قرع الباب قرعا خفيفا فأجفلتا وأسرعت ريحانة الى فتحه ، فاذا بالضحاك يدخل مسرعا وهو فى ذلك القباء المقلوب وعمامته مشوهة ، ونعلاه فى منطقته ، وشعر لحيته منتفش ، وهيأته فى غاية الغرابة . فلما وجد جلنار هناك ، أجفل وتأدب ، وقام باصلاح شعره وتسوية عمامته وهو يضحك بلا قهقهة ، وأخرج النعلين من منطقته فوضعهما بالباب ، ووقف متأدبا كأنه مارد لطوله . فابتسمت جلنار من منظره وحركاته فقال لها : « اعذرينى يامولاتى على هذا المنظر فانى لم أكن أحسبك هنا ، والحق على هذه الملعونة .. » وأشار باحدى يديه الى ريحانة وباليد الأخرى الى عمامته فلم تتمالك جلنار عن الضحك لأسلوبه فى التخلص من غضب ريحانة ، وأما ريحانة فغالطته وقالت : « ان الدهقانة مسرورة من همتك ونشاطك .. »

فقطع كلامها بصوت منخفض وقال : « وطبعا انت زعلانة .. لأن العريس ليس لك »

فقالت : « دعنا من المجون ، وأخبرنا ما الذى فعلته وأظنك

لا تلتزم الجد الا اذا حلفتك بمولاتنا الدهقــانة .. فبحياتها الا تكلمت الجد .. »

فلما سمع قولها وقف بين يدى جلنار متأدبا ، فأشارت اليه أن يجلس فجلس ، فقالت له ريحانة : « قص علينا ما جرى .. »

فأخــذ فى سرد ما حدث منذ خروجه من غرفتها الى أن لقى ابراهيم الخازن ، وكيف احتال عليه وأخرجه من حجرته وما دار بينهما حتى انتهى الى ما تم الاتفاق عليه بينهما ، ولكنه لم يذكر ما قاله الخازن عن كره أبى مسلم للنساء لعلمه ان هذا يسىء الى جلنار ويوقعها فى اليأس ، وهو يريد أن ترجو الظفر به .. على انه أخبرها أن أبا مسلم لا يســتطيع أحــد من خاصــته أن يخاطبه فى أمر الزواج تهيبا ، وانما اذا لقيته وخاطبته فلا ريب انه سيحبها ويتمنى الظفر بها ، وخصوصا اذا أظهرت له غيرتها على الدعوة التى يقوم بتأييدها »

وكانت جلنار ترهف السمع لذلك الحديث .. فلما بلغت الى ختامه انقبضت نفسها ، لأنها كانت ترجو أن تعرف شيئا عن شعور أبى مسلم نحوها فسكتت ، وظهر الانقباض على وجهها .. فأدركت ريحانة سبب انقباضها فأرادت انعاش أملها فقالت : « بورك فيك يا ضحاك ما ألطف أسلوبك فقد فعلت ما لا سبيل الى سواه .. »

فقال : « لا أحب التملق يا ريحانة فانى لم أعمل شيئا ولكننى مهدت السبيل للعمل ، فاذا رأت مولاتى أن أعرض عليها رأيى

فيما ينبغى أن تعمله فعلت »

فقالت جلنار : « قل يا ضحاك .. »

قال : « أولا ، ينبغى أن ندبر وسيلة لتجتمعى بأبى مسلم ويدور بينكما الحديث »

فاحمر وجه جلنار خجلا ، اذ تصورت نفسها فى خلوة مع أبى مسلم ، على حين انها قد شبت ولم تخاطب من الرجال غير والدها وخدم قصرها . ثم تذكرت انها لا تستطيع الوصول الى تلك الجلسة الا بالتزلف والتذلل والنزول عن عرش انفتها وعزة نفسها. ثم هى فوق ذلك ستخالف ارادة والدها فضلا عن تعرضها لغضبه اذا علم بذلك الاجتماع السرى.. فلما تصورت ذلك، غلبت عليها عزة النفس فتراجعت وهى جالسة وهزت رأسها ولسان حالها يقول : « لا ... لا أفعل ذلك »

ففهم الضحاك ما يدور فى ذهنها ، فرفع حاجبيه وقلب شفته السفلى ، ثم قال : « لا أنكر يامولاتى ان ذهابك للاجتماع به لا يخلو من التنازل و ... »

فخشيت ريحانة أن يذكر لها أصل أبى مسلم ومنشأه، فاعترضت حديثه قائلة : « لا أرى فى ذلك ضعة ولا تنازلا ، لأنها اذا ذهبت اليه أو خاطبته فانها تخاطب أعظم رجل فى خراسان ، وهو قائد رجال الشيعة مع انه شاب .. وتحت أمره شيوخ من قواد الخراسانيين وأمرائهم . ويكفى ان الامام اختاره لهذا المنصب

العظيم ، واذا نظرت الى وجهه وهيبته علمت أن المستقبـل له لا محـالة .. »

فلما سمعت جلنار ذلك المديح تحركت فيها عوامل الحب ، فهان عليهـا كل عسير فى سبيله ولكنها ظلت سـاكتة . وفهم الضحاك ان الغرض من ذلك الاعتراض ألا يذكر أصل أبى مسلم فى حضرتها فقال : « لا. أنكر منزلة هذا البطل الشاب ، وانما أردت بالتنازل ذهاب مولاتى الدهقانة اليه وهى فتاة .. الا اذا كانت تحب .. (وبلع ريقه) فتلك مسألة أخرى هى أعلم بها .. » قال ذلك وضحك وهو مطرق برأسه وعيناه شاخصتان نحوها

أما جلنار فان الاهتمـام ظهر فى عينيها وسكتت وتشاغلت بارسال ضفائر من شعرها الى ظهرها كانت قد استرسلت الى الأمام عنـد انحنائها . ثم أصلحت القرط فى أذنها وهى مطرقة وأدركت ريحانة ولحظ الضحاك انها تتردد فى أمر ذلك الاجتماع، وظلوا صامتين هنيهة كأنهم يصـغون لاستماع قصـف الرعد وسقوط المطر ، ولو أصاخوا بسمعهم لسمعوا صوت الجمال عن بعد ولكن تساقط المطر وهبوب الرياح أضاعا صوتها

وأخيرا استأنفت ريحانة الحديث قائلة : « تبصرى يامولاتى فى الأمر على مهل ، فان القوم باقون هنا بضعة أيام بسبب الأمطار»

فظلت جلنار صامتة مطرقة ، فأدرك الضحاك انها لاتزال تتهيب أمر لقائها أبا مسلم فقال لها : « اذا أذنت مولاتى لمملوكها أن

يصرح بما فى ضميره فعل .. »

قالت جلنار : « قل .. »

قال : « يظهر لى انك تتهيبين أمر ذلك الاجتماع ، ولا لوم عليك ونحن نعلم انفتك وعزة نفسك ، وعندى رأى هل أعرضه عليك ؟ »

فأشارت برأسها أن : « قل .. »

قال : « ان أبا مسلم ــ كما لا يخفى عليك ــ قد حصر قواه وعواطفه فى أمر الدعوة التى يقوم بها .. وما من سبيل يوصلنا الى قلبه غير هذه الدعوة ، فالذى أراه ان مولاتى اذا شق عليهـا لقاؤه وجها لوجه أن تبــدأ الصلة بينها وبينه بشىء يدل على اشتراكها معه فى هذا الأمر ، ويكون ذلك فاتحة العلاقات .. ثم نرى ماذا يكون »

فانبسط وجه جلنار .. وكان انبساطه جوابا كافيا للضحاك ، فتناولت ريحانة طرف الحديث عنها وقالت : « لقد رأيت صوابا يا ضحاك .. بورك فيك ، فافصح عن رأيك مفصلا .. »

قال : « هذا رأيى واضح لا يحتمل شرحا كثيرا . فالمراد أن تبعث مولاتى الى أبى مسلم بما يدل على تأييدها لدعوته ، ورغبتها فى رضاه واشتراكها فى أمره ، ونرى ما يكون منه .. »

قالت ريحانة : « أظنك تعنى أن ترسل المال اليه ؟ »

قال : « المال .. وغير المال .. كما تشاء .. »

فقطعت جلنار حديثهما قائلة : « فهمت .. ولكن .. » ونظرت في وجه ريحانة كأنها تستطلع رأيها في أمر واحد لاتريد التصريح به بين يدى الضحاك ، فأدركت ريحانة شيئا في خاطرها فنهضت وهى تقول : « أظنك يامولاتى تعبت من السهر »

ففهم الضحاك مرادها فنهض وحنى رأسه ويداه على صدره كأنه يستأذن مولاته في الذهاب ، وقال : « انى رهين ما تأمرينني به ولو كان طريقى الى مرضاتك على أسنة السيوف » . قال ذلك وخرج

— ١٥ —

الهدية

فسرت جلنار بذلك ، ونهضت ومشت نحوغرفتها وهى تسترق الخطى مخافة أن يسمع وقع قدميها . أما ريحانة فانها أطفأت السراج وسارت في أثرها حتى وصلتا الى غرفة جلنار ، فدخلتا وتوسدت جلنار فراشها ، وتغطت باللحاف ، والتفت بالمطرف دفعا لما احست به من البرد في أثناء مرورها في الرواق ، وجلست ريحانة بين يديها وقد لفت رأسها وحول عنقها بالشال . فلما استقر بهما المقام قالت ريحانة : « قد فهمت اعتراضك يامولاتى .. »

قالت : « فما رأيك ؟.. ألا ترين انى أواجه مشكلة صعبة ؟ »

قالت ريحانة : « اذا كنت محقة فى ظنى ، فالمشكلة على صعوبتها لا نعدم وسيلة لحلها »

فقطعت جلنار كلامها قائلة : « وكيف نستطيع الحل ؟ وأرانى كحجر بين مطرقتين .. ان والدى من جهة قد وعد بزواجى من ابن الكرمانى وسأزف قريبا اليه ، وأرى نفسى من جهة أخرى مقيدة القلب .. (وتنحنحت وبلعت ريقها حياء) وأنا مع ذلك لا أدرى اذا كانت المحبة متبادلة . فكيف أتخلص من أمر والدى وماذا يكون أمرى اذا لم تكن المحبة متبادلة ؟.. » قالت ذلك وشرقت بريقها ، واحمرّت وجنتاها ، أو زادتا احمرارا ، لأن وجهها كان قد تورد من الدفء واعمال الفكره ، ولحظت ريحانة فى عينيها دمعتين تترددان بين المآقى فتأثرت لحالها وشعرت بخطر موقفها ، فبادرت الى التخفيف عنها فقالت : « أما ابن الكرمانى فليس أمره مهما لأنك لو زففت اليه من الغد فبقاؤك عنده لا يكون الا بانتصاره على أبى مسلم .. فاذا انتصر عليه ، فأبومسلم لا يليق بك ، وأما اذا كانت الغلبة لأبى مسلم فأنت له لا محالة لأنه يستولى على كل ماهو للكرمانى . واذا كنت تكرهين هذا العريس وترومين بعده ، فلك من حكمتك وحسن أسلوبك ما يضمن بقاءك عنده مدة طويلة وأنت مصونة كأنك فى بيت أبيك .. »

فأدركت جلنار ما تعنيه ريحانة ، وقد أخجلها .. لكن سرورها بهذا الحل هوّن عليها ذلك التعريض ، فابتسمت والانقباض

ينازع الابتسام فى وجهها ، فعادت ريحانة الى حديثها فقالت : « بقى علينا النظر فى الوسيلة الى أبى مسلم ، والحق يقال ان هذا العربى المهزار قد رأى رأيا حسنا ، فلا غرو اذا وقع لديك موقع الاستحسان ... لأن زيارتك لأبى مسلم بدون علم أو مبادلة سابقة لا تخلو من الابتذال ، فالذى أراه أن ترسلى اليه مع الضحاك مبلغا من المال على سبيل الاعانة ، والضحاك يُفهمه بأسلوب لطيف انك بعثت بهذه الهدية حبا فيه وفى دعوته ، ونرى ما يكون من جوابه . واذا رأيت أن ترسلى اليه هدية خاصة تؤكد محبتك فعلت .. »

فأشرق وجه جلنار لهذا الرأى .. وكانت متكئة فجلست ، وقالت : « لقد أعجبنى ياريحانة رأيك الأخير لأن ارسال الهدية الخاصة استطلاع لرأى أبى مسلم فىَّ .. فما عسى أن تكون تلك الهدية ؟ »

قالت : « أجمل هدية تهدى للقواد السيف ، فاذا بعثت اليه بسيف مرصع .. وبلّغه الرسول انه هدية منك اليه ازداد اعتقادا بسلامة نيتك فى نصرته ، واذا كان فى نفسه شىء ظهر »

فقالت : « ومن أين آتى بهذا السيف ؟ .. »

قالت : « ذلك هين على من يبذل المال ، فاعط الضحاك مالا وفوضيه أن يبتاع سيفا ، فما هو الا أن يذهب ويعود اليك بالسيف فى نحو ساعة »

ففرحت جلنار بهذا التدبير وقالت : « انى أترك تدبير هــذا الأمر اليك ، وأما النقود فهى عند الخازنة .. خذى منها ماتريدين، واحذرى أن يعلم والدى بشىء من هذا التدبير فنقع فى مشكلة يصعب حلها »

قالت : « كونى مطمئنة يامولاتى ، فلا يكون الا الخير ان شاء الله ، والآن خففى عنك ونامى ، وعلىَّ تدبير كل شىء .. »

ثم قبَّلت رأسها ويدها وخرجت حافية حتى عادت الى غرفتها . ولا نظن أن جلنار نامت فى تلك الليلة الا قليلا لعظم اضطرابها

فلندع هؤلاء فى تدبيرهم .. ولنرجع الى أبى مسلم ، فقــد تركناه فى دار الضيافة ومعه خالد بن برمك ، وقد ناما وأبومسلم قلَّما غمض جفنه ، وهو يفكر فى مشروعه وفيما عساه أن يحول دونه من العقبات . وكان أبو مسلم شديد الحذر ، متيقظ الخاطر، سىء الظن فى المستقبل ، لايأمن كوارث الاحداث . فكان وهو فى فراشه سابحا فى بحار التــأملات يفرض الممكنات ويهيىء الأسباب حذرا من الفشل . وبعد أن نام هزيعا من الليل أفاق على هبَّات الرياح وقصف الرعد وسقوط الأمطار ، فشق عليه ذلك مخافة أن تحول الظروف دون مسيره .. فلما استيقظ نهض من الفراش وأطل من نافذة غرفته الى ما حوله وكان المطر قد انقطع والصبح قد تبلج ، فرأى المياه قد ملأت الطرق وسالت فى أخاديد الأرض ، فتحول الي غرفة خالد . ولم يكد يدخلها حتى

رآه خارجا منها وقد تزمل بعباءته وتخمر بعمامته فصاح فيه أبو مسلم : « خالد .. »

فقال : « لبيك أيها الأمير .. »

قال : « ما رأيك فى صاحب الخبر الذى بعثناه بالأمس ، هل تظنه تمكن من التجسس ؟ .. »

قال : « لا أظنه الا فعل ، واذا أبطأ علينا فلا يؤخره الا المطر والأوحال لأنه من أهل النجدة والهمة »

قال : « انى فى انتظاره على مثل الجمر ، لنعلم حال أعدائنا فى مرو فنتدبر فى حربهم .. »

قال خالد : « ذلك هو الأمر الذى شغل خاطرى الليله وحرمنى النوم ، على انى واثق بالرجل واخلاصه لأنه يخشى غضبك ، وهو يكره نصر بن سيار كرها شديدا »

قال أبومسلم « ليس فى معسكرنا من يحب نصرا ، ولكننى أخاف أن يخدعهم الكرمانى لأنه من دهاة الرجال ، وقد بلغنى انه أخرج نصرا من مرو وتملكها »

وبينما هما فى ذلك اذ سمعا حركة فى داخل الدار ، واذا ببعض الغلمان قد أقبلوا وهم يحملون موقدا فيه نار قد تجمرت وضعوه فى أحد جوانب الغرفة للاستدفاء وذروا فيه شيئا من البخور ، فانتشرت رائحته فى الدار كلها ، فاستأنس أبو مسلم بالدفء والبخور ، وجلس على وسادة فوق البساط والتف بمعطف من

خز أسود ولف عمامته على رأسه بغير نظام ، وأشار الى خالد . فجلس الى جانبه ، ثم تذكر انه لم يصلّ بعد ، فنهض ونهض معه خالد ، وصلّيا الصبح وجلسا ، وكلاهما يفكر فى أمر الرجل الذى أرسلاه ليتجسس أحوال مرو قبل وصولهم الى تلك المحلة ، وكانا قد أوعزا اليه أن يوافيهما الى هناك

— ١٦ —

أبو مسلم والضحاك

وبعد هنيهة جاء الخدم بالطعام فأكلا وغسلا أيديهما ، ولم يتكلما الا قليلا لأن أبا مسلم كان قليل الكلام جدا . وفى نحو الضحى دخل أحد غلمان أبىّ مسلم ، وأومأ انه ينقل رسالة فقال أبو مسلم : « ما وراءك ؟ »

قال : « ان فى الباب رجلا يطلب مقابلة الأمير »

قال أبو مسلم : « ألعله من رجالنا ؟ »

قال : « كلا .. بل هو من رجال الدهقان »

فقال أبو مسلم : « فليدخل .. »

فدخل الضحاك وهو يحمل خريطة قد أثقلت كاهله ، فوضعها بجانب الموقد وأغلق الباب ودخل وهو يتأدب فى مشيته حتى وقف بين يدى أبى مسلم

فصاح به أبو مسلم : « من أنت ؟.. وما غرضك ؟ »

قال : « انى من موالى الدهقان ولى مع الأمير شأن ، اذا سمح بخلوة بثثته اياه »

وكان الضحاك يتكلم وهو يحاول اخفاء امارات المجون من وجهه ، ولم يتم كلامه حتى نهض خالد وخرج . فأشار أبومسلم الى الضحاك أن يجلس ، فأكبّ على يد أبى مسلم يقبّلها وهو يقول : « قد أتيت مولاى الأمير بمهمة سرية أرجو أن يكتمها لوجه الله ، وأنا رسول ، وما على الرسول الا البلاغ »

قال : « قل .. ولا خوف عليك .. »

فمد الضحاك يده وأخرج من تحت عباءته سيفا مرصعا دفعه الى أبى مسلم . ولما رأى أبو مسلم السيف أجفل لأول وهلة مخافة أن يكون فى الأمر دسيسة أو اغتيال ، فقطب وجهه ونظر فى وجه الضحاك وامارات الغضب والحذر بادية فى عينيه . فضحك الضحاك ضحكة يمازجها شىء من البله وقال : « أيخاف صاحب هذا الجند من مهذار مثلى جاء بهدية ؟.. ومن يجرؤ على أن يقدم على الأمير بغير الطاعة والخضوع ، انى أرى الموت بين شفتيك والقضاء المبرم فى عينيك فبالله الا تبسمت قبل أن أقع قتيلا .. »

قال ذلك وهو يتظاهر بالذعر ، أو هو ذعر فعلا ، لأن أبا مسلم كان شديد الهيبة لايستطيع أحد التفرس فى وجهه

فتكلف أبو مسلم الابتسام وهو يتناول السيف بيده ، وليس

فى ابتسامته ما يدعو الى الاستئناس أو السكينة . ولما تناول السيف تأمله وقلّبه بين يديه ثم نظر الى الضحاك وكان لايزال واقفا وقال : « اجلس »

فجلس متأدبا وهو يتلفت يمينا وشمالا ، فقال له أبو مسلم : « ما شأنك يا رجل ؟.. انى أراك عربيا »

فتراجع الضحاك وأظهر الخوف وقال : « وهل علىّ بأس من وصية الامام ؟.. »

فلم يتمالك أبو مسلم عن الضحك من حركاته وهيئته ، وكان يندر أن يضحك .. ثم قال : « ان وصيته لا تجرى على كل عربى لأن الامام نفسه عربى ، فكن مطمئنا وقل ما شأنك ؟ »

فنظر الضحاك نحو الباب نظر الخائف المحاذر وقال : « أتوسل الى مولاى أولا أن يكتم ما سيدور بيني وبينه فقد جئته بأمر أرجو أن ينفعه .. واذا ذاع أضرنى .. »

قال : « قل لابأس عليك .. اننا كاتمون أمرك »

قال : « اعلم ياسيدى أن مولاتى الدهقانة جلنار .. هل تعرفها ؟.. »

فوجم أبو مسلم لحظة ثم قال : « أليست هى ابنة الدهقان صاحب هذه المحلة ؟ »

قال : « هى بعينها ، أظنك تعرفها .. فاعلم ، يامولاى ، انها شهدت مجلسك بالأمس وقد سحرت بما شهدته من حمبتك

وأعجبها الأمر الذى أنت قائم به ، وعلمت بما دفعه أبوها وأحبت أن تخص نفسها بمال تدفعه هى من جيبها الخاص ، فبعثت بجانب منه فى هذه الخريطة (وأومأ نحو الخريطة) على شرط ألا يعلم أحد بذلك ، وخاصة أبوها ، وهى لا تلتمس فى مقابل ذلك الا رضى الأمير أعزه الله .. ثم انها بعثت اليك بهذا السيف المرصع على سبيل التذكار ، وهو قديم فيه سر عظيم . ولم يحمله أحد الا هزم عدوه .. »

فأعاد أبو مسلم نظره فى السيف ، وتناوله واستله من قرابه وتأمل فرنده فاذا هو يلمع كالزجاج وفيه تموج بديع فقـال : « يظهر انه مسموم ؟ ».

قال : « أظنه كذلك لأن مولاتى قالت لى انه لم يصب به أحد الا مات لساعته ولو كان جرحه خفيفا »

فقال : « انها هدية ثمينة ، ثم ماذا ؟ »

قال : « عندى كلمة أخرى أحب كتمانها حتى عن الدهقانة نفسها . فاذا عاهدنى الأمير بذلك بحت له بها ، والا لايهمنى لو قتلنى بهذا السيف الساعة وأراحنى من حياتى »

فاستغرب أبو مسلم قوله وطريقة تعبيره واستأنس بخفة روحه فقال له : « قل ما تشاء ولا تخف »

قال : « وهل تعدنى انك لا تغضب من جسارتى ؟ »

قال : « قلت لك لا تخف ... »

قال : « ان مولاتى الدهقانة أجمل أهل عصرها ، وما من أمير ولا دهقان الا ويتمنى رضاها ولكنها تمنع نفسها عن كل طالب ، ولم يمل قلبها الى أحد حتى الكرمانى أمير العرب المحاصرين مرو فانه طلبها لابنه ورضى أبوها ، وأما هى فقلبها نافر منه .. وقد تطيع أباها وتذهب الى الكرمانى ، ولكنها اذا سارت اليه فقلبها لا يسير معها .. لأنه متعلق برجل أعظم منه وأعظم من كل رجل فى خراسان .. هل يأذن لى مولاى أن أذكر اسم ذلك الرجل ؟ »

فأدرك أبو مسلم انه يشير الى حبها اياه ، ولم يكن قد فاته ذلك من قبل

فقال : « أذكر اسمه ، الا اذا كان داخل هذه الغرفة .. »

فقال : « كأنك تأمرنى ألا أذكره لأنه داخل هذه الغرفة ولكنه ليس أنا » وضحك . فلم يتمالك أبو مسلم عن الضحك ثم قال : « لقد أعجبنى أسلوبك يارجل ، فانك خفيف الروح »

فقال : « وماذا ينفعنى اعجابك ياسيدى ، وأنا أخاف أن أذكر اسمك ؟ »

قال : « قلت لك لا تخف .. فما أنا ناقم على جسارتك لأنك على ما يظهر لا تعرف عنى كثيرا »

قال : « أنا أعلم عن مولاى الأمير أكثر مما يظن ولذلك فانى لا أقصد برسالتى هذه أن أكلفه ما لايريده .. ولكننى تعهدت لصاحبة هذه الهدية برضى أبى مسلم عنها ، ويجوز أن يكون

ذلك الرضى ظاهريا فقط . ثم لا أخفى عن حامل علم الامام ان نظرة منه تشف عن رضى أو ارتياح تجعل هذه الفتاة المفتونة آلة فى يده قد يستخدمها فى أمور تنفعه ، ولو كانت فى فسطاط الكرمانى نفسه أو فى قصر نصر بن سيار صاحب مرو ، اذ تكون أقدر على خدمته وهى هناك .. وان كان ما ترجوه من أبى مسلم أضغاث أحلام لا يصح منها شيء ، وعهدى بالأمير لا يحتاج الى تصريح »

فأطرق أبو مسلم هنيهة وهو يعمل فكرته ويتدبر ما سمعه من الضحاك فرأى قوله لا يخلو من النصيحة ، ولكنه أمسك عن الخوض معه فى ذلك ، ثم رفع السيف من بين يديه ووضعه وراء الوسادة ونظر نحو الباب فأدرك أنه يريد انصرافه فوقف وهو يقول : « يأمر مولاى خازنه أن يستلم هذه الأكياس » ومشى نحو الخريطة بقرب الموقد

فصفق أبو مسلم فدخل حاجبه فقال : « الىّ بالخازن »

فخرج الحاجب وعاد ، ومعه ابراهيم الخازن ، فلما دخل ابراهيم ورأى الضحاك فى خلوة مع أبى مسلم أوجس خيفة ، ولكنه ما لبث أن سمعه يقول : « خذ من هذا الرجل ما يعطيه لك وقيّده فى دفاترك »

فتحوّل نحو الضحاك ، ففتح الضحاك الخريطة وأخرج منها عشرة أكياس مختومة وقال له : « هذه عشرة أكياس فى كل منها

ألف دينار يوسفية » وأطال لفظ يوسفية

فتناولها الخازن وقد فهم اشارته ، ولكنه أدرك انه يقول ذلك على سبيل المجون .. فتناول الأكياس وهو يقول : «ممن هى ؟»

فقال أبو مسلم : « قل هى منى ، وكفى ..! »

فحملها ابراهيم وخرج وهو لا يصدق انه نجا من شراك الضحاك . وبعد خروج ابراهيم عاد الضحاك نحو أبى مسلم وانحنى يقبّل يديه ثم خرج

— ١٧ —

صاحب الخبر

ولبث أبو مسلم هنيهة بعد خروج الضحاك ، وهو مطرق يفكر فيما سمعه منه ، وقد توسم فى هذا الرجل غير ما يظهر من مجونه وبلهه وقال فى نفسه : « لايخلو هذا العربى المهذار من دهاء مستور » وفكر فى أمر جلنار وتعلقها به وكان قد لحظ ميلها اليه من قبل ولم يعبأ به ، فرأى بعد ما سمعه من نصيحة الضحاك ان يغتنم شغفها به لاتمام مقاصده فى مهمته . قضى ساعة فى نحو ذلك واذا بالغلام يدخل وقد علق بعنقه جرابا فيه البخور والند وذر شيئا فى الموقد ، فلما رآه أبو مسلم تذكر خالدا فصاح فيه : « أين الأمير خالد ؟ »

فقال : « هو ياسيدى فى الحديقة يكلم رجلا قادما من سفر »

فقال : « ادعهما الىّ معا » وقد ترجح عنده أن القادم صاحب الخبر الذى ينتظرونه على مثل الجمر ..

وما عتم أن دخل خالد وهو يبتسم ويقول : « لقد جاء صاحب الخبر يا أمير ، هل يدخل ؟ »

قال : « يدخل حالا » ودعا خالدا للجلوس ، وكان أبو مسلم يعتقد فى خالد العقل والدهاء ، ويخصه بالمشورة ، ولا يخفى عنه شيئا . فجلس خالد بجانب أبى مسلم ثم دخل الرسول وهو لايزال بملابس السفر .. عليه العباءة ، وعلى رأسه الكوفية فوق القلنسوة . وقد تجمدت العباءة مما تعرضت له من الأمطار والعواصف خلال الليلة الماضية .. فلما دخل ألقى التحية ووقف ، فقال أبو مسلم : « لعلك هنا من زمن طويل ..؟ »

قال : « منذ ساعة أو ساعتين »

قال أبو مسلم : « وما الذى أخرّك عن الدخول علينا ؟ »

قال : « كنت فى انتظار الاذن .. »

قال أبو مسلم : « ليس على صاحب الخبر من حرج ، ولا ينبغى أن يؤخر اذنه » والتفت الى خالد كأنه يستطلع رأيه فى ذلك فأجاب خالد باشارة من رأسه ان ذلك هو الصواب . ثم أمر حاجبه أن يغلق الباب ويخرج وأشار الى الرسول أن يجلس فجلس متأدبا ، فقال له أبو مسلم : « ما خبرك ؟.. وكيف فارقت

مرو ؟ »

قال : « فارقتها والحصار شديد عليها والأعداء محدقون بها »

قال أبو مسلم : « أظنك تعنى ابن الكرمانى ؟ »

قال : « أعنيه وأعنى شيبان الخارجى فانهما يقاتلان معا نصرا ابن سيّار صاحب مرو .. وكل منهما يضمر السوء لصاحبه »

فقال خالد : « وكيف ذلك وعهدى بالكرمانى انه دخل مرو وأخرج نصرا منها ؟ »

قال الجاسوس : « نعم ، يامولاى ، قد كان ذلك ولكنه لم يدم ، ولكى يتضح لكم الواقع استأذن الأمير ببعض التفصيل »

قال أبو مسلم : « قل ولا توجز »

قال : « لايخفى على مولاى ان أمر بنى أميــة قد أخذ فى الضعف منذ عدة سنين ، وانما بقى الحكم فى أيديهم تهيبا من اسم الخلافة واحتراما للدين . فلما أفضت الخلافة الى مروان بن محمد واختلف أهله فى بيعته وانتقضوا عليه تجرأ الناس على مخالفته . وبعد أن كانت الأحزاب نائمة أو ساكنة هبّت عليه دفعة واحدة . فقام الخوارج وغيرهم ممن يطمعون فى السلطة لأنفسهم ومنهم ــ الكرمانى ــ وللكرمانى أيها الأمير حديث طويل مع نصر بن سيّار أمير مرْو .. هل أقصه عليكم ؟ »

قال : « لابد من ذلك لأن التفصيــل يهدينــا الى مخــارج الأمور ومداخلها »

قال : « لما مات أسد بن عبد الله والى خراسان ، منذ عشر سنين ، استشار هشام بن عبد الملك (الخليفة يومئذ) بعض خاصته فيمن يولّيه مكانه . فعرض عليه بعضهم أن يولى الكرمانى وهو من رجال الدولة وأهل النجدة والحزم ، فأعرض عنه هشام وقال : « ما اسمه ؟ » قال : « جديع بن على » فقال هشام : « لا حاجة لى به » لأنه تطيّر من اسمه ، فعرضَ عليه غيره وغيره حتى استقر الأمر لنصر بن سيّار والى خراسان الآن . فكأن الكرمانى أسرّ ذلك فى نفسه ..

فلما مات الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وخلا كرسى الخلافة ، واختلف عليها بنو مروان ، وحدثت الفتنة ، ونهض كل ذى سلطان يسعى الى نفسه ، اغتنم الكرمانى هذه الفرصة وأظهر الخلاف لنصر بن سيّار . ولا يخفى على مولاى ان الرجل اذا قام يطلب سلطة اعتمد على حزب من الأحزاب ، والكرمانى وان كان اسمه يدل على انه فارسى من كرمان الا انه لقبِ بذلك لأنه ولد فى كرمان ، ولكنه عربى من بنى أزد وهم يمنية فاستنصرهم فنصروه على ابن سيار ، لأن رجاله كلهم مضرية من عرب الحجاز ، والخلاف بين العرب اليمنية والمضرية قديم ولا يزال شديدا وسيكون من أكبر أسباب سقوط العرب على الاجمال .

وكان أهل خراسان أنفسهم منقسمين فيما بينهم لأن بعضهم يمنية ، والبعض الآخر مضرية (أو نزارية) فلما مات الخليفة كما

قدمت لكم ، نهض من هذين الحزبين من يطلب الخلافة لبعض بنى مروان غير مروان بن محمد .. وفى جملتهم عرب خراسان ، فقد اختلفوا فيما بينهم لهذا السبب .. فاهتمَّ نصر بن سيار بالتوفيق بينهم ، فلما أعياه ذلك منع عنهم العطاء . فلما كان فى بعض الأيام ــ وقد وقف فى المسجد يخطب ــ نهض الناس وطلبوا منه اعطياتهم ، فصاح فيهم : « اياكم والمعصية وعليكم بالطاعة والجماعة » فوثب أهل السوق الى أسواقهم وثارت الأفكار ، فغضب نصر .. فألقى عليهم خطابا لايزالون يتناقلونه الى اليوم ، قال فى جملته : « مالكم عندى عطاء .. كأنى بكم وقد نبع من تحت أرجلكم شر لايطاق ، وكأنى بكم مطروحين فى الأسواق كالجزر المنحورة ، انه لم تطل ولاية رجل الا ملثوها ، وأنتم يا أهل خراسان مسلحة فى نحور العدو فاياكم أن يختلف فيكم سيفان ، انكم ترشون أمرا تريدون به الفتنة ، ولا أبقى الله عليكم ، لقد نشرتكم وطويتكم فما عندى منكم الا عشرة وانى واياكم كما قيل :

استمسكو أصحابنا بحذركم　　فقد عرفنا خيركم وشركم

فاتقوا الله ، فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليتمنيَّن أحدكم انه ينخلع من ماله وولده . يا أهل خراسان ، انكم قد غمضتم الجماعة وركنتم الى الفرقة .. ثم تمثل بقول النابغة الذبيانى :

فان يغلب شقاؤكمو عليكم　　فانى فى صلاحكمو سعيت

« فعلم الكرمانى بذلك الخلاف ، وكان نصر قد عزله من منصب كان فيه من قبل ، فشاور الكرمانى أصحابه فى القيام فوافقوه على أن يكاتبوا من فى مرو من اليمنية ويستنجدوهم . وقد أخبرنى رجل من خاصة ابن سيار أن المضرية أشاروا على نصر أن يقتل الكرمانى وقالوا له : « ان هذا الرجل يفسد عليك أمرك فأرسل اليه فاقتله أو احبسه » فلم يصغ لرأيهم وقال : « لا .. ولكن لى أولادا ذكورا واناثا ، فأزوّج بنىّ من بناته وبناتى من بنيه » قالوا : « لا .. » فقال : « فابعث اليه بمائة ألف درهم وهو بخيل ، فلا يعطى أصحابه منها فيتفرقون عنه » قالوا : « لا .. هذه قوة له »

وطال الجدال بينهم ، حتى قالوا له أخيرا : « ان الكرمانى لو لم يقدر على السلطان والملك الا بالنصرانية واليهودية لاعتنقهما » فلما رأى نصر الحاحهم عزم على حبسه ، فأرسل صاحب حرسه ليأتيه به ، فأرادت الأزد أن تخلصه من يده .. فمنعهم الكرمانى من ذلك وسار مع صاحب الحرس الى نصر وهو يضحك ، فلما دخل عليه قال نصر : « ياكرمانى ألم يأتنى كتاب يوسف بن عمر بقتلك فراجعته ، وقلت شيخ خراسان وفارسها ، فحقنت دمك؟». قال : « بلى » . قال : « ألم أغرم عنك ما كان لزمك من الغرم وقسّمته فى أعطيات الناس ؟ » . قال : « بلى » . قال : « ألم أرتش ابنك عليا على كره من قومك ؟ » . قال : « بلى » . قال :

« فبدلت ذلك اجماعا على الفتنة » . فقال الكرمانى : « لم يقل الأمير شيئا الا وقد كان أكثر منه ، وأنا لذلك شاكر وقد كان منى أيام أسد ما قد علمت ، فليتأنَّ الأمير فلستُ أحب الفتنة » ثم أمر نصر بضربه وحبسه فى القهندز « قلعة مرو » سنة ١٢٦ هـ ، وتكلمت الأزد بشأنه فقال نصر : « انى حلفت أن أحبسه ولا يناله سوء فان خشيتم عليه فاختاروا رجلا يكون معه » فاختاروا رجلا اسمه يزيد النحوى أقام معه . ولكن ذلك الحبس لم يطل وقته .. فان رجلا من أهل نسف فاوض أهل الكرمانى على اخراجه بحيلة لطيفة . وذلك انه أتى مجرى الماء فى القهندز فوسعه وأدخل الكرمانى فى السرب فخرج بكل جهد وركب فرسه والقيد فى قدميه . فأصبح الكرمانى بعد ذلك من ألد أعداء نصر ، وندم هذا على استبقائه حيا .. وتوسط الناس بينهما وطلبوا الى نصر أن يؤمنه ولا يحبسه فأمنه ، ولكنه لم يكن يأمنه . فكان يدخل الكرمانى الجامع للصلاة ومعه ١٥٠٠ رجل وأكثر ، فيصلى خارج المقصورة ثم يدخل على نصر فى المقصورة فيسلم عليه ولا يجلس . ثم ترك زيارة نصر وأظهر الخلاف ، فبعث اليه نصر من يستقدمه ويعتذر اليه عن حبسه فأبى وأظهر الجفاء فأصبح وجوده بلية على نصر .. »

– ١٨ –

الحرث بن سريج والكرمانى

وكان صاحب الخبر يتكلم ، وأبو مسلم صامت يحدق بعينيه ويتفرس فى الرجل كأنه يستنزل الكلام من صدره ، وهو يتأثر من مطاولة نصر للكرمانى ، وتصور نفسه فى موضع نصر قبل الانتظار .. فلما بلغ الرجل الى قوله : « وان وجود الكرمانى أصبح بلية على نصر » صاح أبو مسلم : « ذلك جزاؤه على ضعفه وتردده ــ قبّحه الله .. لماذا لم يقتله ، ويكفى نفسه مئونة الحذر منه ــ أطال الله بقاء الامام وأيّد دعوته ، ان فى وصيته ما يغنينا عن هذه المطاولة .. من شككت فيه فاقتله .. والسلام » قال ذلك وهو يعبث بشعرات من لحيته وخالد قد تهيب لما ظهر من تحمسه ، ثم قال أبو مسلم للجاسوس : « ثم ماذا ؟ »

قال : « وما زال الكرمانى حتى حارب نصرا وأخرجه من مرو قهرا فى العام الماضى أو الذى قبله ، ولكنه أنقذه من الحرث ابن سريج .. »

فقطع خالد كلامه قائلا : « أنا أعرف الحرث هذا ، فقد كان فى بلاد الترك وأبلى بلاء حسنا ، وكان بينه وبين نصر خلاف فخالفه واشتد الجدال ، ورضىَ نصر أن يحكم بعض الوجهاء ولم يتم ذلك » ثم التفت خالد نحو أبىَ مسلم ، وقال : « والحرث

المذكور يزعم انه صاحب الرايات السود »

فنظر أبو مسلم اليه نظرة استغراب .. ثم تكلم الرسول قائلا : « ولكن نصرا لم يصدقه فأرسل اليه يقول : ان كنت تزعم انكم تهدمون سور دمشق وتزيلون ملك أمية ، فخذ منى خمسمائة رأس ومائتى بعير واحمل من الأموال ما شئت وآلة الحرب وسر ، فلعمرى لئن كنت صاحب ما ذكرت انى لفى يدك ، وان كنت لست ذلك فقد أهلكت عشيرتك .. فأجابه الحرث : قد علمت ان هذا حق .. ولكن لايبايعنى عليه من صحبنى ، فقال نصر : فقد ظهر انهم ليسوا على رأيك ، فاذكر الله فى عشرين ألفا من ربيعة واليمن يهلكون فيما بينكم »

فقطع أبو مسلم كلام محدّثه ، وقال وهو يهز رأسه : « انهم يخشون أصحاب الرايات السود ، ويسيرونهم ويرون بلاءهم فيهم ، فهؤلاء لايترددون فى حكم ولا يصبرون على ضيم .. بل يقتلون كل من يشكون فيه » وسكت

فعاد الرجل الى حديثه فقال : « ولم يكن ذلك ليثنى الحرث عن عزمه » فرأى نصر أن يضرب به الكرمانى فقال له : « ان كنت تزعم ما تقول فابدأ بالكرمانى فان قتلته فأنا فى طاعتك » فلم يفعل

وبالاختصار فان الحرث تطاول على نصر حتى صاروا يقرأون سيرته فى أسواق مرو، وفى المساجد يدعون الناس الى بيعته حتى

قرأوها مرة على باب نصر نفسه ، فهاج الناس والتحم الفريقان وكانت معركة هائلة .. فلم ير نصر الا أن يستنجد بالكرمانى ، فبعث اليه فلم يجبه . وكانت معركة معقدة ، كل منهم يحارب الآخرين ، وانتهت بفرار نصر من مرو وتغلب الكرمانى عليها. فلما رآه الحرث قد فاز ، بعث اليه يطلب أن يكون الأمر شورى بينهما فلم يقبل الكرمانى ، فاقتتلا فقتل الحرث وتفرقت قواته وصارت قبائل اليمن كلها مع الكرمانى ، وقد انتصروا على المضرية أصحاب نصر فاستبدوا بهم وانتقموا منهم وهدموا منازلهم ، وكان الحرث نفسه مضريا فلما قتل قال فيه نصر :

يا مدخل الذل على قومه   بعدا وسحقا لك من هالك
شؤمك أرى مضرا كلها   وخزٌ من قومك بالحارك
ما كانت الأزد وأشياعها   تطمع فى عمر ولا مالك
ولا بنو سعد اذا ألجموا   كل طمر لونه حالك .

فقال أبو مسلم : « فالكرمانى الآن صاحب مرو .. وأين نصر ..؟ »

قال : « لم تطل اقامة الكرمانى فى مرو لأن المضرية اشتد ساعدهم بمقتل الحرث ، وانضم اليهم جماعة كبيرة من رجال الحرث فعاد نصر الى مرو وخرج الكرمانى منها وعسكر خارجها»

فقال أبو مسلم : « فالكرمانى الآن محاصر مرو ؟ »

قال : « وليس وحده »

فقال أبو مسلم : « ومن معه ؟ أظنك تعنى شيبان الحرورى ؟ »

قال : « نعم يامولاى .. وليس شيبان بالشيء القليل لأنه يرى رأى الخوارج ، فهو مخالف لنصر لأنه من عمال مروان والخوارج لايعترفون بخلافة مروان . وقد اتفق مع الكرمانى على قتال نصر لأن الكرمانى يمنى ونصر مضرى ــ كما تعلمون ــ فاتفق الاثنان على نصر »

فقطع خالد كلام الرجل وخاطب أبا مسلم بالفارسية بما معناه : « ولا يخفى عليك أيها الأمير ان هذين لايكرهان دعوتنا لأننا ندعو الى خلع مروان أيضا .. »

فأجابه أبو مسلم : « سأذيقهم طعم الحزم والعزم وسأريهم كيف تؤكل الكتف .. »

ثم التفت الى الرسول وقال : « فالآن مرو محاصرة بجند الكرمانى وشيبان ؟ »

قال : « نعم يامولاى .. وهما على وفاق »

قال أبو مسلم : « وهل تعرف عدد رجالهما ؟ »

قال : « لا أعرف ذلك تماما ، ولكنهم يزيدون على بضعة آلاف »

فتحرك أبو مسلم فى مجلسه كأنه يتحفز للنهوض ، ففهم الرسول انه يريد خروجه فنهض وخرج

– ١٩ –

الاستعداد

وظل أبو مسلم وخالد فى خلوة ، فقال أبو مسلم : « علينا أن نحارب هؤلاء جميعا : الكرمانى ، وشيبان ، ونصر .. »

فسكت خالد ولم يجب ، فأدرك أبو مسلم غرضه فقال : « كأنى بك تقول وكيف نحارب هؤلاء وليس معنا من الرجال أحد ... تمهل وسترى كيف يأتيك الناس مئات وألوفا . كيف حال الطقس يا ترى ؟ » قال ذلك ونهض ليرى الجو فمشى معه خالد الى الباب فأطلا على الحديقة فرأى الشمس مشرقة وقد صفا الجو وأقبل الدفء وأخذت المياه فى الجفاف ، فقال أبومسلم : « نستطيع السفر الليلة ان شئنا .. »

فقال خالد : « اذا رأى الأمير أن نبيت الليلة هنا ونرحل فى الصباح ، كان ذلك أقرب الى الصواب »

قال : « لابأس من ذلك وأرى أن نبعث الى كبار النقباء نخبرهم بعزمنا ونشاورهم فى أمرنا ، وفى الخطة التى يجب أن نعمل بها قبل الاقبال على مرو .. لأننا فى حاجة الى الرجال والأموال كما ذكرت ، وان كنت على يقين من نجدة كل دهاقين خراسان ومن يقول بقولهم ، وهم ليسوا فى خصام بينهم مثل خصام العرب اليمنية والمضرية ، بل هم متفقون على النقمة على العرب كافة

لما يسومونهم من الظلم والذل .. »

فقال خالد : « رأيك هو الصواب .. ألا ترى أن نكاتب الدهاقين ، ونستنجد بهم ، ونبث الدعاة قبل نهوضنا من هنا حتى اذا نهضنا الى مرو لا يطول انتظارنا للنجدة ، ثم تتوالى علينا النجدات باذن الله ... »

قال أبو مسلم : « سنكاتب الدهاقين ونبث الدعاة متى خرجنا من هذا المكان .. وسننزل فى أقرب القرى الينا لنقيم فيها حينا لهذا الغرض ، ثم نرحل الى سفيذنج ننزل فيها ضيوفا على صاحبنا سليمان بن كثير ونكون تجاه مرو »

فلما سمع خالد اسم ابن كثير تذكر ما فى قلب أبى مسلم من هذا الرجل مع ما يظهره من احترام له .. لأن ابن كثير كان يدعو لأهل البيت قبل ظهور أبى مسلم ، وقد أبلى فى ذلك بلاء حسنا ونال مقاما رفيعا . فلما بعث ابراهيم الامام أبا مسلم الى خراسان وعهد برياسة الدعاة اليه لم يقبله سليمان بن كثير لصغر سنه وقد كبر عليه أن يكون تحت أمره . وكان فى جملة الدعاة رجل اسمه أبو داود ، أشار على الدعاة بقبول أبى مسلم رئيسا عليهم وحاجّهم بما لا محل له هنا ، فقبلوه . وكان قد بلغ أبا مسلم ما قاله ابن كثير فيه فأسرّها فى نفسه وعرف فضل أبى داود ، فلما سمع خالد بن برمك أبا مسلم يذكر ابن كثير تذكر هذه الحادثة ، ولكنه تجاهل وأسرع الى الجواب لئلا ينتبه أبو مسلم

لما جال فى خاطره لأنه كان دقيق الفراسة .. فقال خالد : « حسنا رأيت أيها الأمير ، فلنتأهب للمسير .. وفى الغد نسافر الى أقرب القرى الينا وهى (فنين) على ما أظن »

قال : « نعم هى بعينها .. فابعث الى النقباء أن يكونوا على أهبة الرحيل فى غد ، ولا بد لنا قبل الرحيل من وداع دهقاننا لنوصيه بمخابرة أصدقائه من الدهاقين فى مرو ليمدوا لنا يد المساعدة بالمال أو الرجال .. والله الموفق .. »

فأشار خالد اشارة الاستحسان ، وخرج ...

وأما جلنار فقد تركناها بعد خروج ريحانة من عندها وهى مضطربة البال ، فقضت تلك الليلة قلقة ... وكلما تصورت ذهاب الضحاك لمقابلة أبى مسلم وتقديم الهدية اليه يخفق قلبها ، فلم تنم الا قليلا . فأصبحت منحرفة الصحة لعظم ما قاسته من القلق والاضطراب فى الأمس من قلة النوم .. فظلت على فراشها تتناوبها الأفكار المتضاربة ، وتخشى أن يبكر والدها اليها ويخاطبها فى شأن خطبة ابن الكرمانى وهى تحب الاطلاع على ما يكنه قلب أبى مسلم أولا . فلما تراكمت عليها الأفكار شعرت بالحاجة الى ريحانة واستبطأتها فصبّرت نفسها ، ومكثت فى الفراش تارة تجعل اللحاف فوق رأسها للدفء أو الاستغراق فى التفكير ، وتارة يضيق صدرها فتزيحه الى أسفل كتفها وتتنهد وهى تتوقع مجىء أحد ثلاثة : اما أن يأتى والدها بخبر الكرمانى ،

أو تأتيها ريحانة وحدها تنبئها بارسال الهدية ، أو تأتيها بالضحاك بعد الفراغ من المهمة

— ٢٠ —

الوساطة

قضت فى ذلك عدة ساعات ، واذا بريحانة تقرع الباب وتدخل .. فلما رأتها جلنار جلست فى الفراش وتفرست فى وجهها تستطلع مايتجلى فيه من الأنباء ، فلما رأتها تبتسم انشرح صدرها ، ولكنها لم تتمالك عن السؤال عما فعلته ، فأجابت : « قد أرسلنا الهدية وهى جميلة و .... »

قالت جلنار : « هل عاد الضحاك ؟.. »

قالت : « كلا يامولاتى لم يعد .. ألا تريدين الطعام ؟ .. »

فقالت جلنار : « لا أشعر بحاجة اليه .. دعينا من الأكل واخبرينى عما تتوقعينه من أمرنا .. »

قالت : « خيرا ان شاء الله ولكن .. » وسكتت ..

فانشغل خاطر جلنار وقالت : « ولكن ماذا ؟ »

قالت : « جئتك بأمر من والدك .. »

فتصاعد الدم الى وجهها بغتة ، وتسارع خفقان قلبها وقالت : « وما هو هذا الأمر ؟ »

قالت : « لابأس عليك ياسيدتى .. لا تخافى فانى لا أدخر وسعا فى كل ما يرضيك ويريحك . أما مولاى الدهقان فقــد استقدمنى فى هذا الصباح وأسرّ الىّ أمرا أوصانى ألا أبوح به اليك ، ولكننى سأخالفه فى ذلك . كونى فى راحة ، وســأقص عليك الخبر كما كان : بعث الىّ فى ساعة مبكرة ، فلما وقفت أمامه مد يده الى خاتم كان أمامه ودفعه الىّ .. وهو هذا (وأرتها خاتما من الذهب فيه حجر من الفيروز) وقال : « هذا هدية لك » فتناولته وقبّلت يده ، ثم ذكر لى مقدار حبــه لك ورغبته فى هنائك وسعيه فى سعادتك ، وانه استغرب تمنعك فى مسألة ابن الكرمانى الى أن قال : « انه نظرا لما يعلمه من دالتى عليك ، عهد الىّ أن أقنعك بقبوله لأن الكرمانى أمير وهو صــاحب الأمر والنهى و .. و .. الخ »

فقطعت جلنار كلامها قائلة : « وماذا قلت له ؟ »

قالت : « طاوعته فى بادىء الأمر وأبديت اعجابى برأيه ــ ولا يمكننى غير ذلك ــ حتى اذا آنس فىّ الموافقة قلت له : « ولكنى لا أرى أن تعجل عليها فى الذهاب اليه ، فما لايقضى اليوم الا بالعنف والضــغط قــد يقضى غدا بالرضى والقبول ، فأرى ألا تخاطب مولاتى الدهقانة فى هذا الشأن الا بعد بضعة أيام ريثما أكلمها وأقنعها . قلت له ذلك ياسيدتى لنرى ما يبدو من ضيفنا » وضحكت تخفيفا لما فى قلب جلنار ، فابتسمت هذه والانقباض

يغشى ذلك الابتسام ، ولكنها استحسنت حيلة ريحانة . ثم قالت ريحانة : « وقد جاريت سيدى الدهقان فى قوله حتى أجد سبيلا لخدمتك بقدر الامكان والا فانه فاعل ما يريد ، ولا يحتاج الى أكثر من أن يأمر . فلو قال لك اذهبى الآن الى الكرمانى لا أظنك الا ذاهبة »

فقالت جلنار : « اذهب ، ولكن .. »

قالت : « تذهبين مكرهة ولا يدفعك أدبك على مخالفة والدك فضلا عن غضبه الذى ربما حمله على اجبارك بالقوة »

فصمتت جلنـــار وظلت مطرقة وأرادت أن تعود الى السؤال عن الضحاك ، ولكن الحياء منعها من تكرار السؤال فى هـــذا الموضوع ، ولم يفت ريحانة ذلك فوقفت وهى تقول : « هلمّ بنا الى المائدة .. ومتى تناولت الطعام ، ننظر ماذا يكون .. »

فنهضت ، وأخذت ريحانة فى تبديل ثيابها وتطييبها وتصفيف شعرها وجلنار لا تنتبه ، حتى أتتها بالمرآة وهى تقول : « انظرى الى هذا المحيا وقولى سبحان الخلاق .. »

فحولت جلنار وجهها عن المرآة كأنها لا تريد أن ترى صورتها وقالت : « لا تخدعينى بهـــذا الاطراء يا ريحانة .. لو كان فى وجهى جمال لما كنت فى هذا الشقاء .. » وغصت بريقها

فابتدرتها ريحانة قائلة : « لا تيأسى يامولاتى .. هدئى من روعك .. وهلم بنا الى تناول الطعام » قالت ذلك وخرجتا معا ،

وجلنار تنظر نحو الرواق المؤدى الى الحديقة لعلها تجد الضحاك عائدا ، فسمعت ريحانة تقول لها : « اذا كلمك مولاى الدهقان فى أمر الكرمانى أو ابنه فلا تبدى تمنعا .. »

فأشارت جلنار بهزة من رأسها أن : « نعم » وهى لا تزال تنظر نحو الرواق . ومع كثرة من فى تلك الدار من الخدم والجوارى بين ذاهب وغاد ، لم تنتبه لأحد منهم لانجاه جوارحها جميعا نحو جبهة واحدة.. فوصلت الى غرفة الطعام ولم تر أحدا، فجلست الى المائدة وعليها ألوان الأطعمة الباردة والساخنة ، والفاكهة ، فتناولت القليل منها وهى لا تتكلم ، وكلما سمعت صوتا يشبه وقع أقدام الضحاك التفتت نحو الباب ، وريحانة تلاحظ حركاتها وتتألم لقلقها ، وتحاول عبثا أن تشغلها بالحديث ، ثم تناولت تفاحة وقدمتها اليها وهى تقول : « ما أشبه لون هذه التفاحة بلون خديك » ودفعتها اليها ، فأخذت جلنار التفاحة وقضمت قطعة منها بغير انتباه ، ثم سمعت نقرا على الباب فأصاخت بسمعها والقطعة فى فمها ، وقد أمسكت عن المضغ ، ووقفت لتفتح الباب فسبقتها ريحانة اليه وفتحته ، فسمعت جلنار ضحك الضحاك ولم تر وجهه ، فاصطبغ وجهها بالاحمرار ، وكادت تشرق بريقها ، ولكنها تجلدت وأخذت فى مضغ التفاحة وهى تتشاغل بذلك عما كاد يغلب عليها من القلق ، ونظرت الى الضحاك ، وقد دخل وهو يتأدب فى مشيته فابتدرته ريحانة

قائلة : « ما وراءك ؟ »

فضحك وتباله وتكتف ووقف ، فانتهـرته ريحانة قائلة : « لا تتباله .. أخبرنا عاجلا بما فعلته .. »

قال : « دعينى أضحك فانى مسرور »

فأشرق وجه جلنار ، واستبشرت ونظرت اليه وهى تبتسم ، ولسان حالها يقول : « اخبرنا بهذه البشرى »

فالتفت الى جلنار وقال : « أبشرك يامولاتى ، ان عند صاحبنا الخراسانى أضعاف ما عندك من ... » وتنحنح

فلم تتمالك جلنار من الضحك بغتة ، ثم انتبهت لما فى ذلك من الخفة فأمسكت نفسها ، وقالت : « بارك الله فيك .. لقد أتعبناك كثيرا ، ونرجو أن نكافئك .. قصّ علينا خبرك ؟ »

— ٢١ —

خدعة

قال وهو يتلفت يمينا وشمالا كأنه يحاذر أن يسمعه أحد : « ذهبت الى أبى مسلم بالهدية فقبلها وكأنه كان على موعد من مجيئى بها ، ولم يشأ أن يخاطبنى فى حضرة رفيقــه ابن برمك فأشــار اليه فخرج ، فلمــا خلوت به ســألنى عنك وتلطف فى السؤال عن حالك فكدت أطير من الفرح .. »

فلما سمعت جلنار قوله تسارعت ضربات قلبها ، وكاد السرور يخرج بها عن حدود الحشمة ، وكادت ترقص طربا لو لم تتذكر انها أمام ذلك الخادم ، فتجلدت ونظرت الى ريحانة كأنها تقول لها استزيديه بيانا ، فقالت ريحانة : « ماذا قال لك ؟ هل لمست فيه ميلا الى مولاتنا ؟ »

قال : « قلت انى رأيت عنده أضعاف ما عندها ، وقد شهدت له بسلامة الذوق لأنه قدّر هذا الجمال حق قدره » قال ذلك وهو ينظر الى الأرض مطرقا من الحياء ، فخجلت جلنـار وقد غفرت له جرأته فى سـبيل ما جـاءها به من البشرى ، وظلت ساكتة ، فقالت ريحانة : « دعنا من التلميح وقل صريحا ما الذى قال لك ؟ »

قال : « قال لى.. قال لى.. انى لا أذكر كلامه حرفيًا.. ولكنى فهمت منه ان قلبه تعلق بمولاتى ، وكان يخشى ألا يكون عندها مثل ما عنده ، ولهذا السبب كان يظهر الاعراض فى أثناء تلك الجلسة بالأمس .. لكنه أوصانى وبالغ فى التحذير فى اظهار ذلك لمولاى الدهقان ، لغرض فى نفسه .. وهو سر عميق أزهق روحى قبل اطلاعى عليه »

فقالت ريحانة : « وما هو ذلك السر ؟ »

فوجم الضحاك ، وقطب وجهه ، كأنه ندم على ما فرط منه .. وتراجع نحو الباب فابتدرته ريحانة قائلة : « ما بالك تتراجع ؟

لعلك ندمت على صدق خدمتك ؟.. »

فوقف وتشاغل باصلاح عمامته ، وقد حوّل وجهه الى جلنار وجعل ذراعه بين عينيه ووجه ريحانة ، وأشار الى جلنار بجفنيه وعض على شفته السفلى . ففهمت جلنار انه لايريد أن يقول ذلك لريحانة فابتدرتها قائلة : « دعيه.. انى أريد أن أسأله ذلك سرا »

فرجعت ريحانة الى مقعدها وسكتت ، وساد الصمت المكان لحظة ، ثم أدركت ريحانة ان الظرف يستدعى خروجها ، فخرجت

فلما خلت جلنار بالضحاك نظرت الى وجهه مستفهمة ، فدنا منها ثم التفت الى الباب الذى خرجت منه ريحانة ليتأكد من خروجها وقال : « انى سأبوح لك بسر عاهدنى أبو مسلم أن أنقله اليك ، وطلب الىّ أن تعاهديه على كتمانه عن كل انسان ، فهل تعدينى بذلك ؟ »

فقالت وقد مدت عنقها نحوه : « نعم أعاهدك .. قل »

قال : « هو يحبك ياسيدتى كثيرا ، ولكنه عاهد نفسه على ألا يقرب النساء ولا يعقد عقدا حتى يفرغ من مهمته ، ويخرج من حربه فائزا بعد أن يهلك أعداءه .. فهمت ؟ »

فأطرقت وهى تفكر فيما ينطوى عليه ذلك القول من مغزى ، فلم تفهم مراده تماما فقالت : « افصح يا رجل .. قل كلمة أخرى »

قال : « أنت تعلمين ان أبا مسلم قائم بهذه الدعوة ، وأعداؤه كثيرون .. وأكبرهم ابن الكرمانى ونصر بن سيار . ولا يضمن

الفوز الا بعد قتلهما . وقد أخبرته ان الكرمانى خطبك لابنه فسُر وابتهج » قال ذلك وتشاغل بحك ذقنه وضحك

فأطرقت وأعملت فكرتها ، وقد دهشت لذلك التناقض : كيف ان ابا مسلم يحبها ، وكيف انه سُر بخطبتها لابن الكرمانى ، فرفعت بصرها الى الضحاك وفى عينيها ما يشير الى التساؤل ، فضلا عن مظاهر الاضطراب ، ففهم سبب دهشتها فقال : « لم يسره أن تكونى للكرمانى، بل سره انك ذاهبة اليه وأنت تريدين أبا مسلم ، وتتمنين أن ينتصر على أعدائه »

فأدركت جلنار أن أبا مسلم يرجو منها أن تساعده على تحقيق غرضه وهى عند الكرمانى ، ولا يكون ذلك الا بمساعدته على قتله وقتل ابن سيار ، فأكبرت الطلب لأنه لا يتم لها الا بخيانة الكرمانى بعد أن تصير زوجته ، فضلا عن الاقدام على القتل وهى لم تتعوده ، فوجمت ولبثت صامتة وقد حارت فى أمرها ، وأعظمت أن تصرح للضحاك بما فهمته من خلال كلامه ، وأصبحت بين عاملين قويين : أحدهما يدفعها الى مرضاة حبيبها بأية وسيلة كانت ، والآخر يمنعها من الاشتراك فى قتل رجل سيعد نفسه زوجها ، ولا تستطيع الاشتراك فى قتله الا وهى فى بيته .. فشعرت للحال بأنها فى شدة وقلق لا تنجو منهما الا باعتزام أحد أمرين : اما أن تقبل الكرمانى على أمل أن تنال أبا مسلم بالاشتراك فى قتله ، أو تأبى ذلك الرأى فتخسر أبا مسلم

قضت مدة وهي تتردد في الحكم بين الوجهين : فأتعبها التردد وأحست بصداع شديد وضاق صدرها ، فلم تصبر عن الوقوف بغتة والضحاك يرقب حركاتها ، ويتوقع أن يسمع منها جوابا . فلما رآها تقف ، علم انها في حيرة شديدة ، فقال لها : «لاتتعجلي في الحكم ياسيدتي .. تمهلي في التفكير ، فان الطلب شـاق .. وعلى كل حال لاسبيل الى أبي مسلم الا بما ذكرته لك لأن الرجل شديد التمسك بعزمه ، ولا يرى العدول عنه الى سواه »

فأرادت أن تستزيده ايضاحا ، فقالت : « لم أفهم المراد تماما .. لماذا لا تعيد عليّ قوله حرفيا ؟ ! »

قال : « لو أردت ذلك لطـال بي المقام ، غير اني أقول لك ما قد فهمته منه اجمالا .. هو يحبك ولكنه عاهد نفسه الا يكتب كتابا الا بعد الفراغ من حربه وهو فائز ؛ ولكنه لايرجو الفوز الا بالتغلب على هذين الرجلين . وقد يمكن التغلب عليهما بدون قتلهما وقد لايكون الا بقتلهما ، فاذا كنت أنت عند أحدهما كنت عونا له على ذلك اذا أردت ، والا فالرأي لك .. فكّري في الأمر على مهل .. »

فأحست جلنار بعجزها عن اتخاذ قرار على الفور .. ورأت تأجيله ريثما تحدث ريحانة في شأنه .. رغم ما وعدت به من كتمانه عنها .. والانسان اذا أعجزه الحكم في مسألة أحس بميل شديد الى مكاشفة بعض أخصائه بها ، ولاعبرة بما وعد به على الكتمان ،

وقد يكون الالحاح عليه فى كتمان السر من بواعث ترغيبه فى افشائه ، وخصوصا النساء .. فانهن أقل صبرا على حفظ الأسرار من الرجال بما فطرن عليه من ضعف المزاج ، ولا سيما فيما يتعلق بالحب وبأسبابه . ويغلب أن يكون لفشاؤهن للسر على سبيل المسارة ، فاذا عهدت الى احداهن بسر وأوصيتها بكتمانه فانها تخبر به صاحبتها سرا ، وهذه تنقله بالمسارة الى صاحبة أخرى . ولا نبرىء الرجال من مثل ذلك ، وان كانوا أصبر على الكتمان منهن . وقد قالوا : « كل سر جاوز الاثنين شـــاع » والحقيقة : « ان كل سر جاوز الشفتين شاع » يقال ذلك فى الأسرار على العموم بغض النظر عن مصلحة أصحابها فى افشائها .. وقد يتعذر من يفشى سرا من أسراره التماسا للمشورة بعد أن يضيق صدره ويعجز عن الحكم فيه ، كما أصاب عروس هـــذه الرواية فانها اتخذت ريحانة خزانة لأسرارها منذ أعوام ، وهى شديدة الثقة باخلاصها وتعقلها .. فلا لوم عليها اذا كاشفتها بما أضجرها من أمر أبى مسلم فى طلبه ، كما نقله اليها الضحاك

– ٢٢ –

الوداع

فلما ضاقت ذرعا عن أن تقطع فى الأمر برأى ، أشـــارت الى

الضحاك بالانصراف ، ومضت الى غرفتها لتخلو بنفسها لعلها تهتدى الى حل تلك المشكلة ، فأغلقت بابها واستلقت على الفراش وقد استغرقت فى الهواجس ، فقضت فى ذلك ساعة وهى تطوف فى عالم الخيال ثم تعود الى حيث بدأت حتى ضاق صدرها ، فأحست بحاجتها الى ريحانة وصارت تتوقع مجيئها على مثل الجمر ، ثم غلب عليها التعب والقلق وهى مستلقية على الفراش فأحسّت بالنعاس .. وشعرت بالبرد ، فالتفّت باللحاف ونامت ، واستغرقت فى النوم وقد تركت الباب مغلقا ولم توصده .. فجاءت ريحانة لتتفقدها فرأتها نائمة فتركتها ومضت ، وهى أكثر قلقا منها لاستطلاع ما أسرّه اليها الضحاك .. وكانت على يقين من أن سيدتها لا تكتم عنها شيئا

وظلت نائمة حتى استيقظت على ضوضاء الخدم عند الغروب ، ففتحت عينيها وهى تحسب نفسها فى الصباح ، فنهضت فرأت ريحانة جالسة بجانب فراشها .. فمسحت عينيها وتلفتت حواليها فانتبهت الى الوقت ساعة الغروب ، فلما رأت ريحانة قالت لها : « لقد أبطأت ، وغلب علىّ النوم »

قالت : « تخلفت عنك لتستوعبى سرك ، ثم جئت فرأيتك نائمة »

فقالت جلنار : « ما هذه الضوضاء التى أسمعها ؟ »

قالت ريحانة : « ان الضيوف فى القاعة مع مولاى الدهقان ،

والخدم فى خدمتهم »

فلما سمعت ذلك اجملت ، وأحست بميل شديد الى رؤية أبى مسلم ، وأدركت ريحانة غرضها فقالت : « ان مولاى الدهقان سألنى عنك ، فأخبرته انك نائمة .. فهل تريدين الذهاب الى القاعة ؟ »

قالت : « وماذا يفعلون هناك ؟ »

قالت ريحانة : « أظنهم جاءوا للوداع .. وهم على أهبة السفر فى صباح غد »

فوقفت ودنت من المرآة المعلقة بالحائط لتصلح من شأنها ، ولم تصبر على ريحانة لتصلحها فأسرعت هذه الى المشط فسرحت شعرها وضفرته ، وأتتها بزجاجة الطيب فتطيبت ، ولبست ثوبا سماوى اللون ، والتفت بشال موشى بالحرير وهى تضطرب من التأثر .. وترتعد رعدة الحب ، وتتظاهر بأنها انما ترتعد من البرد ، فجاءتها ريحانة بمطرف من الخز التفت به فغطى معظم ثيابها

ومشت ريحانة بين يديها حتى دخلت القاعة من بابها السرى وتنحت ريحانة ، وأشرفت جلنار على الجلوس بحيث تراهم ولا يرونها ، فرأت والدها جالسا على وسادة فى صدر القاعة وبين يديه مجن فيه مسك وهو يتشاغل بتفتيت المسك بين أنامله ، وقد فاحت رائحته حتى تضوع المكان بها . ورأت أبا مسلم جالسا وقد بدل ثياب السفر التى رأته بها بالأمس فجعل على

رأسه قلنسوة من خز أسود ، وفوق ملابسه قباء أسود.. فتذكرت ما سمعته عن الشعار الأسود الخاص بأصحاب هـذه الدعوة ، ورأت خالدا بجانب أبى مسلم بمثل لباسه ، وقد جلسا على وسادتين مثنيتين دلالة على علو منزلتهما عند صاحب الضيافة . فوقفت هنيهة وهى لا تمتلك نفسها من الرعدة ، فانتبه لها والدها فناداها وأشار اليها أن تجلس الى بعض الأساطين ، فجلست ولم تتكلم ولكنها كانت متوجهة بكل جوارحها نحو أبى مسلم لترى ما يبدو منه بعد ما سمعته عنه . فلحظت منه التفاتا لم تعهده من قبل فانشرح صدرها ، وكانوا قد أخذوا بأطراف الحديث قبل وصولها ، فخاطبهم والدها بالفارسية قائلا : « أراكم مسرعين فى الرحيل عنا ، لعلكم لم ترتاحوا الى ضيافتنا ..؟ »

فقال أبو مسلم : « كلا ياحضرة الدهقان ، بل نحن لا ننسى حسن وفادتكم .. ونتمنى أن يكون سائر الدهاقين مثلكم »

قال : « لاريب عندى انكم ستلاقون من اخواننا الدهاقين كل رعاية ، وسيكونون عونا لكم فى هـذه الدعوة لأنكم انما تدعون الى نصرتهم ، بل أنتم تسعون فى انشـاء دولة سيكون لآل خراسـان نفوذ عظيم فيها ، فننسى تحكم العرب فى شئوننا واستئثارهم بالأموال دوننا.. فقد كنا قبلهم — فى أوائل دولتهم — نحن أهل السطوة وأصحاب الحكومة ، فما زالوا ينازعوننا عليها حتى كادوا يحكمون فينا ، ولا يمر يوم لايأتوننا فيه بضريبة »

فقال أبو مسلم : « وأظن هـذا هو السبب فى بقـاء معظم الدهاقين على الزردشتية أو المجوسية »

قال الدهقان : « نعم هذا هو السبب ، وأنا أعرف جماعة من هؤلاء لولا تظلم هذه الدولة واستبدادها لاعتنقوا الاسـلام ، على ان بعضهم همّ بالاسلام ثم عدل عنه ، ولا ريب عندى انهم اذا آنسوا من حكامهم رفقا فلن يتخلف أحد منهم عن الاسلام وأنا أضمن ذلك اذا شئتم »

قال خالد : « يكفينا من حضرة الدهقان أن يبعث بعض أتباعه الى من والاه من الدهاقين داعيا لأن يحسنوا الظن بدعوتنا »

– ٢٣ –

الدهاء المتبادل

وكان أبو مسلم فى أثناء كلام خالد ينظر الى جلنار من طرف خفى وهى تسارقه النظر .. وقد كاد قلبها يطير فرحا حين رأته يبتسم لها .. وأصبحت لا تبـالى بما قد يحول بينها وبينـه من المشاق ، واستغربت ترددها فى أمره فى أثناء النهار . ولا غرابة فى ذلك لأن الانسان اذا هاجت عواطفه أصابه ضرب من الجنون ، لا يقدّر معه عاقبة ولا يخاف خطرا ، والحب سلطان مستبد اذا لم يعترضه العقل ساق صاحبه الى أكبر الكبائر وهو لايدرى .

فكم من أديب عاقل تغافل عقله فى ساعة تغلبت فيها عواطفه فارتكب أمرا جرّ عليه الخراب أو العار أبد الدهر ، وقد كان فى حل من ذلك لو استطاع أن يقاوم عواطفه ساعة أو بعض الساعة . ولو أعملت الفكرة فى أكثر الجرائم التى يرتكبها البشر ويشقون بسببها لرأيتها انما حدثت فى مثل تلك الغفلة . فلا غرو اذا هان على جلنار ركوب ذلك المركب الخشن فى سبيل ارضاء حبيبها ، ولم يدفعها الى التفانى فى ذلك الا ابتسامة خرقت أحشاءها وأضاعت رشدها ، وهى مع ذلك تتجلد وتتظاهر بخلو الذهن مخافة أن يبدو ذلك لأحد من الحاضرين

أما أبو مسلم فلما سمع كلام خالد قال : « نعم .. يكفينا أن يحسن الدهاقون الظن فى دعوتنا . واذا رضى هؤلاء هان كل عسير ، ولم يعد يهمنا جند العرب ، ولو كثروا ، فان دولتهم آخذة فى الزوال .. »

فتذكر الدهقان ان هذا التعميم يشمل جند الكرمانى لأن جنده من العرب ، ولكنهم من عرب اليمن خلافا لجند نصر بن سيار فانهم من المضرية فقال . « أظنك تعنى عرب مضر لأن عرب اليمن مخالفون لبنى أمية .. »

فأدرك أبو مسلم أنه يعرّض بالكرمانى ، وتذكر ما سمعه من الضحاك عن خطبة الكرمانى لجلنار فقال : « ان اليمنية ينصرون دعوتنا ويدعون لابراهيم الامام ، فهم أعواننا ونحن أعوانهم ..

وأما اذا وقفوا فى سـبيلنا ودعوا لأنفسهم أو لرجل آخر فهم أعداؤنا والسيف بيننا وبينهم »

فاختلج قلب جلنار لهذا التصريح وتذكرت شأنها فى ذلك فامتقع لونها . فبالغت بالالتفاف بالشال ، وتشاغلت باصلاح المطرف حول منكبيها وتنحنحت وهى تتظاهر بسعال داهمها ، فأدرك أبو مسلم انها تخاطبه فتبسم ونشاغل بحك ذقنه ثم قال وهو يوجّه خطابه الى الدهقان : « اذا أصبحت مرو فريسة بيننا وبين الكرمانى ، أو بيننا وبين شيبان ، فهى للفائز منا بعد التنازع عليها »

وكان الدهقان منذ سمع قول أبى مسلم الأول بشأن عرب اليمن ، يفكر فى مصير ابنته اذا تزوجها ابن الكرمانى ، وهو يعتقد ان الكرمانى أقوى وأمنع من أبى مسلم لكثرة جنده واستعداده ، وأبو مسلم لم يجتمع عنده من الجند احد بعد . فعوّل على أن يمسك الحبل من الطرفين ، فاذا انتصر الكرمانى كانت ابنته عنده ونال بالمصاهرة غرضه .. واذا غلب أبو مسلم اطمأن على حياته وأمواله بما أبداه من مسايرته . ولم يكن عازما على نصرته حقيقة ، وانما وعده بالمساعدة خداعا فقال : « نعم .. ان الكرمانى مثلنا من حيث مقاومته لبنى أمية ، ورجاله من القبائل اليمنية وهم أعداء عرب مضر أنصارُ بنى أمية . ولكن الكرمانى عربى الأصل وكان اسمه يوهم غير ذلك ، فنخشى اذا فاز ألا يكون لنا فى دولته

مصلحة.. وأما أنتم فانكم منا ، ونحن منكم ، ودولتكم دولتنا . نعم ان الدعوة باسم خليفة عربي ؛ ولكنه سيكون نصيرنا لأننا نصرناه في دعوته . وزد على ذلك انه أوصى بابادة العــرب من خراسان على ما سمعناه من وصيته التي بعث بها اليك .. »

فلما سمعت جلنار كلام والدها استبشرت وخيّل لها انه غيّر رأيه في الكرماني ، واختلج قلبها فرحا وظهر ذلك في وجهها . ولو دخلت في الحديث معهم لما خفي حالها على أبومسلم ، ولكنها كانت صامتة منزوية لا تجرؤ على الكلام لئلا يبــدو شيء من عواطفها فيفتضح أمرها عند والدها فيفسد عليها تدبيرها

وأما أبو مسلم فلم ينخدع بأقوال الدهقان كل الانخداع لأنه كان أكثر دهاء منه وهو يسيء الظن بأقرب النــاس اليه ، ولا يأمن أحدا على أمره ، ولا يسلم سره الى أحد ، بل كان يضمر السوء لكل انسان اذا لم ينفعه أو يؤيده .. فكان يقيس الناس على ما يعلمه في نفسه . والناس مفطورون على حب الذات قلَّما يعملون عملا الا وينظرون من ورائه الى مصلحتهم الخاصة وان تظاهروا بغير ذلك .. فلا يتحمس أحد لنصرة الوطنية الا اذا توقع منها نفعا لنفسه ، ولا ينصر الحكومة الملكية المطلقة الا لمصلحته ، ولا يسعى في قيام الجمهورية الا لما يرجوه من المصلحة فيها ..

فالانسان لايعمل عملا كبيرا ولا صغيرا الا اذا توقع الانتفاع به عاجلا أو آجلا ، حتى الصلاة والعبادة وكل عمل أدبي أو مادي ،

واذا أنكر أحد ذلك فانه يخدع نفسه أو أهله ، أو انه من العامة الذين يساقون سوق الأغنام فى آرائهم ومذاهبهم . وانما كلامنا عن خاصة الناس قادة الفكر ، لأن الناس من هذا القبيل فئتان : فئة قائدة ، وفئة تابعة ، والفئة الأولى هم خيرة الأنام وأهل العقل وأصحاب المطامع . فهؤلاء لايقدمون على عمل الا وهم يرجون منه النفع لأنفسهم ، ولكنهم يختلفون فى حدود مطامعهم . ففيهم من يريد النفع لنفسه ويأبى الضرر لسواه وهم أهل الخير.. وفئة لا يهمهم الا الوصول الى غرضهم ولو تخطوا اليها على جثث الناس ، وفيهم من لايبالى أن يتخطى الى غرضه على جثث أقرب الناس اليه ، وقد يضحى بأصدقائه وخاصة أهله فى هذا السبيل..

وأمثال هؤلاء كثيرون فى تلك العصور ، وأكثرهم يعدون من عظماء الرجال ومنهم أبومسلم هذا ، فقد كان واسع المطامع كبير النفس متصلب القلب ، لايهمه الا بلوغ غايته ، وهى الفوز فى دعوته.. فاذا اعترضه ظل أخيه قتل أخاه ، ولو توهّم الخوف من أصدق أصدقائه بادر الى قتله عملا بنص الوصية التى أوصاه بها الامام : « من شككت فيه فاقتله » فمن كان هـذا شـأنه لايحسن الظن بأحد

فلما سمع مواعيد الدهقان ، تظاهر بأنه يصدّقه تشجيعا له على الثبات فى قوله ، وهو فى الواقع لايؤمن بصدقه ، ولا سيما بعد أن علم بخطبة ابن الكرمانى لجلنار ، فكيف يزوج ابنته من

رجل يثق فى قرب هزيمته .. ولم يكن أبومسلم يجهل حقيقه حاله يومئذ ، وليس عنده من الرجال الا القليل . فلما تصور ذلك هب من مقعده كأنه انتبه لشيء نسيه ، ووقف فوقف الجميع ، فقال أبو مسلم للدهقان : « استودعك الله ، فاننا نبيت الليلة على أن نرحل فى فجر الغد وأنتم نيام .. فلا تنس وعودك ، فاننا نحارب فى سبيل اخواننا الخراسانيين وسائر رجال فارس »

فقال : « كن مطمئنا .. اننى سأبذل أقصى الجهد فى جمع كلمة الدهاقين على نصرتكم »

فقال خالد : « اذا فعلت ذلك فانك فاعله لخيرك وخير أهلك »

وقبل أن يتحول أبومسلم من القاعة ، التفت الى جلنار .. وكانت ترقب كل حركة من حركاته ، وتصغى لكل كلمة من أقواله ، فلما وقع نظرها على نظره توهمت انه ابتسم لها وانه وعدها باللقاء القريب ، اعتمادا على رسالته اليها عن طريق الضحاك ، فزاد هيامها به ، وأحست وهو خارج كأنه انخلع من قلبها .. ولكنها عللت نفسها بما سمعته من والدها من تحقير أمر الكرمانى واعظام أمر أبى مسلم ، وحدثتها نفسها ان والدها قد غيّر رأيه فى خطيبها

— ٢٤ —

حقيقة الموقف

وخرج أبو مسلم وخالد ، والغلمان بالشموع بين أيديهما ،

حتى بلغا البيت المخصص لهما ، وظلت جلنار فى مكانها تنتظر الخلوة بوالدها لعله يبدى ما يطمئنها . فلما عاد من وداع الرجلين ورآها ، ابتسم لها ودنا منها حتى جعل يمناه على كتفها ، وهو يتبع أبا مسلم بنظره ويقول : « طالما قلتم ولم تفعلوا .. »

فلم يعجبها قوله لأنه دل على انكاره أمر أبى مسلم ، فتجاهلت وقالت : « ومن هؤلاء يا أبى ؟ »

قال : « هؤلاء أهل بيت النبى ، فانهم ما زالوا منذ تولى بنو أمية زمام الملك وهم يبثون الدعاة ويدعون الناس الى أنفسهم ، فيأتينا هؤلاء كما أتانا أبو مسلم اليوم فنحسن وفادتهم وندفع اليهم المـال ، وننصرهم جهدنا ، ثم لا نلبث أن نسمع بذهاب دعوتهم ، وان الأمويين قتلوا صاحب الدعوة أو صلبوه فيقوم سواه وهكذا . وكانت الدعوة قبلا لأبناء بنت النبى ، وأما اليوم فانهم يدعون لأبناء عمه . ولا ريب عندى ان هذه الدعوة ساقطة لسببين مهمين : الأول ، لأن نقل هذه الدعوة من آل أبى طالب الى آل العباس يثير غضب الطالبيين كافة ، وهم أصحاب هذه الدعوة وأهل خراسان لايعرفونها لسواهم . والسبب الثانى ان هذا الغلام مغرور بنفسه يريد أن يحارب هذه الدولة بسبعين رجلا أو مائة رجل »

وكانت جلنار ترهف السمع لكلام والدها وتدهش له .. ولو انتبه وهو واضع يده على كتفها لشعر بقشعريرة اعترتها عنـد

سماع قوله .. وخشيت أن يدرك ذلك منها ، فتظاهرت باصلاح شعرها ، وتخلصت من يده ، وتجلدت .. وقالت : « سمعتك تطريه وتعده بالمساعدة وتؤمله بالنصر »

قال وهو يضحك : « وما الذى خسرته ؟ !.. أليس ذلك أفضل من أن أعاديه أو أعترض على رأيه ، وهو كما علمت شديد الوطأة لايبالى بالعواقب ، واذا عادانا لا نكون فى مأمن من أذاه . وزيدى على ذلك انى لا أقطع بفشـل هـذه الدعوة .. اذ لا آمن أن ينقلب الأمر الى عكس ما أراه ، فيكون لنا عند أبى مسلم شفاعة لاعتقاده بأننا على دعوته ، واذا كانت الغلبة للكرمانى كنت لنا شفيعا عنده .. » قال ذلك وتشاغل هنيهة بالسعال وتنحنح ، ثم أتم كلامه قائلا : « أما نصر بن سيار فانه مغلوب فى كل حال ؛ لأن سلطان بنى أمية ذاهب لا محالة وستنقسم مملكتهم الواسعة الى دول صغيرة يملكها أمراء مستقلون كما حدث لمملكة الفرس بعد الاسكندر ؛ اذ ملكها ملوك الطوائف .. وفى اعتقادى ان خراسان ستكون احدى تلك الممالك ، وسيملكها الكرمانى كما قلت لك غير مرة ، والعاقل من اغتنم الفرص » ؛ وكأنه تذكر وصية ريحانة أن لايلح على ابنته فى شأن ابن الكرمانى وأن يترك أمره اليها فقال : « هلم بنا الى المائدة ؛ فقد حان وقت العشاء »

قال ذلك ومشى ، وهو يجر مطرفه ويخطر فى مشيته ، والخدم يقفون له اذا مر بهم ، وجلنار تسير فى أثره ، حتى وصلا غرفة

المائدة ، وقد أعد فيها الطعام على خوان فوق البساط وعليه أصناف الطعام والشراب والفاكهة . وكان الدهاقون أهل ترف وتأنق شأن أهل الثروة والنفوذ فى تلك العصور . وكانت جلنار لاتتكلم فى أثناء الطعام ، وانما تتلهى به عن غير قابلية ، وأفكارها تائهة فى أبى مسلم وهى تتصوره خارجا من القاعة وعليه تلك الحلة السوداء بعد أن نظر اليها النظرة الأخيرة ، فلما تذكرت انه ذاهب فى الفجر ولن تراه الا اذا قدر لها لقاؤه ، وهى تحسب ذلك بعيدا صعبا ، وقفت اللقمة فى حلقهــا ودمعت عيناها رغم ارادتها .. فأشارت الى أحد الغلمان الواقفين للخدمة بالمــاء ، فجاءها بكأس من الفضة فيه ماء فشربت ، وهى تتظاهر بأن عينيها دمعتا من الغصة ، وودت الفراغ من الطعام والذهاب الى غرفتها للاجتماع بريحانة كى تبثها شكواها وتتداول فى أمرها . ولم تكن ريحانة تأكل معهما على مائدة واحدة ، فتظاهرت جلنار بأنها تألمت من تلك الغصة وانزعجت ، والتمست الذهاب الى فراشها قبل الفراغ من المائدة ، لأن التأنق يدعو الى المطاولة فى الطعام والشراب .. فأذن لها ، فأسرعت الى غرفتها فوجدت ريحانة فى انتظارها هناك فجلستا للمداولة

— ٢٥ —

الرحيل واظهار الدعوة

فلنتركهما فى حديثهما لأنه يطول ، ولنعد الى ما كان من أمر أبى مسلم بعد خروجه من حضرة الدهقان .. فانه استقدم كبار النقباء اليه وهم اثنا عشر ، كان محمد بن على والد ابراهيم الامام قد اختارهم فى أول الدعوة نحو سنة ١٠٠ هـ قبل ظهور أبى مسلم وتوليته عليهم ، وأكثرهم عرب يمانيــة وكلهم من خيرة القواد ، من جملتهم سليمان بن كثير .. وكان يومئذ فى سفيدنج كما تقدم . ومنهم أبو الحكم عيسى بن أعين وهو فى « فنين » التى هم ســائرون اليها . وكان فى جمــلة الذين حضروا ذلك الاجتماع ، قحطبة بن شبيب الطائى ، ولاهز بن قريظ التميمى ، وأبو داود الذى تقدم ذكره ، ونصر بن صبيح التميمى ، وشريك ابن غضبى التميمى ، وعبد الرحمن بن سليم (١) ، وكان من جملة رجــال تلك الدعوة من الفرس خالد بن برمك ، وأبو عون الخراسانى .. وكانا بين الحضور فى تلك الليلة ، فتناولوا العشاء مما أعده خدم الدهقان كالعادة . فلما فرغوا من الطعام قال لهم أبو مسلم : « اعلموا اننا ناهضون فى صباح الغد الى «فنين» اذ

(١) ابن الاثير ج ٥

ننزل فيها على أخينا أبى الحكم عيسى بن أعين النقيب ، وهناك ننظر فى توجيه القواد الى الشيعة فى الأطراف ، فتأهبوا للنهوض باكرا ، ومروا رجالكم باعداد الأحمال اللازمة ، حتى تقوم من هنا فى الفجر ونصل (فنين) فى الضحى »

فتحدثوا فى ذلك مليا ، ثم نهضوا الى خيامهم .. وأصبحوا فى الفجر وقد تأهبوا للرحيل . وكانت مياه المطر قد جفت واعتدل الطقس ، ولكنهم لم يستغنوا عن الالتفاف بالعبـاءات والفرو دفعا للبرد

وصـلوا (فنين) فى الضحى وقد أشرقت الشمس فأرسلت الدفء فى الحياة ، فنزلوا هناك على عيسى بن أعين فنصبوا الخيام للرجال ، ونزل أبو مسلم وخاصته الذين ذكرناهم فى بيت عيسى المذكور فى شعبان سنة ١٢٩ هـ ، وعند وصولهم عقدوا جلسة اتفقوا فيها على انفاذ النقباء الى الأطراف لاظهار الدعوة وجمع الرجال للحرب

وكانت تلك الجلسة فى قاعة كبيرة ، غصّت بأصحاب اللحى من الشيوخ وكلهم ينقادون لرأى أبى مسلم ، وهو شاب كأحد أولادهم ، ولكنهم كانوا لايرون مفرا من الامتثال لأمر الامام لأنهم انما قاموا يدعون له ، ويؤمنون بصدقه ، ويعملون برأيه .. فلما اجتمعوا وتداولوا ، أخذ أبو مسلم فى توجيههم فوجّه أبا داود النقيب ومعه عمر بن أعين أخو عيسى الى طخارستان فمادون

— ٢٥ —

الرحيل واظهار الدعوة

فلنتركهما فى حديثهما لأنه يطول ، ولنعد الى ما كان من أمر أبى مسلم بعد خروجه من حضرة الدهقان .. فانه استقدم كبار النقباء اليه وهم اثنا عشر ، كان محمد بن على والد ابراهيم الامام قد اختارهم فى أول الدعوة نحو سنة ١٠٠ هـ قبل ظهور أبى مسلم وتوليته عليهم ، وأكثرهم عرب يمانيـة وكلهم من خيرة القواد ، من جملتهم سليمان بن كثير .. وكان يومئذ فى سفيذنج كما تقدم . ومنهم أبو الحكم عيسى بن أعين وهو فى « فنين » التى هم سـائرون اليها . وكان فى جمـلة الذين حضروا ذلك الاجتماع ، قحطبة بن شبيب الطائى ، ولاهز بن قريظ التميمى ، وأبو داود الذى تقدم ذكره ، ونصر بن صبيح التميمى ، وشريك ابن غضبى التميمى ، وعبد الرحمن بن سليم (١) ، وكان من جملة رجـال تلك الدعوة من الفرس خالد بن برمك ، وأبو عون الخراسانى .. وكانا بين الحضور فى تلك الليلة ، فتناولوا العشاء مما أعده خدم الدهقان كالعادة . فلما فرغوا من الطعام قال لهم أبو مسلم : « اعلموا اننا ناهضون فى صباح الغد الى «فنين» اذ

---

(١) ابن الاثير ج ٥

ننزل فيها على أخينا أبى الحكم عيسى بن أعين النقيب ، وهناك ننظر فى توجيه القواد الى الشيعة فى الأطراف ، فتأهبوا للنهوض باكرا ، ومروا رجالكم باعداد الأحمال اللازمة ، حتى تقوم من هنا فى الفجر ونصل (فنين) فى الضحى »

فتحدثوا فى ذلك مليا ، ثم نهضوا الى خيامهم .. وأصبحوا فى الفجر وقد تأهبوا للرحيل . وكانت مياه المطر قد جفت واعتدل الطقس ، ولكنهم لم يستغنوا عن الالتفاف بالعبــاءات والفرو دفعا للبرد

وصــلوا (فنين) فى الضحى وقد أشرقت الشمس فأرسلت الدفء فى الحياة ، فنزلوا هناك على عيسى بن أعين فنصبوا الخيام للرجال ، ونزل أبو مسلم وخاصته الذين ذكرناهم فى بيت عيسى المذكور فى شعبان سنة ١٢٩ هـ ، وعند وصولهم عقدوا جلسة اتفقوا فيها على انفاذ النقباء الى الأطراف لاظهار الدعوة وجمع الرجال للحرب

وكانت تلك الجلسة فى قاعة كبيرة ، غصّت بأصحاب اللحى من الشيوخ وكلهم ينقادون لرأى أبى مسلم ، وهو شاب كأحد أولادهم ، ولكنهم كانوا لايرون مفرا من الامتثال لأمر الامام لأنهم انما قاموا يدعون له ، ويؤمنون بصدقه ، ويعملون برأيه .. فلما اجتمعوا وتداولوا ، أخذ أبو مسلم فى توجيههم فوجّه أبا داود النقيب ومعه عمر بن أعين أخو عيسى الى طخارستان فمادون

بلخ . ووجّه نصر بن صبيح وشريك بن غضبى التميمين الى مرو الروذ (غير مرو المحاصرة) ، ووجّه عبد الرحمن بن سليم الى الطالقان . ووجّه الجهم بن عطية الى خوارزم ، وأرسل غيرهم أيضا وأوصاهم جميعا أن يظهروا الدعوة فى رمضان لخمس بقين منه الا اذا أعجلهم عدوهم قبل ذلك بالأذى والمكروه ، فعندئذ يحل لهم أن يدافعوا عن أنفسهم ويجردوا السيوف ويجاهدوا أعداء الله — ومن شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد الوقت — وأوصاهم بالصبر والثبات فنهضوا

وظل أبو مسلم فى (فنين) الى أول رمضان ثم نهض بمن بقى من رجاله حتى نزل سفيذنج فى اليوم الثانى من رمضان . وفيها سليمان بن كثير الخزاعى المتقدم ذكره فأشرفوا على مرو عن بعد لأنها فى سهل واسع مستو محاط بالجبال حتى لايرى المقيم فيها جبلا (١) وليس فى شىء من حدودها جبل وأرضها سبخة كثيرة الرمال

فلما نزل أبو مسلم سفيذنج استقبله سليمان بن كثير ورحب به وبرفاقه وأنزله هو وخالد عنده ، ونزل الباقون فى الخيام ولبثوا ينتظرون اليوم المعين لاظهار الدعوة يوم ٢٦ رمضان أى لخمس بقين منه . وهو اليوم الذى أمر قواده باظهارها فيه

وفى اليوم الثانى من وصوله هناك وقف هو وسليمان وخالد

---

(١) الاسطخرى

« فدعا أبو مسلم الدعاة وبث جماعة منهم فى القرية المجاورة يدعون الى ابراهيم الامام
تحت ظل أبى مسلم الخراساني . فجاءهم فى ليلة واحدة أهل ستين قرية »

فى مكان يشرفون منه على مرو وما حولها .. فرأوها محاطة بسور من طين وفى وسطها بناء هائل هو قهندزها أى قلعتها ، وهى فى الكبر مثل مدينة عالية يراها القادم عن بعد . فقال ابو مسلم :
« انى لأستغرب أمر هذا القهندز لضخامته وكبره وعلوه »

فقال سليمان : « وأغرب من ذلك انهم ساقوا اليه الماء من النهر بقناة على قناطر ، وقد دخلته مرة فرأيتهم قد زرعوا على سطحه البطيخ والبقل وغير ذلك ، فاذا مشيت هنالك توهمت انك فى بستان على قمة جبل »

ورأى أبو مسلم خياما خارج السور برايات مختلفة الألوان والأشكال ، فتذكر ما سمعه من صاحب خبره عن الكرمانى وشيبان فقال لسليمان : «هذان المعسكران للكرمانى وشيبان ؟»

قال : « نعم .. وهما يحاربان نصر بن سيار، ورجالهما كثيرون فى المعسكرين »

فقال أبو مسلم : «كأنك تخشى من قلة عددنا.. سترى اننا كثيرون باذن الله . ألا ترى أن نبث دعاتنا فى هذه القرى حول مرو ؟ »

قال : « تفعل حسنا أيها الأمير لأن أهل هـذه القرى ملئوا اعتداء العرب على مايزرعون وهم لايفرقون بين اليمنية والمضرية ، وانما يعرفون ان العرب يظلمونهم وان الفرس خير منهم . فاذا بثثنا الدعاة على هذه الصورة استجابوا لدعوتنا »

فدعا أبو مسلم الدعاة ، وبث جماعة منهم فى القرى المجاورة ..

يدعون الى ابراهيم الامام تحت ظل أبى مسلم الخراسـانى ، فجاءهم فى ليلة واحدة أهل ستين قرية (١) وظلوا على نحو ذلك الى ميعاد اظهار الدعوة . وكان أبو مسلم يقبلهم سرا ثم يردهم الى قراهم الى أن يحين وقت اظهار الدعوة ، فيدعوهم اليه بنيران يوقدها اشارة لهم بالقدوم

وفى ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من سنة ١٢٩ هـ ، احتفل أبو مسلم بذلك احتفالا رسميا فجمع كبار الدعاة فى ساحة من ساحات سفيذنج . وكان أول علامات الاظهار انه عقد اللواء الذى جاءه من عند الامام واسمه « الظل » على رمح طوله أربعة عشر ذراعا وغرسه أمام المنزل الذى يقيم فيه ، وجاء برمح آخر طوله ١٣ ذراعا عقد عليه الراية التى سماها السحاب .. فعل ذلك فى مشهد موقر حضره النقباء وهو يتلو : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير »

ولما فرغ من تلاوة الآية التفت الى النقباء وقال : « آتعلمون لماذا سمى مولانا الامام هذه الراية السحاب ؟ »

قالوا : « لا .. »

قال : « اشارة الى أن السحاب يطبق الأرض . وهل تعلمون لماذا سمى هذا اللواء بالظل ؟ »

قالوا : « لا .. »

---

(١) الطبرى ج ٣

قال : « لأن الأرض لا تخلو من الظل ، وكذلك الأرض لا تخلو من خليفة عباسى أبد الدهر »

ثم جاءوا بالملابس السوداء ويسمونها السواد فلبسوها رسميا وأول من لبسها أبو مسلم ، وسليمان بن كثير ، واخوة سليمان ومواليه ، ومن كان قد أجاب الدعوة من أهل سفيذنج وسائر الدعاة ، ثم أوقدوا النيران على حسب الاتفاق مع الشيعة الذين بايعوا فتجمعوا اليه حين أصبحوا ، وكان أول من قدم عليه أهل التقادم مع أبى الوضاح فى تسعمائة راجل وأربعة فرسان ، ومن أهل هرمزفره جماعة ، وقدم أهل التقادم مع أبى القاسم محرز بن القاسم الجوبانى فى ألف وثلثمائة راجل وستة عشر فارسا ، فيهم من الدعاة أبو العباس المروزى ؛ فجعل أهل التقادم يكبرون من ناحيتهم ويجيبهم أهل التقادُم بالتكبير ، فدخلوا عسكر أبى مسلم بسفيذنج بعد ظهوره بيومين ، وحصن أبو مسلم حصن سفيذنج ورمّه ، وسد دروب المحلة

— ٢٦ —

أين المحب من الخالى

فلما كان عيد الفطر ، أمر أبومسلم سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ، ونصب له منبرا بالمعسكر ، وأمره أن يبدأ بالصلاة

قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة ، وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة وبالاذان وبالاقامة . وأمر أبو مسلم أيضا سليمان ابن كثير بست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسابعة ، ويكبر فى الركعة الثانيـة خمـس تكبيرات تباعا ، ثم يقرأ ويركع فى السادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن . وكان بنو أمية يكبرون فى الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات ، فلما قضى سليمان الصلاة انصرف أبو مسلم والشيعة الى طعام أعد لهم (١) .

وكانت المـائدة التى أعدها سليمان فى فسطاط كبير بجانب المعسكر فجلسوا حولها مستبشرين ، وأبو مسلم فى صدر المائدة ساكت يفكر كعادته ، يتناول اللقمة فى اثر اللقمـة على مهل ، وعيناه تنظران الى ما وراء الباب من السـهل الواسـع الذى لايقف البصر فى آخره على غير الأفق . وحوله النقباء والأمراء وكلهم يتهيب منظره ، وفيهم من يفكر فيما يهددهم من الحرب العظيمة

وبعد الفراغ من الطعام ، وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ، نهضوا لتدبير شئونهم .. وكل فى شاغل من أمر نفسه أو أهله الا أبا مسلم . فلم يكن همه الا تدبير شئون من اجتمع اليه من الناس ـ وهم كثيرون بالنظر الى قصر المدة التى اجتمعوا فيها ـ

---

(١) الطبرى ج ٣

ولكنهم قليلون بالنسبة الى رجال نصر فى مرو ورجال الكرمانى وشيبان خارجها . وكان أبو مسلم لايخلو الا ومعه خالد بن برمك ، فقد كان موضع ثقته ومستودع أسراره ، فلما خرجوا من فسطاط المائدة انصرفا معا الى جانب من المعسكر على مرتفع يشرفان منه على مرو وضواحيها وعلى معسكرهما

فلما رأى أبو مسلم قلة جنده بالنسبة الى أولئك التفت الى خالد — وهو يزيح عمامته الى الوراء — وتبسم ، وذلك نادر منه .. فأقبل خالد نحوه بجوارحه كأنه يتأهب لتنفيذ أمره ، فقال أبو مسلم : « ألا يخيفك قلة جندنا وكثرة عدونا ؟ »

فبش خالد ، وقال : « لايخيفنى شىء وأنت أميرنا ، واليك قيادتنا ، وقد استبشرت اليوم بكثرة من جاءنا من الشيعة على قصر مدة ظهورنا .. »

فقطع أبو مسلم كلامه وقال : « صدقت ، ولكن الغلبة ليست بالكثرة وانما هى بالتدبير والاتحاد . نعم ان أعداءنا كثيرون ولكنهم أحزاب متفرقة قد يفنى أحدها الآخر قبل خروجنا اليهم. وربما كان لنا منهم عون عليهم .. أليس اليمن مع الكرمانى ومضر مع ابن سيار والخوارج على الاثنين ؟ سأريك مصير هؤلاء جميعا .. » ثم رفع نظره وهو يتكلم على سواد قادم من عرض الأفق وغبار متصاعد ، فتفرس فيه واستبشر .. فابتدره خالد قائلا : « أظن أن جماعة من شيعتنا قادمون لنصرتنا .. »

فلم يجبه أبو مسلم ، وظل متفرسا هنيهة ، ثم قال : « لا أرى أعلاما سوداء .. ولذلك لا أظن ان القادمين من أنصارنا » ولبثا هنيهة أخرى فانكشف الغبار عن قبة على فيل أبيض كبير ، وحول القبة بضعة فرسان يسير فى ركابهم جماعة من العبيد ، ووراء الفيل جمال عليها أحمال الآنية والفرش وغيرها . فاستغربا ذلك ، وزادت دهشتهما حين رأيا الركب متجها نحوهما .. فجعلا ينظران اليه لعلهما يتبينان شيئا من أمره ، فاذا بتلك القبة مصنوعة من الديباج الأحمر وقد تدلت أستارها حتى لايظهر شىء مما فى داخلها ، وحول عنق الفيل وعلى جبهته وفى مقدم صدره عقود وأوسمة مرصعة بحجارة كريمة مختلفة الألوان تتلألأ بنور الشمس ، وقد كسى ظهره وجوانبه بالديباج الأصفر الزاهى .. ويقود الفيل رجل طويل القامة عليه عباءة وعمامة ما لبث أبومسلم أن عرفه حين رآه .. وهو الضحاك ، فتذكر حكاية جلنار وخطبتها الى ابن الكرمانى ، وماكان من حديثه فى أمرها ، فأجفل لأول وهلة لأنه ظنها قد زفّت اليه .. فاذا بالضحاك قد عهد بمقود الفيل الى عبد كان بجانبه وأسرع نحو أبى مسلم متأدبا ، حتى اذا وقف بين يديه حياه تحية الأمراء وهمّ بتقبيل يده فمنعه أبو مسلم وابتدره قائلا : « ما شأنك ؟ »

فضحك الرجل وقال بصوت ضعيف : « لا تخف .. ليست مزفوفة اليك ، ثم رفع صوته وقال : « أليس هذا معسكر ابن

الكرمانى ؟ !.. »

فصاح فيه خالد : « قبحك الله ، ألا ترى الأعلام السوداء ؟ »

فتظاهر الضحاك بالدهشة ، وقال : « لقد أخطأنا الطريق ، أظن ان معسكر الكرمانى ذاك ! » وأشار بيده اليه ، ثم تشاغل بحك قفاه ، وظل واقفا مطرقا ..

فقال خالد : « نعم .. »

وأدرك أبو مسلم مما بينه وبين الضحاك فى شأن جلنار انه لم يأت اليه الا لغرض ، فمشى وتبعه الضحاك وظل خالد فى مكانه ، فلما انفردا قال الضحاك : « ان هذه المسكينة مزفوفة الى ابن الكرمانى رغم ارادتها وقد أوصتنى أن أحتال لها فى الدنو من معسكرك لكى تراك لأن قلبهـا .. » وتنحنح ثم قال : « واذا أرسلت نظرك الى القبـة رأيتها تنظر اليك من خلال الستائر خلسة ، فانظر اليها من باب العلم بالشىء .. » وضحك

فرفع أبو مسلم نظره الى القبة ، وكانت قد صارت على نحو خمسين خطوة منه ، فرأى وجها مطلا من خلال الستائر ، اذا شبهناه بالقمر ظلمناه لأن القمر صحيفة لاماء فيها ولا حياة ، ولو كان لأبى مسلم قلب يهوى ما استخف بعواطف تلك الفتـاة المستهامة . ولكنه خلق من عقل ودهاء وطمع وكبرياء ، وابتعد قلبه عن محبة النساء . ولا نظن ان قلبه قد عرف نوعا من أنواع المحبة وانما هو قلب يهوى العلى ، ويهون سفك الدماء ، ولا

يتحكم فى نفسه الا عقله من حيث الدهاء ، التماسا لما يتوقعه من الظفر القريب

أما تلك الفتاة المفتونة فقد خلقت بقلب كبير ، ولم تتحرك عواطفها قبل أن تعرف أبا مسلم . والحب كله رجاء ، والمحب واسع الأمل ، وقد زادها الضحاك أملا بما نقله اليها من حب أبى مسلم فاستسهلت كل صعب فى سبيل مرضاته ، فقبلت أمر أبيها ورضيت بالزفاف الى ابن الكرمانى تقربا من معسكر حبيبها وعملا بارادته . وأوصت الضحاك أن يحتال فى الوقوف هناك ليعلم أبو مسلم انها جاءت الى الكرمانى صورة ، وان قلبها مع أبى مسلم . فلما رأته ينظر الى قبتها اختلج قلبها فى صدرها وتوهمت انها رأت أبا مسلم يبتسم لها ويحييها ، فدمعت عيناها وأرخت الستائر وتحولت الى الداخل ، وريحانة معها .. ولم يخف عليها شىء من أمرها

أما الضحاك فانه أحنى رأسه بين يدى أبى مسلم وقال : « ثق بعبدك وكن على يقين بأنى سأخدمك بما يسرك »

— ٢٧ —

سياسة التقسيم

ثم حياه وتحول وهو يقول بصوت عال : « فنحن اذن قد

أخطأنا الطريق الى معسكر الكرمانى .. هلم بنا ياقوم الى تلك الأعلام اليمنية فان الكرمانى هناك .. »

ولما وصل الى الفيل تناول المقود وأشار الى أحد العبيد ، فانطلق مسرعا يعدو نحو معسكر الكرمانى كى يخبرهم بقدوم العروس ليستقبلوها ، وكان الكرمانى قد كتب الكتاب فى منزل الدهقان قبل ذلك اليوم ، ودفع المهر ، وأبرم الاتفاق ..

أما خالد فانه ترك أبا مسلم يخاطب الضحاك وانصرف نحو المعسكر ، فرأى رجلا مسرعا نحوه وهو يقول : « أين الأمير؟ »

فقال : « وما الخبر ؟ »

فأشار بيده نحو مرو وقال : « ان الحرب قد نشبت بين الكرمانى ونصر .. »

فالتفت خالد الى مرو فرأى الفرسان قد خرجت من المدينة ومعها أعلام بنى أمية ، وخرج اليهم رجال الكرمانى بأعلامهم وقد تطايرت النبال واشتبك القتال . وكان أبو مسلم قد أقبل نحو خالد ، ورأى مثل ما رأى خالد ففرح وصاح : « لقد حانت ساعة العمل .. »

فقال خالد : « هل نستعد للهجوم أيها الأمير ؟ »

قال : « احذر أن تفعل ، انما شأننا اليوم الصبر لنرى عاقبة هذا القتال »

قال : « ألا نغتنم فرصة انشغال نصر بالحرب ونهجم على المدينة ؟ »

قال : « اذا هجمنا لا نأمن أن يتحد العدوان علينا ، ولكن نصبر الى الغد » . قال ذلك ومضى الى منزل سليمان بن كثير فرأى النقباء قد اجتمعوا هناك وهم يسألون عن أبى مسلم وكلهم يرون رأى خالد بالهجوم . فلما أقبل أبو مسلم عليهم استشاروه فقبح رأيهم وأمرهم بالانتظار .. فسكتوا وأطاعوا

فلما غربت الشمس تراجع الجيشان وأمسكا عن القتال ، ورجع كل منهما الى مكانه والنقباء يرون أن أبا مسلم قد أخطأ لتقاعده عن اغتنام تلك الفرصة وهو لايقول شيئا . فلمـــا أمسى المساء طلب الخلوة بخالد وسليمان ، وأمر سائر الرقباء أن يبيتوا على حذر

فلما خلا بخالد وسليمان ، هم أن يكاشفهم بما فى ضميره ، فسمعوا طارقا يطرق الباب ففتحوا له واذا بفارس ومعه رجل موثق بعمامته والفارس يقول : « قد قبضنا على هذا الرجل مارا فى معسكرنا وليس هو منا » فحالما رآه أبو مسلم بنور المصباح عرفه فصاح به : « الضحاك ؟ »

قال : « نعم يامولاى »

فأشار الى الفارس فتركه وانصرف ، ودخل الضحاك فحلوا وثاقه وسأله عن أمره فقال : « هل أتكلم أم تأذن لى بخلوة ؟ »

فأدرك انه يريد الخلوة فأشار الى خالد وسليمان فذهبا الى غرفة أخرى ، وجلس أبو مسلم على وسادة وأمره أن يجلس وقال : « قل .. ما وراءك ؟ »

فجلس الضحاك جاثيا متأدبا وقال : « اسمح لى — يامولاى — أن أثنى على ارجائك الهجوم الليلة ، وكنت خائفا أن تأمر جندك بالهجوم »

قال : « لا تخف .. ثم ماذا ؟ »

قال : « هل أتقدم برأى أبديه ؟ »

قال : « قل .. بارك الله فيك .. ما أسرع ما اطلعت على الخفايا »

قال وهو لايضحك : «قد رأيت يامولاى أمرا هالنى ، وخشيت عاقبته على رجالك »

قال أبو مسلم : « وما هو ؟ »

قال : « وصلنا بالعروس الى فسطاط الكرمانى ، فاذا هو قد ركب لمحاربة نصر بن سيار صاحب مرو وابنه على معه ، اعنى العريس المبارك (وضحك) فأنزلنا العروس فى خبائها بين عبيدها وجواريها ، وخرجت لاستطلاع الأحوال فرأيت جند الكرمانى كبيرا وكلهم من رجال اليمن الأشداء وفيهم العدة والنجدة ، وربما زادوا على خمسة أضعاف رجالك ، ولما خرج رجال نصر لقتاله رأيتهم أيضا كثيرين ، فخفت أن يغرك ذلك فتخرج برجالك

للحرب وأنا لا أضمن لك الفوز ؛ لعلمي ان الجندين وان تباينت عصبيتهما بين اليمن ومضر فانهم جميعا من العرب .. فاذا رأوا الخراسانيين يحاربونهم اتحدوا عليهم .. »

قال ابو مسلم : « صحيح .. ايه .. قل »

قال : « فرأيت ان خير ما تفعله الآن أن تمكن البغضاء بين هذين الجيشين »

فاستغرب ابو مسلم قوله ، وأعجب بسداد رأيه لأن هذا هو الرأى الذى كان قد عزم عليه وقال : « ذلك هو الرأى الصواب يارجل ، وهو الذى عزمت عليه .. ولكن ما هو الطريق الى القاء الفتنة الليلة حتى تتم لنا الحيلة فى صباح الغد ؟ »

قال : « أتستشيرنى يامولاى ؟ »

قال : « لابأس من المشورة فانها آمن عاقبة ، فاذا لم يعجبنى رأيك رجعت الى رأيى »

فأخذ الضحاك يحك جانب رأسه باحدى يديه ، ويده الأخرى على عمامته يسندها لئلا تقع ، ثم ضحك وقال : « أكرم بك ياضحاك .. ان الأمير يستشيرك » ثم عاد الى هيأة الجد وقال : « الرأى ياسيدى أن تكتب كتابا تجعل عنوانه الى شيبان الحرورى صاحب الجند الآخر المعسكر وراء الكرمانى وتقول فى خطابك الى شيبان المذكور ما معناه : « ان قبائل اليمن لا وفاء لهم . ولاخير فيهم ، فلا تثقن بهم .. فانى أرجو أن يمكنك الله

منهم ، واذا بقيت فلن أدع لأهل اليمن شعرا ولا ظفرا » أو نحو ذلك مما يدل على انك تكره اليمنيــة ولا ترجو خيرا منهم ، وترسل هذا الكتاب مع رسول تأمره أن يجعل طريقه الى معسكر شيبان من جهة معسكر المضرية أصحاب نصر بن سيــار . فهم طبعا سيشككون فى أمره ، ويقبضون عليه ، ويأخذون الكتاب منه. فيفتحونه ويطلعون عليه فيقوم فى نفوسهم انك معهم قلبا وقالبا فيميلون اليك وتقوى نفوسهم على اليمنية . واكتب كتابا آخر الى شيبان أيضا على نفس هــذه الطريقة .. ولكنك تطعن فيه المضرية ، وتقول عنهم مثل الذى قلته عن اليمنية بذلك الكتاب ، وترسل هذا الكتاب مع رسول يجعل طريقه من جهة معسكر الكرمانى وهم يمنية ، فيشكون فى أمر الرسول ويطلعون على الكتاب فيرون انك معهم على المضرية وتقوى نفوسهم بك (١) فاذا نشب القتال فى الغد وأردت النزول كان الفريقان معك ..»

وضحك ضحكة طويلة فلم يتمالك أبو مســلم عن مجــاراته فى الضحك ولو قليلا ، وقد انبسطت نفســه بذلك الدهاء وقال : « ان لك لشــأنا يارجل ، وما أنت ضحاك كما تتظاهر .. انى فاعل كما أشرت الساعة » ثم نهض ليأمر الكاتب بذلك . فتعلق الضحاك بذيله وقال : « وأنا .. ماذا أعمل ؟ »

قال أبو مسلم : « تأخذ هدية جزاء صدق خدمتك .. »

---

(١) ابن الاثير ج ٥

قال : « هدية ؟.. انى لا ألتمس على خدمتى أجرا .. ومع ذلك فانى لم أفعل شيئا أستحق عليه أجرا ، ولعلى أستطيع ذلك بعد الآن .. انى منصرف الساعة الى مولاتى الدهقانة ، وسأبلغها سلامك وامتنانك ليس لأنك تحبها .. ولكن لأن ذلك يسرها ويخفف ألمها من رؤية عريسها الأعور .. ! »

قال أبو مسلم : « ومن تعنى ؟ »

قال : « أعنى عليا بن الكرمانى فانه نصف أعمى فضلا عن غرابة شكله ، وهو مع ذلك زوجها بعقد مكتوب ومهر مدفوع وسترى كم ينفعنا هذا العقد .. أنا منصرف الآن بأمرك وسآتيك بالأخبار عند الحاجة »

ثم وقف فقبّل يد أبى مسلم .. وخرج مهرولا

- ٢٨ -

الحرب

أما أبو مسلم فصفق فجاءه خالد وسليمان ، وأمر بالكاتب فجاء ، فأخبرهم بما عزم عليه من المخابرة على الكيفية التى تقدم بيانها ، وأملى على الكاتب فكتب كتابين الى شيبان الخارجى وسلمهما الى رسولين من أصحاب الخبرة البارعين فى الجاسوسية ، وأمر أحدهما أن يمر بمعسكر نصر بن سيار والآخر بمعسكر

الكرماني.. ومتى قرىء الكتابان يرجعان بهما اليه، ولا يوصلانهما الى شيبان .. فسار الرسولان ، وفعلا كما أمر ...

فلما اطلع الكرماني على أحد الكتابين وفيه ما فيه من نقمة أبي مسلم على قبائل مضر توهم أن أبا مسلم معه على المضرية . ولما اطلع نصر بن سيار على الكتاب الآخر ، توهم أن أبامسلم معه على اليمنية فقويت نفس كل منهما على قتال صاحبه . وكان أبو مسلم في أثناء اقامته هناك قد كتب الى الكور باظهار الأمر فسوّد « لبس السواد » جماعة كبيرة في نسارابيورد . ومرو الروذ ، وكثير من قرى مرو ، وأقبلوا اليه تباعا ..

وفي صباح الغد عاد الجيشان الى الحرب بقلوب قوية وهواهما مع أبي مسلم ، ولاتمام الحيلة كتب أبومسلم الى كل من نصر بن سيار والكرماني كتابا خاصا يقول فيه : « ان الامام ابراهيم (صاحب الدعوة) قد أوصاني بك وبرجالك خيرا ولست أعدو رأيه فيكم » فازداد الفريقان رغبة فيه ورهبة منه ، وزادت نقمة كل منهما على صاحبه . فلما احتدم القتال ركب أبو مسلم بمن معه من النقباء والأتباع وأقبل على المتحاربين فلم يتعرض لهم أحد بسوء ، فنزل بمن معه بين خندق الكرماني وخندق نصر بن سيار وهابه الفريقان ، ورأى بدهائه أن يشجع الكرماني حتى يعرضه للخطر فبعث اليه: « اني معك » فقبل الكرماني ذلك بسرور فانضم أبو مسلم اليه فعلا فاشتد الكرماني به

فلما رأى نصر ذلك أدرك حيلة أبى مسلم فبعث الى الكرمانى يقول : « ويحك لا تغتر .. فوالله انى لخائف عليك وعلى أصحابك منه ، فادخل مرو ونكتب كتابا بيننا بالصلح » وكان غرض نصر أيضا أن يفرّق بين الكرمانى وبين أبى مسلم ..

فلما سمع الكرمانى كلامه رجع الى صوابه ، وخشى أن يكون نصر مصيبا .. فدخل الكرمانى فسطاطه وظل أبو مسلم فى المعسكر

ثم خرج الكرمانى حتى وقف فى الرحبة بين المعسكرين فى مائة فارس وعليه قرطق — وهو قباء ذو طاق واحد — وأرسل الى نصر يقول : « اخرج لنكتب بيننا ذلك الكتاب »

فلما رآه أبومسلم يقول ذلك ، خشى أن يخفق مسعاه .. وكان أبومسلم واقفا على جواده ، وعليه درع كاملة تغطى جسمه وبعض الجواد ، وهو لايبالى بتساقط النبال عليه .. فانها كانت ترتد عنه خائبة . وبينما هو فى تلك الحيرة أبصر رجلا ملثما طويل القامة يتقدم بسرعة الجواد الجموح نحو معسكر نصر ، وهو يتقى السهام بكفيه ، فعرف من حركته وزيّه انه الضحاك .. وما لبث أن رآه تغلغل فى ذلك المعسكر . ثم رأى كوكبة من الفرسان خرجت من معسكر نصر وفى مقدمتها فارس يصيح بأعلى صوته : « أنا الرجل الموتور ، أنا ابن الحرث بن سريج ، جئتك ياكرمانى يا ابن الفاعلة ، انت قتلت أبى وأنا أقتلك .. » . قال ذلك وانقض

انقضاض الصاعقة والتقت الكوكبتان ، واشتبكا .. واشتد ازر المضرية ، ثم رأوا فارسا خرج من مرو يحرض المضرية ويسوق فرسه أمامهم ، وقد جلله الشيب.. ولكن الشيخوخة لم تغيّر شيئا من نشاطه وحميته . ولما ساق جواده لعبت الريح بلحيته وهى بيضاء عريضة ملء صدره وصاح فى رجاله يستحثهم ، فعلم أبو مسلم انه نصر بن سيار فقال فى نفسه : « لو ظهر فى بنى أمية مثل هذا الرجل قبل أن يتمكن الفساد فيهم ، لما كان سقوطهم وشيكا.. ولكنه لن يستطيع أمرا » . وهجم مع نصر كوكبة من الفرسان فتغلبوا على الكرمانى ، ووجهوا اليه طعنة .. فخرّ عن دابته ، فأتموا قتله ، وأمر نصر بحمل الجثة وصلبها ، فصلبوه ومعه سمكة!

فلما رأى أبومسلم مصرع الكرمانى ، تظاهر بالأسف ، وتوقع فشل اليمنية ، واذا بعلى بن الكرمانى قد هجم يطالب بثأر أبيه .. فهجم أبو مسلم معه ونادى رجاله فهجموا جميعا على نصر ورجاله فأرجعوهم عن مواقفهم ، ثم تراجع الجيشان

رجع أبو مسلم من المعركة وقد سرّه مقتل الكرمانى ، وأخذ فى أثناء رجوعه يعمل فكرته فى تدبير الحيلة لمقتل ابنه على ، ولكنه رأى أن يستعين به على نصر أولا ثم يقتله ويقتل شيبان الخارجى ، فوصل معسكره .. واجتمع اليه النقباء فنظر اليهم وهو يقول : « ألم يكن رأينا صوابا ؟ قتلنا الكرمانى ولم نسفك نقطة من دماء رجالنا .. والرأى فوق شجاعة الشجعان .. »

فأعجبوا بدهائه ، وعظم ايمانهم بفوزه فى سياسته .. فازدادوا تفانيا فى طاعته وقالوا : « مر بما تشاء فانك صاحب الرأى النافذ والقول الفصل » واشتغلوا فى مهامهم

– ٢٩ –

العروس فى بيت حميها

أما جلنار فقد تركناها فى القبة ذاهبة الى معسكر الكرمانى ، وقبل وصولها جاءها وفد من رجال الكرمانى استقبلوها وأنزلوها فى خباء خاص نصبوه فى مؤخر المعسكر ، وأنزلوا فيه أحمال الآنية والفرش وأدخلوا جلنار غرفة من غرفه ليس فيها من النساء سواها ، ومعها بعض الجوارى وريحانة .. وقد زادت تعلقا بها فى هذه الغربة وأصبحت لا تصبر على فراقها لحظة . وكانت ريحانة أكثر تعلقا بها للسبب نفسه وأحست بأنها مسئولة عنها وحدها ؛ وقد علمت بما يهددها من الأخطار الجسام .. فوطنت النفس على بذل كل ما فى وسعها لراحتها وسلامتها

فلما وصلت جلنار الى الخباء ، سبقتها الجوارى الى تهيئة ما يلزم من أسباب الراحة ، واشتغل الضحاك فى انزال الأحمال ومعه العبيد والخدم.. ثم جاءت ريحانة الى جلنار، فأدخلتها غرفتها وأخذت تنزع ما عليها من ثياب السفر وتلبسها ثوب البيت ، وهى صامتة لا تتكلم ، ثم لاحت منها التفاتة الى جلنار فرأت عينيها

تدمع ، فانقبضت نفسها وابتدرتها قائلة : « ما الذى يبكيك يامولاتى ؟ » ولم تكد تلفظ هذه العبارة حتى اختنق صوتها وغصت بريقها فاكتفت جلنار بما شاهدته من ريحانة ولم تجبها ، فتشاغلت ريحانة بتصفيف شعر سيدتها وتجلدت وأعادت السؤال وهى تحذر أن يختنق صوتها وقالت : « ما بالك يامولاتى لا تجيبين عن سؤالى ؟ »

فالتفتت جلنار الى ريحانة ، والدمع يتلألأ فى عينيها ، وقالت بالفارسية : « أتسألينني عن السبب وأنت أعلم به منى ؟ أين نحن الآن ؟ كيف خرجت من دار أبى وقد كنت فيها فى حصن حصين ، وجئت الى دار الحرب والنبال تتساقط على فسطاطى .. ثم انى لا أعرف الى من أنا صائرة »

فأحبت ريحانة أن تخفف عنها ، فقالت وهى تتظاهر بالابتسام : « انت صائرة الى الأمير على بن الكرمانى ، وكل هذا المعسكر رهن اشارتك .. »

قالت : « وأين هو على هذا ..؟ انى لم أره ولو رأيته ماعرفته سامحك الله يا أبتاه لقد فرطت فىَّ .. بل اللوم علىَّ ..كيف أسلم نفسى لرجل لا أعرفه ولم أره .. وقد وصلت الى منزله ولم أجده .. »

فقالت ريحانة : « خففى عنك يامولاتى ، انه لايلبث أن يأتى فقد اتفق وصولنا ساعة خروج الأمير الكرمانى لملاقاة جند مرو

فى حرب ، ولا شك ان عليا ابنه معه .. وسترينه عائدا وقد تلطخ صدر جواده بدم الأعداء وفى وجهه عز النصر . وهو عز لك . ان فى ذلك لذة لم تتعوديها .. فاذا ذقتها مرة ، فانك لن تنسى لذتها .. ان لذة النصر عظيمة يامولاتى »

فذعرت جلنار عند سماعها كلمة الحرب ، وقالت بالفارسيه أيضا : « هو فى حرب ؟.. ألم تقولوا لى انه صاحب مرو وله الأمر والنهى ، وبيده الحل والعقد ..؟ »

قالت : « قد كان كذلك على ما علمنا ، فالظاهر انه خرج منها ولكنه لا يلبث أن يفتحها كما فتحها قبلا .. »

فصاحت وقد نسيت موقفها : « لايهمنى فتحها أم لم يفتحها، انى لا أريده ؛ اخرجونى من هذا المكان .. يا ريحانه اخرجينى الى حيث شئت .. »

فضحكت ريحانة فى وجهها تخفيفا لغيظها ، وأظهرت الاستخفاف بخوفها ، وكانت قد فرغت من تمشيطها وتبديل ثيابها وألبستها فى ذلك اليوم ثوبا عنابى اللون وتمنطقت عليه بمنطقة مرصعة ، ولفت كتفيها بمطرف من الخز الموشى مبطن بالفرو الثمين ، وقد احمر وجهها من أثر السفر وتوردت وجنتاها وتكسرت عيناها من البكاء ، وغشيهما ذبول القلق ، وتجلى فى جبينها وبين عينيها هيبة الانقباض ، وأحدق بفمها معنى يعبر عنه بالخوف أو الحذر . واسترسل شعرها ضفيرة واحدة على ظهرها

وقد تلألأ القرطان فى أذنيها ، وكل منهما جوهرة واحدة تضىء فى الظلام .. فضلا عما فى عنقها من العقود الثمينة ، وما يحيط بمعصميها من الدمالج والأساور . فأصبحت ملاكا فى صورة انسان . وكانت ريحانة لا ترتوى من النظر اليها . فلما فرغت من الباسها دعتها الى الجلوس ، فجلست وهى تقول : « وأين الضحاك ياترى ؟ »

قالت : « لايلبث أن يأتينا فقد تركته يهتم بالأحمال ونحوها ، وصفقت فدخل خادم كان فى جملة الخدم خارجا فقالت له : « أين الضحاك ؟ »

قال : « كان حول الخباء ، ثم ذهب .. لا أدرى الى أين .. »

فأجفلت جلنار من قوله ونظرت الى ريحانة كأنها تستطلع رأيها فى أمره فقالت ريحانة : « هلم بنا نطل من باب الخباء لنرى منظر هذا المعسكر ، لعلنا نرى الضحاك .. »

فنهضت ومشت على اثر ريحانة حتى أطلتا من باب الخباء واذا بسهم سقط بين يديهما عند الباب فذعرت جلنار وتراجعت ، ولم تذعر ريحانة لأنها كثيرا ما شهدت مثل هذه المعارك فضلا عن اضطرارها للتظاهر بالجلد تشجيعا لمولاتها فقالت وهى تضحك : « ما الذى أجفلك يامولاتى ؟ »

قالت وهى ترتعد خوفا : « يظهر انهم يحاربون على مقربة منا .. بالله ما هذا ؟ .. ما الذى جاء بى الى هذا المكان ؟.. كيف

رضيت بالمجيء ؟.. آه يا أبا مسلم .. » وكأنها نطقت باسمه سهوا ، فخجلت وتشاغلت بمسح دموعها بمنديل كان فى منطقتها

وكانت ريحانة أعلم منها بعظم المصيبة ، ولكنها لم يسعها الا التخفيف عنها .. وشعرت انها أساءت اليها اذ لم تمنعها من المجيء فقالت : « الحرب بعيدة عنا .. اخرجى وانظرى الى المعركة فانها وراء هذا المعسكر بينه وبين المدينة .. وأما هذا السهم فقد أفلت وابتعد صدفة .. اخرجى » . قالت ذلك وأمسكت بيدها وأخرجتها من الخباء رغم ارادتها ، فأطلت على المعركة عن بعد فرأت الفرسان تجول والنبال تتطاير والسيوف تبرق فى أيدى الفرسان وبعضهم يحمل التروس ، وبعضهم يشرعون الرماح ، وأكثر القتال بين الفرسان . ولذلك قلما كانوا يترامون بالنبال لأن النبالة أكثرهم من المشاة . فلم تستطع جلنار الصبر على ذلك المنظر فدخلت ، ودخلت ريحانة فى أثرها وهما صامتتان ؛ وقد شغل خاطرهما لأنهما لم يشاهدا الضحاك .. حتى اذا دنا المغيب وهى الساعة التى تنقبض فيها النفوس بلا سبب ، زاد انقباض جلنار وتصورت قرب مجىء زوجها الذى لم تره عيناها ولا أحبه قلبها ولا ترجو أن يحبه لانشغاله بسواه . فأمسكت ريحانة بيدها فأحست هذه بارتعاشها ، فقالت : « مابالك ترتعدين يامولاتى ؟ »

قالت : « انى أرتعد لقرب الساعة التى سألقى فيها ابن الكرمانى أو كما تسمونه .. بالله كيف أقابله ؟ .. أحقيقة هو زوجى ؟ ..

كلا .. الموت أحب الىّ من قربه .. » ثم قبضت على يد ريحانة بيديها جميعا وصاحت : « لا أعرف سبيلا لنجاتى الا بك .. »

قالت : « لا بأس عليك ياسيدتى .. أنا أدبر كل شيء ؛ ومن يوم الى يوم يأتى الله بالفرج .. وانما أتوسل اليك أن تتجلدى بين يديه ولا تظهرى نفورك منه .. وقد يكون لا بأس به ..كيف تبغضينه قبل أن تنظرى اليه ؟ »

فنظرت اليها جلنار بطرف عينيها ولسان حالها يقول : « ألا تعلمين ما يكنه قلبى من حب أبى مسلم ؟ »

فأدركت ريحانة مرادها وتبسمت وهى تقول : « كونى على يقين من انك ستنالين بغيتك ؛ ولكن بالصبر والحزم »

— ٣٠ —

العريس

ثم سمعنا صهيل الخيل وضوضاء الناس ، فأجفلتا معا .. ولكن ريحانة تشجعت وقالت : « يظهر ان الفرسان قد رجعوا من المعركة » ثم خرجت حتى أطلت من باب الخباء وعادت وهى تقول : « لقد أتى الأمير على فرسه وهو مخضب بالدماء كما قلت لك ، وسيأتى اليك فلا تجزعى »

فقالت : « والضحاك لم يأت بعد ..؟ أين هو ..؟ لقد تركنا فى ساعة الحاجة اليه .. »

قالت : « لا تلومى الغائب حتى يحضر .. ! »

ثم جاء بعض الخدم من رجال الكرماني يحملون الشموع مغروسة فى أعواد نصبوها فى جوانب الخباء فأضاء المكان وجلنار لا تستطيع الوقوف من شدة التأثر ، فجلست وقد اصطكت ركبتاها واذا هى بالضوضاء تقترب من الخباء ثم سمعت رجلا يتكلم قرب الباب بصوت عال يقول : « أين خباء عروسنا الدهقانة ..؟ »

فلما سمعت جلنار صوته تحققت انه عريسها، فارتعدت فرائصها وازداد اضطرابها ، فتشاغلت بطرفها تلف به منكبيها ويداها ترتعشان وقد بردتا . فخرجت ريحانة لاستقباله بالباب وقالت : « أهلا بالأمير الجليل .. ان مولاى الدهقان يوصيك بابنته خيرا، ويقول لك انه قد عهد اليك بفلذة كبده فكن رفيقا بها »

فقال : « لقد أوصى حريصا ، ان الدهقانة تنزل عندنا فى أرفع منزلة وأعز مكان » ومشى نحو الغرفة وهو يقول : « وأين هى ..؟ »

فقالت : « هى جالسة فى حجرتها وقد أنهكها التعب على أثر السفر فى أثناء النهار »

فأدرك مرادها وقال : « انى انما أطلب راحتها ، ولكننى أحببت لقاءها والترحيب بها » ودخل وقد تنسم رائحة الطيب

وكانت جلنار جالسة وقد سمعت قوله ، فسكن روعها وأطرقت

وهى ترقب دخوله بجوارحها . فلما دخل حجرتها وأقبل عليها ورأى جمالها أخذت بمجامع قلبه ولكنه هابها وقال : « مرحبا بعروسنا .. لقد أتيت أهلا ونزلت سهلا ؛ وأرجو أن يكون مقامك عندنا أمتع من مقامك فى بيت أبيك »

فرفعت جلنار بصرها اليه لترى وجهه والحياء يغالبها ، فرأت شابا فى نحو الثلاثين من عمره ، قصير القامة ، عريض المنكبين وقد توشح بعباءة من الحرير ، وتقلد السيف وغرس الخنجر فى منطقته وعلى رأسه عمامة حمراء ، وكان مستدير الوجه واللحية ، دقيق الشاربين وقد ذهبت احدى عينيه . فلما دنا منها جلس على البساط أمامها ووضع السيف على حجره وقال : « لابأس عليك يا جلنار ، أرجو أن يذهب عنك تعب السفر الليلة ، وأن يكون مجيئك فأل خير على هذا المعسكر . فقد وصلت والحرب قائمة بيننا وبين صاحب مرو ؛ وعدنا من هذه المعركة ظافرين بعون الله ، فعسى أن يأتينا الفتح على يديك وببركة مجيئك »

وكانت جلنار مطرقة حياء وتلعثما ، لا تدرى بماذا تجيب .. وفتح على ريحانة برأى توسمت من ورائه فرجا فأجابت عنها قائلة: « ذلك ما نرجوه أيها الأمير البطل ؛ فقد قدمنا ونحن نتوقع أن يكون مقامنا فى مدينة مرو .. فعسى ألا تطول اقامتنا فى هذا المعسكر .. »

فتحمس على وقال : « لو تقدم مجيئكم يسيرا لنزلتم توا فى

مرو ، وقد كانت فى قبضتنا فخرجت من أيدينا منذ أيام .. لكنها ستعود الينا باذن الله »

فأدركت جلنـــار غرض ريحانة من ذلك التعريض ، فقـــالت والحيـــاء يغالب منطقها : « فكان مجيئنا شؤما عليـكم .. فكيف تتوقعون أن يكون بركة ، ولو كان كذلك لما كان نزولنا فى غير دار الامارة فى مرو .. »

قال : « عفوا أيتها الدهقانة .. ان مجيئك بركة وفأل حسن . وأنا على يقين من ذلك .. وسترين صدق قولى »

قالت : « أنت صادق .. ولكنا علمنا شؤم مجيئنا من النبال التى رأيناها تتساقط حولنا منذ أنيخت المطايا بنا »

فازداد علىّ حماسة وأريحية .. وهان عليه كل صعب فى سبيل رضاها ، وقال : « انك ستبيتين غدا فى دار الامارة باذن الله »
قال ذلك ارضـــاء لخاطرها ، ولم يدر انه قيد نفسه بوعد دون الوصول اليه خرط القتاد . فلم تغفل ريحانة عن اغتنام تلك الهفوة ، فنظرت الى مولاتها وهى تظهر الاعجاب بأريحية على وقالت : « ان الأمير يامولاتى قد قال ـــ وقوله عهـــد ـــ انك لا تبيتين غدا الا فى دار الامارة .. »

فقال على وقد أخذ الهيـــام منه مأخذا عظيمـــا واستسهل الصعب : « نعم .. لا تبيتين الا فى دار الامارة » ثم أدرك تسرعه فأراد أن يوسع على نفسه فقال : « وأعاهدك على الأقل

انى لا أتمتع بهذا الوجه الجميل الا فى تلك الدار »

فأطرقت جلنـــار حياء ، وتشاغلت بالعبث بأهـــداب المطرف وسكتت . فأجابت ريحانة عنها قائلة : « بورك فيك من شهم حر .. والحر اذا عاهد وفى »

فنهض وقد ثارت النخوة فى رأسه وقال : « أستودعك الله ، وسترين بلائى غدا ، فاذهبى الآن الى فراشك واستريحى » ثم خرج وهو يجر سيفه وراءه

فلما توارى ، نظرت ريحانة الى سيدتها وهى تبتسم ، وقالت لها بالفارسية : « ما قولك فى هذا العهد ؟ »

قالت جلنار : « لا بأس به .. ولكننى أخشى أن يتمكن من دخول مرو غدا ... »

قالت ريحانة : « لا أظنه يستطيع .. واذا تمكن من ذلك ، كان جديرا بك .. اذ لا يكون لأبى مسلم حينئذ شأن »

فقطعت كلامها وقالت : « لا تقولى ذلك ، ان أبا مسلم وهو مكبل بالأغلال أحب الىّ من سواه ، ولو كان يتربع على عرش كسرى »

فتأثرت ريحانة من تعلقها بأبى مسلم الى هذا الحد وقالت : « دعى ذلك الى تدبير العزيز الحكيم .. وان غدا لناظره قريب ، ولكن غياب الضحاك قد شغل خاطرى وهو انما جاء معنا ليكون فى خدمتك .. قومى الآن لتناول الطعام ، ثم ننظر ماذا يكون »

- ٣١ -

الضحاك

فنهضنا الى حجرة الطعام فى ذلك الخباء .. وكانت الجوارى قد أعددن الطعام ، فجلسنا لتناوله .. واذا بأحد الخدم قد دخل مهرولا وهو يقول : « ان الضحاك بالباب »

فانبسطت نفس جلنار وزهدت الطعام لرغبتها فى مقابلة الضحاك ، ولم تكن ريحانة أقل منها رغبة فى ذلك لكى تطلعه على ما وفقنا اليه تلك الليلة .. فقالت للخادم : « ادخله الى الحجرة الوسطى . واحمل اليه الطعام وقل له : ان الدهقانة قادمة اليه عاجلا »

وأسرعنا فى الأكل ثم نهضنا الى تلك الحجرة ، فوجدنا الضحاك قد فرغ من طعامه وجلس فى انتظارهما ، فوقف لهما .. فلما شاهدته جلنار انشرح صدرها وأحست بحمل ثقيل ينزاح عن كاهلها ثم صاحت فيه : « أين كنت يارجل ؟ »

فتأدب فى موقفه ويداه فى منطقته وعمامته مائلة على رأسه ، وقد نبش شعر لحيته وشاربه حتى تغيرت سحنته .. فلم تتمالك جلنار عن الضحك ، فأجابها بضحكة طويلة .. فأشارت اليه أن يجلس ، وجلست ، وأجلست ريحانة بجانبها .. فجثا الضحاك

على ركبتيه وقال : « لقد أذنبت بخروجى بلا استئذان ولكن العفو أقرب للتقوى »

فقالت ريحانة : « كيف تتركنا وحدنا وقد أوصاك الدهقان برعاية مولاتنا وألا تفارقها ؟ »

قال : « نعم .. أخطأت بمخالفتى وصــية مولاى الدهقان ، ولكننى أصبت بمجاراة مولاتى الدهقانة » قال ذلك وأطرق فى حيــــاء

فقالت : « دعنا من مجونك .. وقل أين كنت ؟ »

قال : « اذا كنت لم تفهمى كلامى ، فمولاتى الدهقــانة قد فهمته » ونظر الى جلنار وقال : « ايه ؟.. »

فقالت جلناز : « لعلك ذهبت الى أبى مسلم ؟ »

فقهقه ثم قطع ضحكته بغتة وقال لريحانة : « أرأيت الفرق بين من يفهم ومن لا يفهم ؟ نعم يامولاتى قد ذهبت اليه .. »

فتطاولت جلنار بعنقها نحوه وقالت : « وماذا فعلت ؟ »

قال : « غدا تعلمين ماذا فعلت »

فقالت ريحانة : « قل الآن .. فنقول لك ماذا فعلنا نحن »

قال : « أنا أقول لك ماذا فعلت يا ذكيــة .. قد عاهدت صاحبنا ألا يتزوج الا فى دار الامارة »

فبغتت جلنار لاطلاعه على ذلك ، والتفتت الى ريحانة لتشاركها فى الدهشة .. فالتفت الضحاك الى ريحانة وقال : « وهل من

الغريب أن أعرف شيئا أنا فعلته ؟.. »

فقالت ريحانة : « وكيف ذلك ؟ ونحن انما جررناه الى هـذا الوعد خطوة خطوة »

قال : « أنا وضعت الأساس، وقد فكرت فى الأمر قبل خروجنا من بيت سيدى الدهقان ، فلما وصلنا كان قصارى همى ألا ألاقى العريس . فتركتكم وذهبت الى جانب المعركة حتى إذا عاد الأمير على منها ، بشرته بمجىء العروس .. ثم ألقيت اليه كلاما أعددت به ذهنه الى ذلك العهد .. »

فأعجبتنا بتيقظه وذكائه .. وقالت ريحانة : « ثم الى أين ذهبت ؟ »

قال : « ذهبت الى العريس الآخر » ورفع بصره الى سقف الخباء ، وتظاهر بأنه يتفرس فيما نقش عليه من الرسوم والأشكال الملونة ، ولم يضحك . ثم أرسل بصره الى جدران الحجرة فابتدرته ريحانة قائلة : « وما الذى فعلته هناك ؟ »

قال : « غدا تعرفينه »

فقالت : « أقسمت عليك ــ وكرامة مولاتنا ــ أن تفصح وتترك المجون »

فتظاهر بالجد ، ووجه خطابا الى جلنار قائلا : « بحثت مع أبى مسلم فى الطريق المؤدى الى بقائه وحده فى هذا الميدان »

فقالت جلنار : « وكيف ذلك ؟.. قل »

فقصّ عليها ما دار بينه وبين أبى مسلم مختصرا الى أن قال « والحق يقال ان هذا الخراسانى ذكى عاقل .. وبخاصة لأنه شهد لى بالذكاء ! » وضحك ..

فقالت ريحانة : « ان ذكاءك معروف لنا »

قال : « أراك تمدحيننى .. كأنك تطمعين فى ، وقد قلت لك انى نذرت العفة ، ولست أفكر فى الزواج ! »

فقطعت جلنار كلامه ، وقالت : «اكفف عن ريحانة ولاتعبث بها»

قال وهو يحك ذقنه : « كأنك تظنينها تكره ذلك ... ولكننى عملا بأمرك قد عفوت عنها ، لأننى أراها تحبك »

فضحكت جلنار وقد انبسطت نفسها وخف ما بها ، فلما رأت ريحانة سرور سيدتها شاركتها فيه .. وشعرت بمقدار فضل الضحاك فى كل ذلك ، وقالت فى نفسها : « لابد لهذا الرجل المهذار من شأن وان أمره لعجيب »

ثم التفتت ريحانة الى سيدتها وقالت : « ألا تذهبين الى الفراش يامولاتى ؟ »

قالت : « نذهب .. » ووقفت

فوقف الضحاك وقال : « وأنا ذاهب وربما لا أنام الليلة ، فاذا طلبتمانى فى ساعة ولم تجدانى فلا تحسبانى فررت »

قالت جلنار : « افعل ما بدا لك ، اننا لا ننسى لك جميلا تبذله فى سبيل راحتنا .. واذا وفقنا الى ما نريد كان لك

ما ترضاه .. انصرف اذا شئت »

فخرج الى المبيت فى فسطاط الأعوان والحاشية ، وكان الكرمانى وابنه قد استأنسا به حين لاقاهما فى غروب ذلك اليوم وآنسا فيه خفة الروح وطيبة الخلق ، وخاصة على بن الكرمانى فانه ارتاح الى رؤيته واطمأنت نفسه اليه

ولم تنقض تلك الليلة حتى علم أن رسول أبى مسلم مرّ بذلك المعسكر وقبضوا عليه ، ورأى الكرمانى فى فسطاطه يتلو كتاب أبى مسلم ومعه ابناه على وعثمان .. وكانا لايفارقان مجلسه وهما عمدته فى حروبه ، وكان عثمان أصغر من على . فلما تحقق الضحاك من نجاح تدبيره ذهب للنوم مع الخدم والأعوان .. ولم يخاطبه أحد منهم الا استخف روحه واستلطفه

فلما التحم الجيشان فى صباح الغد ، وقف الضحاك يرصد حركاتهما .. فلما رأى الكرمانى قد قبل مصالحة نصر بن سيار ، أسرع الى معسكر نصر ملثما واستحث ابن الحرث أن يثأر لأبيه فجاء وقتل الكرمانى كما تقدم

- ٣٢ -

أبو مسلم فى خلوته

تركنا أبا مسلم فى معسكره فرحا بما أوتيه من نجاح حيلته

بالكرماني . فلما تفرق عنه النقباء الى خيامهم بعد العشاء ظل هو في غرفته وحده يعمل فكرته في اتمام مشروعه للتفريق بين تلك الجيوش المحيطة بمرو . وكان اذا خلا الى نفسه ربض كالأسد وأخذ في تدبير الأمور بدهاء ، يندر مثاله بين الناس .. فاذا ملّ الجلوس وقف وتمشى ذهابا وايابا كأنه نمر كاسر حبس في قفص من حديد ، وقد جاع وفريسته على مقربة منه ، وهو يتحفز للوثوب عليها . ولو نظرت الى أبي مسلم في تلك الساعة لرأيته عابسا يكاد يزمجر غضبا ، ويخيل لك انه لو أراد الابتسام لعصته غضون وجهه . ولو أمكنك الاطلاع على ما في نفسه تلك الليلة لرأيته يخوض بأفكاره في بحور من الدم ، فيقضي على هذا بالقتل وذاك بالأسر.. لا يبالي اذا حال أحد دون غرضه أن يقتله ، ولو كان أخاه أو أباه . وكان وهو يتنقل في تدابيره يرى شبح الضحاك نصب عينيه ، ويتوقع أن يراه قادما اليه بحيلة يظنها الضحاك فتحا جديدا وهي عند أبي مسلم قديمة . وأبو مسلم يظهر اعجابه بفطنته تشجيعا له على خدمة أخرى ، والضحاك يتوهم انه يخفي حقيقة مساعيه عن أبي مسلم ،وما علم أن هذا الخراساني يقرأ كل ما يجول في خاطره ويدرك ما سيأتي به اليه أو يشير به عليه وانه انما يظهر له استحسانه واعجابه دهاء ومكرا ، ولا يسايره الا على شك ، وقد أضمر سوء الظن به لأن الناس أعداء بعضهم لبعض .. كل منهم يترصد من صاحبه غفلة يغتاله ، وبخاصة في

ذلك العصر ، وقد اختلفت العناصر وتباينت المقاصد وصدرت وصية الامام ابراهيم بالقتل لمجرد الشك .

وبينما كان أبومسلم غارقا فى عالم الخيال ، وهو يتمشى وبيده قضيب يلاعبه بين أنامله ، اذ جاءه الحارس قائلا : « ان بالباب رجلا يطلب مقابلتك » فأدرك أنه الضحاك .. فأذن له فدخل ، وقد تنكر بقلنسوة من قلانس الفرس فوقها عمامة صغيرة كأنه من كهنة المجوس . فلما أقبل عليه رحب به وبش له تخفيفا لرعبه ، ولكن الضحاك قرأ فى احمرار عينيه وتغضن جبينه ما دله على أهمية الأمر الذى يفكر فيه ، فوقف متأدبا فخاطبه أبو مسلم قائلا : « أهلا بصديقنا الضحاك »

فأعظم الضحاك هذا التنازل من أبى مسلم وبالغ فى التأدب فى موقفه وقال : « انى لا أستحق هذا الاكرام يامولاى ، وانما أنا عبدك وأبتغى رضاك »

قال أبومسلم : « ومتى كان العربى يستعبد للفارسى ؟ »

فوجم الضحاك لحظة ثم قال : « ان المسلمين اخوة وانما يفضلون بالتقوى والجهاد .. وقد ذهبت الدولة التى تحسب أن للعرب مزيدا على غير العرب ، وكانت عصبيتهم للعرب سببا فى ذهاب سلطانهم . وكيف لا أكون عبدا لبطل خراسان صاحب دعوة الامام »

فضحك أبو مسلم وهو يجلس ، ثم أشار الى الضحاك فجلس .

جاثيا على ركبتيه ، وقد أطرق وسكت .. فابتدره أبومسلم قائلا: « ما وراءك يا ضحاك ؟ »

قال الضحاك : « ما ورائى الا الخير .. وقد جئتك مهنئا بما أوتيت من الفوز الباهر ، واننى على استعداد لتلقى الأوامر .. لعلّى أنفذ لك أمرا »

قال :« انما نحن مدينون بهذا الفوز لتدبيرك وسعيك ..واذا تم لنا النصر جعلناك فى منصب يليق بأمثالك »

قال الضحاك : « لا ألتمس الا رضا مولاى الأمير .. فمرنى بما تشاء »

قال : « قل ما الذى تراه الآن ..؟ لقد أعجبنى سداد رأيك بالأمس » فأطرق الضحاك هنيهة كأنه يعمل فكرته ، ثم قال : « ألا ترى ،بعد أن قتل الكرمانى ، أن تتخلص من ابنه فيخلو لك الجو ..؟ »

قال : « وشيبان ؟ »

فضحك الضحاك وهو يقول : « شيبان ؟.. وما شأن هــذا الخارجى أمام سطوتك ؟.. انه ليس ممن يحتسب لهم حساب ..»

قال : « كيف لا وهو صاحب جند وعصبية مثل الكرمانى »

قال الضحاك : « اذا قتلت ابن الكرمانى .. فعلىّ تدبير أمر شيبان »

وكان أبو مسلم فى أثناء حديثه ينظر الى قلنسوة الضحاك

وفى نفسه أن يعلم ما تحتها ، وقد لحظ من وراء حافتها أن رأس الضحاك حليق فأومأ بالقضيب الى القلنسوة وقال : « ومن أتاك بهذه القلنسوة ؟ » وأظهر انه غمزها بالقضيب سهوا فسقطت فبان رأسه حليقا .. فوثب الضحاك ، وقد بغت ، وتظاهر بالمجون وبادر الى القلنسوة فأعادها الى رأسه حالا وهو يقول : « وقد انتظمت فى سلك المجوسية من عهد قريب »

فتجاهل أبو مسلم ما استطلعه من حلق رأسه ، وتضاحك وقال : « ان الكهانة خليقة بالفرس ،وليس بالعرب »

فأصلح الضحاك قلنسوته ، وقد امتقع لونه من تلك المفاجأة ، ولكنه صدق أن أبا مسلم انما فعل ذلك سهوا فقال : «ان الرجل نغيّر زيّه فى سبيل تحقيق هدفه .. ولو لم ألبسها ما استطعت الوصول الى خيمتك »

فتظاهر أبومسلم بتصديقه وقال : « انك لتعجبنى بجدك وهزلك فلنعد الى الجد .. قل لى اذا أردنا التخلص من ابن الكرمانى فما الحيلة ؟ »

قال : « ان قتل هذا الرجل هيّن وصعب فى نفس الوقت .. »

قال أبو مسلم : « وما معنى ذلك ؟ »

فقال الضحاك : « اذا أطعتنى فيما أشير به ، كان قتله وقتل كل من فى معسكره أهون من قطع الخيط »

قال أبو مسلم : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « ألا تذكر يامولاى جلستنا فى منزل دهقان مرو اذ قلت لك ان اظهارك الرضا لهذه الفتاة المفتونة ، سيكون عونا لك فى تنفيذ مأربك ؟ »

فأدرك أبومسلم غرضه ، ولكنه تجاهل ، وقال : « نعم أذكر ذلك ، ولكننى لم أفهم مرادك .. »

قال : « ذلك شرط هيّن .. ترسل الى هذه الفتاة علامة تؤكد لها رضاك عنها ، وان قتل ابن الكرمانى يرضيك ، وأنا أتمّم الباقى »

قال أبو مسلم : « أتظنها تساعدنا على قتله ؟ »

قال : « نعم ياسيدى ، أنا أضمن ذلك .. على شرط .. »

قال أبو مسلم : « وما هو الشرط ؟ »

قال : « ذلك شرط هيّن .. ترسل الى هذه الفتاة علامة تؤكد لها رضاك عنها وان قتل ابن الكرمانى يرضيك وأنا أتمّم الباقى »

قال : « وما هى العلامة التى تعنيها ؟ »

قال الضحاك : «علامة تعرف انها منك »

فنظر أبو مسلم الى الضحاك نظرة كشف بها أسرار قلبه ، كما يكشف أصحاب أشعة « رونتجن » ما وراء الجوامد وقال : لا أظنها تقنع منك بغير خاتمى »

قال : « تلك خير علامة نحقق بها ما نهدف اليه »

فأطرق أبو مسلم كأنه يتردد فى عزمه ثم قال : « أتعلم أهمية

هذا الأمر ؟ أتعلم أنى اذا دفعت اليك خاتمى أكون قد سلمت اليك أمرى ؟ »

قال : « أعلم ذلك يامولاى .. ولو علمت أن الأمر يقضى بدونه لفعلته »

فأخرج أبو مسلم الخاتم من أصبعه ودفعه اليه وهو يقول : « هـــذا هو .. خذه وامض مسرعا ، وعد الىّ به الليلة .. فانى لا أبيت بدونه »

فوقف الضحاك اجلالا ، وتناول الخاتم وقبّله ، ووضعه على رأسه وهو يقول : « ربما لا أستطيع لقاء الدهقانة الليلة فآتيك فى الصباح ومعى الخاتم باذن الله »

قال : « سر فى حراسة الله .. »

ثم استأنف الكلام قائلا : « انتظر هنا ريثما أعود اليك » . قال ذلك وخرج من باب سرى فى تلك الغرفه ، وظل الضحاك واقفا وقلبه يفيض سرورا لما توهمه من نجاح أمره .. وأصـــاخ بسمعه لعله يشعر بحركة أو يسمع صوتا يستدل به على شىء ، فلم يسمع شيئا . ثم عاد أبو مسلم وهو يقول : « سر يا ضحاك واذا وفقت فى خدمتنا كافأناك .. ولكن (وخفض صوته) متى استوثقت من موافقة الفتاة لك ، دعها لا تتعجل الأمر بل تنتظر منا اشارة أخرى .. فهمت ؟ »

قال : « سمعا وطاعة » وخرج واحتذى نعله فى الخارج ومضى

– ٣٣ –

ترقب وانتظار

أما ما كان من أمر جلنار ، فانها أصبحت فى ذلك اليوم وقد تهيأ الجيشان للنزال ، وهى تخاف أن ينتصر الكرمانى فاذا انتصر تعرقلت مساعيها وخابت آمالها فوقفت مع ماشطتها بحيث ترى المعركة عن بعد .. فرأت ضعف جند الكرمانى ، ثم رأته عاد الى معسكره ثم رجع وكاد ينتصر فخافت ، وأخيرا علمت بما كان من قتله كما تقدم فى وصف المعركة ، ثم شاهدت ضعف عسكره وهجوم ابنه على واتحاده مع أبى مسلم فاستغربت ذلك ، ولم تستطع تفسيره .. فعادت الى خبائها مع ريحانة وقد انقبضت نفسها ، وقالت لها بالفارسية : « ما الذى أراه ياريحانة ؟.. أليس أبو مسلم ينصر صاحبنا ؟ »

قالت : « لا يغرك ما تشاهدينه .. انها حيلة من أبى مسلم ، ومتى جاء الضحاك يفسر لنا كل ذلك »

فدخلتا الخباء وهما صامتتان لاتدريان كيف تفسران ماشاهدتاه ولكنهما صبرتا ريثما يأتى الضحاك . فلما غربت الشمس ولم يأت انقبضت نفس جلنار ، ولم تستطع طعاما ولا شرابا ، وريحانة تخفف عنها وتمنيها بالمواعيد .. ثم سمعتا قرقعة اللجم وصهيل الأفراس بباب الخباء ، فأجفلتا وعلمتا أن عليا قادم برجاله.. فمكثتا

صامتتين ، واذا بباب الخباء قد انفتح ودخل على وثيابه ملطخة بالدماء ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما ، فخافت جلنار من منظره ، ولم تعلم بماذا تخاطبه فى تلك الحال وقد قتل أبوه ، فرأت أن تتجاهل فلبثت صامتة . أما ريحانة فتجلدت واستقبلت عليا ، وقالت : « أحسن الله عزاء الأمير .. ان من يقتل فى ساحة الوغى ويخلّف مثلك لم يمت لأنك آخذ بثأره »

فأعجبه قولها وقد سرّى عنه ، والتفت الى جلنار وقال : « لنا ببقاء عروسنا الدهقانة أكبر عزاء .. أما والدى فسوف نأخذ بثأره من أولئك الأنذال. وماهى الا أن تطلع الشمس ونعود الى القتال فلا تغرب الا ونحن فى دار الامارة باذن الله » قال ذلك وهو يصلح خوذته على رأسه ، وأشار الى جلنار أن تجلس وهو يحاول الابتسام رغم ماجاش فى صدره من الأسف على قتل والده . وكأنه تسلى عن ذلك برؤية جلنار لأنه أحبها كثيرا والحب خير ما يسرّى عن الانسان ، وهو أيضا أصل متاعبه .. فلولا الحب لم تكبر النفوس ولا اتسعت المطامع ، واذا كبرت نفس المرء فانما يؤثر البقاء من أجل محبوبه . ولو تدبرت أحوال الناس لرأيت الحب محور معاملاتهم وسبب ملذاتهم ومتاعبهم

والانسان اذا تجرد من الحب رأى الحياة من العبث ، فتصغر نفسه وتنحصر مطامعه فى الطعام والشراب ، فيشارك الحيوان فى الاقتصار على لوازم الحياة .. فاذا ملأ جوفه أخلد الى الخمول ،

ولا يتحرك حتى تنهضه لواعج الحب ، فيطلب العلى ، ويرى الحياة ثمينة فيتحمل المشاق فى سبيل البقاء .. والحب ريحانة النفس ومهذبها ، ورافعها من حضيض الحيوانية الى أعلى مراتب السمو. ولكنه لا تتمكن عراه الا اذا تألفت القلوب وتوافقت لغاتها وتم التفاهم فيما بينها ، وقد تتفاهم فى لحظة بلا لسان ولا بيان . فتنفتح للمحبين أبواب النعيم والشقاء معا .. واذا لم تتفاهم القلوب بلسانها عجزت الألسنة وخابت المساعى فى سبيل تآلفها ؛ فلا لذة هناك ولا شقاء . وينفرد بالشقاء دون اللذة محب تقيد قلبه وظل قلب حبيبه مطلقا ، قلبه يتكلم وقلب حبيبه أصم مثل حال ابن الكرمانى لو علم بنفور جلنار منه وتعلقها بسواه ، وانما أخر شقاءه جهله بما فى ضميرها واعتقاده بأن الحب متبادل بينهما. ولو سمع مثل تلك التعزية من فمها لذهب حزنه ونسى مصيبته . على انه حمل سكوت جلنار عن الحديث معه محمل الحياء فعذرها واكتفى بما سمعه من ريحانة

أما جلنار فلم يسعها عند سماع ما قاله على عنها الا أن تجيبه قائلة : « ان العزاء ببقاء مولاى الأمير حفظه المولى وأعانه على الأخذ بالثأر »

فلما سمع قولها ، انشرح صدره ، وقال : « انى سأثأر لأبى بما يسرك » ثم صفق فجاءت قيّمة الخباء فأمرها أن تحسن رعاية الدهقانة ، وتلبى مطالبها فى كل ما تحتاج اليه .. ثم تحوّل وخرج

للاهتمام بأمر الجند ، والاستعداد للحرب فى الغد

فلما خرج ظلت الدهقانة صامتة ، وقد تحرك خاطرها شفقة على ذلك الشاب لما تضمره له من الشر ، ثم خشيت أن يميل قلبها اليه فتمثلت صورة أبى مسلم فى ذهنها ، فهاجت عواطفها وذهب رسم علىّ من ذهنها .. ولم تتمالك عند انفرادها بريحانة ، أن قالت بالفارسية : « متى يأتى الضحاك لنسأله عما شاهدناه فى هـذا النهار ؟.. »

قالت ريحانة : « لا يلبث أن يأتى وقد أوصانا بالأمس ألا نستبطئه اذا غاب »

قالت : « ان لهذا الرجل لشأنا .. فقد جاء ليكون فى خدمتى وأراه يقضى معظم وقته خارجا »

فقالت ريحانة : « اذا غاب يامولاتى ، فانما يغيب فى خدمتك أيضا .. هكذا فعل بالأمس ، فلا تلومى الغائب حتى يحضر .. »

فقطعت جلنار كلامها قائلة : « انى والحق يقال لم أر مثل اخلاص هذا العربى فى خدمتنا ، والغريب انه عربى ولم يستنكف أن يكون من موالينا »

فقالت ريحانة : « ان العرب ليسوا الآن كما كانوا من قبل فقد انحلت عصبيتهم ، وانقسموا فيما بينهم ودالت دولتهم . ألا تذهبين الى المائدة ؟ »

فنهضت جلنار ومشت وهى تقول : « نذهب الى المائدة نتلهى

بالطعام ريثما يعود ذلك المهذار .. »

فمشت ريحانة فى أثرها وهى تتمتم قائلة : « لا أظنه مهذارا »

تناولتا الطعام وقضتا برهة تتشاغلان بالأحاديث ، وكلما سمعتا وقع أقدام تظنان أن الضحاك قادم ، حتى طال انتظارهما وغلب عليهما النعاس .. فذهبت جلنار الى الفراش وتوسدت ، وظلت ريحانة جالسة بين يديها والنعاس يغالبها والقلق ينبهها .. فانقضى هزيع من الليل ونام أهل المعسكر وساد السكوت ، وسكت القصاصون والقراء ولم يأت الضحاك ، ثم غلب النعاس على جلنار فنامت .. وظلت ريحانة جالسة ، وعيناها مغمضتان من مقاومة النعاس وقد ثقلت أجفانها وتطأطأ رأسها رغم ارادتها ، ونامت نوما متعبا وهى منتبهة الحواس ، اذا سمعت خربشة استيقظت مذعورة لشدة قلقها على غياب الضحاك

— ٣٤ —

أمر شاق

وفى احدى غمضاتها توهمت انها تسمع ضحكة الضحاك فذعرت وفتحت عينيها ، فاذا هو واقف بازاء عمود الخباء وكأنهما عمودان .. فهمّت بأن تصيح فيه ولكنها فطنت لنوم سيدتها ، فخشيت أن توقظها وترعبها ، فاقتربت منه وقالت بصوت منخفض:

« سامحك الله على هذا الغياب »

فمشى وهو يشير اليها بيديه أن تتبعه ، فتبعته حتى خرجا من تلك الغرفة الى غرفة أخرى ليس فيها نور .. وكانت تبطىء فى مشيتها ، فأمسكها من يدها وشدّها وهو يقول : « لا تخافى .. لابأس عليك »

قالت : « دعنى أحمل اليك السراج لأرى وجهك وأسمع حديثك معا »

فضحك وقال وقد ترك يدها : « ما أشد شوقك لرؤية هذا الوجه .. حسنا ، هاتى السراج »

فعادت وهى تمشى على أطراف أصابعها حتى حملت السراج من غرفة جلنار وجاءت به الى تلك الحجرة ، فثبتته بجانب العمود ، وجلست . فجلس الضحاك وكان قد أبدل القلنسوة بالعمامة التى يعرفه بها أهل ذلك المعسكر .. فابتدرته قائلة : « لقد طال غيابك الليلة ، ونحن فى قلق .. ومولاتى الدهقانة نامت منقبضة النفس على أثر ما رأته من نصرة أبى مسلم لجند الكرمانى .. »

فقطع الضحاك كلامها وقال : « ألم يقتل الكرمانى ؟ تلك هى نتيجة تأييده له .. واذا طالت مساعدته لهذا البيت ، أجهز على أهله واحدا بعد واحد »

فلم تفهم ريحانة ما قاله ، فقالت : « بالله لا تكلمنى بالألغاز ، أفصح .. »

قال : « قبحك الله ما أقل فهمك .. الى متى أفهمك وأنت لا تفهمين .. ان هذا الخراسانى ما تقرب من قوم الا أبادهم فى سبيل مصلحته .. لقد أظهر انه نصير للكرمانى حتى يستعين به على صاحب مرو .. ولم يكن قصده أن يقتل بسرعة ، ولكن الأقدار عجلت به .. »

قالت : « ان مولاتنا الدهقانة فى قلق شديد بسبب غيابك بعد ما علمته من مقتل الكرمانى . فهل أوقظها لسماع حديثك ؟ »

قال : « سأوقظها بعد قليل ، وانما أريد أن أبوح اليك بأمر أرجو أن تساعدينى عليه خدمة لمولاتنا »

فقالت : « ماذا تريد ؟ »

قال : « ان مقتل الكرمانى انما كان بمسعاى أنا توطئة لمقتل ابنه ، كى يرضى علينا أبو مسلم فتنال مولاتنا ما تتمناه .. »

قالت : « انت سعيت فى قتل الكرمانى ؟ لله ما أقدرك .. والآن تريد أن نقتل ابنه ، وكيف تستطيع ذلك ؟ »

فضحك وقال : « لا أستطيع ذلك الا بمساعدتك .. »

فبغتت وقالت : « لعلى من أهل السيف ؟ »

قال : « ان القتل لايكون بكثرة الجند يا ريحانة وانما ينال الانسان ما يريد بالدهاء والصبر . وأنا الآن آت من عند أبى

مسلم . وقد وعدته بقتل ابن الكرمانى لأنه أصبح يتوقع ذلك منا منذ لقيته للمرة الأولى وخاطبته بشأن مولاتنا الدهقانة .. اذ أخبرته بأنها ستكون عونا له فى نجاح مهمته . وليس ثمة ما يسهل عليه تلك المهمة أكثر من قتل آل الكرمانى لينفرد هو بالقوة ويتغلب على من بقى من جنود العرب .. ولا يتم له ذلك الا بهذه الطريقة .. »

فأجفلت ريحانة لذلك الطلب ؛ وسكتت ولم تحر جوابا ..

فلما رآها ساكتة وقف وقال : « دعينى أذهب الى مولاتى جلنار فانها أعلم منك بأهمية هذا الطلب »

فوقفت وهى تقول : « لا أظن أن الدهقانة توافق على قتل رجل يتفانى فى حبها الى حد العبادة بلا ذنب اقترفه نحوها ، ولا هى تعودت القتل.. امكث هنا ريثما أوقظها ، ثم أدعوك» وتركته ومضت ثم عادت ونادته فتبعها والسراج بيدها حتى دخلت غرفة جلنار . وكانت قد جلست فى الفراش والتفت بالمطرف فدخلت ريحانة وكانت قد أخبرتها بمجيء الضحاك ، فلما دخلت سألتها عنه فنادته ، فدخل ووقف متأدبا .. فأمرته بالجلوس فجلس على طنفسة صغيرة عليهـا رسوم فارسية ملونة وجعل ركبتيه تحته وهى جلسة التأدب عندهم

- ٣٥ -

الرفض !

فلما استتب به المقام ، خاطبته جلنار قائلة : « لقد شغلت بالنا بغيابك وأنت تعلم أن والدى انما أذن بمجيئك لتكون معى لأنى لم أزل أعتبر نفسى غريبة بين هؤلاء القوم ، وأنت منذ أتينا الى هذا المعسكر لم تمكث الا قليلا ، ونحن دائما على أحر من الجمر فى انتظارك » فأطرق الضحاك ولم يجب فاستأنفت جلنار الكلام وكأنها استدركت موقفها ، فقالت : « لا أنكر أنك لا تغيب الا فى مهمة تهمنى ، وانك من أشد الناس غيرة علىّ وسعيا فى راحتى . ولكنك أقلقتنى فى هذا المساء حتى كادت تزهق روحى »

فابتسم الضحاك ابتسامة اعتذار ، وأجاب بسكون ورزانة واحترام : « يسوءنى يامولاتى أن أسبب لك تعبا أو قلقا ؛ ولكنى أقسم برأس مولاى الدهقان انى انما غبت فى سبيل خدمتك ، ومتى عرفت من أين أنا آت الآن عذرتنى .. »

قالت : « من أين ؟ »

فالتفت الى ريحانة ، كأنه يستشهدها فيما قاله لها فى هذا الشأن ، وقال : « قصصت بعض حديثى على ريحانة فى أثناء نومك ولا بأس من الاعادة .. أتيت الآن من معسكر الخراسانيين

بعد مداولتى مع الأمير أبى مسلم »

فلما سمعت الاسم بدا الاحمرار فى وجهها وظهرت علامات الحب فى عينيها وغلب عليها الحياء ، فأطرقت وهى تبدى عدم الاهتمام . ثم قالت : « وما الذى حدث ؟ »

قال : « لم يحدث شىء بعد .. وأخشى ألا يحدث شىء ، فيذهب سعينا هباء »

قالت وقد أوجست من ذلك القول : « ما الذى تخشاه ؟.. »

قال وهو يخفض صوته : « أخاف أن ينقلب سعينا علينا .. فنحن انما ركبنا هذا المركب الخشن وحملنا دهقانة مرو الى خيمة هذا الرجل وحمّلناها ما حملناها من المشقة ، وعرضناها للخطر على شرط الوصول الى ما تبتغيه من قائد جند الخراسانيين ؛ وقد تنسست من كلام ريحانة الآن أن الأمر سيصير الى غير المراد »

فالتفتت الى ريحانة ، وفى عينيها امارات الاستفهام ، فأجابتها بنظرة الاستغراب ؛ فقال الضحاك : « لا تستغربى يامولاتى ، فانى أفصح لك عن مرادى بعبارة وجيزة .. قد رأيت اليوم ما كان من تأييد أبى مسلم لابن الكرمانى ، ولا أظنك تجهلين معنى ذلك التأييد .. فأبو مسلم لم ينصر عدوه هذا الا احتيالا ، حتى يتمكن من الفوز عليه فى شيئين مهمين : الأول أنت وهو الأهم عنده ، والثانى فتح مرو . ولا يغرنك ما يبديه ابن الكرمانى من مسايرة أبى مسلم ، فهو انما يسايره ريثما يحقق غرضه فيتزوج

الدهقانة ويفتح مرو .. وكل منهما لاينال غرضه الا بقتل صاحبه لينفرد بالغنيمتين . فالكرمانى يدبر الوسائل لقتل أبى مسلم ، وهذا يدبرها لقتل ابن الكرمانى ؛ وترجيح الفوز لأحد المتنافسين راجع الى رأيك .. »

فاستغربت جلنار هذا التفصيل ، وأدركت بعض ما يهدف اليه الضحاك ، وأشكل عليها البعض الآخر فقالت : « وما أثر رأيى فى ذلك ؟.. »

فقال وهو يبالغ فى خفض صوته ؛ وجلنار تطاول بعنقها نحوه : « ان ابن الكرمانى يترقب غفـلة من أبى مسلم ليغتاله .. ولا ندرى متى يتأتى له ذلك ؛ وقد أراد أبو مسلم أن يسبقه الى اغتنام تلك الغفلة منه فيقتله ؛ وريحانة تأبى ذلك .. فأرجو ألا يكون رأيك من رأيها »

فقالت : « هل ترضى ريحانة بفوز ابن الكرمانى ؟ لا أظن »

قال : « لم تقل ذلك صريحا ؛ ولكننى ذكرت لها طريقة تسهل قتل هذا الرجل وتجمعك بأبى مسلم ؛ فعرقلت مساعىّ »

فقطعت ريحانة كلامه ، ووجهت خطـابها الى جلنار قائلة : « ليس الأمر كذلك يامولاتى .. ولكنه جاءنى برأى لا أظنـك ترضين به .. »

فابتدرها الضحاك قائلا : « ألا ترضى مولاتنا بقتل هذا الرجل وفوزها بأبى مسلم ؟ »

قالت ريحانة : « ولكنك تريد أن يكون قتله على يدها ..! »

فلما سمعت جلنار قولها بدا الارتباك فى وجهها ، ونظرت الى الضحاك فرأته يصعد كتفيه ويقلّب شفتيه ولسان حاله يقول : « ذلك لايعنينى »

فقالت جلنار: « أحقيقة أنت تعنى ذلك ؟.. أتعنى أن أقتل هذا الرجل ؟.. وكيف أقتله ؟.. وهو لم يسىء الىّ بشىء »

قال : « تفعلين كما تشائين .. كأنك ألفت الاقامة هنا ونسيت وعدك »

قالت : « لم أنس وعدى ولا أريد تغيير عزمى ، وأنت تعلم ذلك »

فمد يده الى جيبه ، وأخرج الخاتم ودفعه اليها . وقال : « وهل تعرفين صاحب هذا الخاتم ؟ »

فتناولته وقرأت ما عليه بقرب السراج ؛ فاذا عليه اسم أبى مسلم . فاختلج قلبها فى صدرها وهاجت عواطفها وتنسمت منه رائحة حبيبها ، ونظرت الى الضحاك وقالت : « هذا خاتمه .. ما الذى جاء به اليك ؟ »

قال : « لم أسرقه .. ولكن صاحبه دفعه الىّ دليلا على صدق رسالتى فهل تصدقين ما أقوله ؟ »

قالت : « وهل كذبتك فى شىء قبل الآن ؟ »

قال : « كلا .. »

قالت : « وما الذى بعثك به الى ؟ »

قال : « قصصت عليك غرضه ، وخلاصة ذلك اننا ان لم نقتل صاحب هذه الخيمة فهو يقتل صاحب هذا الخاتم . فان أحدهما سيقتل الآخر لا محالة ، فاذا لم نعمل على قتل هذا فكأننا سعينا فى قتل ذاك ، ولا سبيل الى ذلك الا بك ، فاختارى أحد الوجهين »

فأدركت جلنار غرضه فأعظمت الطلب .. ولكنها أعظمت أن تعرض حبيبها للخطر وهى تعتقد انه يحبها ، وفى قتله ذهاب كل آمالها ، فلبثت حائرة ساكتة ، واستولى السكوت على تلك الجلسة السرية لحظة ، وكل من الحضور مطرق يفكر . ثم فتحت جلنار الكلام قائلة : « قد أوقعتنى فى حيرة لا أعرف كيف أنجو منها .. أما القتل فلا طاقة لى به ، ولكننى أبذل جهدى فى منع الأذى عن ذاك »

فضحك الرجل وقال : « تمنعين الأذى ؟.. اذن افعلى ما بدا لك فأنا غير مسئول عن تبعة ما يحدث من عاقبة هذا التردد »

فخشيت تهديده وازدادت حيرة ، وعادت الى السكوت ، فقال الضحاك : « كيف تمنعين الأذى وأنت محبوسة فى هذه الخيمة ولا يمكن خروجك منها الا بقتل صاحبها ، واذا لم نعجل بقتله سبقنا هو الى قتل صاحبنا وتندم حين لاينفعنا الندم . ومع ذلك فأنت

صاحبة الشأن ، ونحن طوع أمرك.. فان الخسارة انما تعود عليك، فافعلى ما تشائين .. »

فقالت : « أقتله بيدى ؟ بالله كيف أستطيع ذلك ؟.. تبصّر فى الأمر يا ضحاك واجعل نفسك فى موضعى فما الذى تفعله ؟..»

قال : « أنا ؟ لو كنت فى مكانك لقضيت هذا الأمر بجرعة ماء ، أو لقمة طعام .. »

فأطرقت هنيهة ثم قالت : « لا .. لا أقدر على ذلك .. ولكننى أبذل جهدى فى منع الأذى عن .. واذا استطعت المساعدة فى .. » وسكتت ثم قالت : « دعنى أتدبر هذه المسألة وأرى ما يُفتح علىّ به »

فنهض الضحاك ، وقد اعتزم أن يقنع جلنار فى جلسة أخرى ، وقال لها : « ارجعى لى هذا الخاتم لأرده الى صاحبه .. وأنا على يقين انك ستوافقين على رأيى .. »

فقالت : « وهل ترده اليه الليلة ؟ »

قال : « لابد من ذلك .. ولم يعطنى اياه الا على هذا الشرط »

فتثاقلت جلنار فى دفع الخاتم اليه لأنها استأنست به وتنسمت منه ريح حبيبها ، ثم انتبهت لتثاقلها والضحاك واقف فى انتظارها فدفعته اليه رغم ارادتها ، فتناوله وخرج وترك الدهقانة وماشطتها فى بحور من الهواجس

- ٣٦ -

كشف المعمى

أما هو فسار مسرعا حتى خرج من المعسكر ؛ وقد ذهب نصف الليل وأطل القمر من وراء الجبال عن بعد . فانفرد الضحاك فى مكان ، نزع فيه جبته ؛ وغيّر قيافته ؛ وحلّ عمامته ، ثم تعمم تعميما خاصا ومشط لحيته وشد منطقته فى وسطه ؛ وأصلح من شأنه حتى ذهبت عنه هيئة المجون ، واتجه نحو معسكر شيبان الخارجى

وكان معسكر الخوارج وراء معسكر الكرمانى فى منبسط من الأرض . والخوارج كما لايخفى يذهبون الى نزع السلطة من كل مسلم ويرون ان الحكم لله وحده .. يقولون ذلك ويطلبون السلطة لأنفسهم ؛ فغرضهم مثل أغراض سائر طلاب الخلافة فى ذلك العهد ، ولو اختلفت الأسباب . وكان زعيمهم شيبان قد جاء برجاله وحاصروا مرو قبل مجيء أبى مسلم ــ كما تقدم ــ وجاء الكرمانى فتنازعا على مرو

وكان نصر بن سيار صاحب مرو من أهل الدهاء والحزم ، فكان اذا خاف أحد العدوين استعان عليه بالعدو الآخر فلم يستطع أحد منهما أن يتغلب عليه

وكان الضحاك من أمراء الخوارج شديد التمسك بمذهبهم فلما تحقق من امتناع مرو على أصحابه .. وبلغه سعى الكرمانى فى زواج ابنه من ابنة دهقان مرو منذ أشهر ، رأى أن يحتال فى قتل الكرمانى غيلة ، وخطر له أن يتنكر ويدخل فى خدمة ذلك الدهقان ؛ ويحبب نفسه الى الدهقانة حتى تستأنس به ، ويكون فى جملة من يحمل معها من الخدم والعبيد الى بيت زوجها ، فيتقرب من الكرمانى ويغتنم غفلته واطمئنانه ويقتله ، فيشتد ازر الخوارج وينفردوا بمحاربة مرو فيتم لهم النصر . فاحتال حتى بيع للدهقان فى جملة مماليك بيعوا له ، وبذل جهده بالتقرب من الدهقانة بواسطة ريحانة بما كان يبديه من المجون ونحوه ، حتى وثقت الدهقانة به كل الثقة ، وصارت تعهد بأسرارها اليه .. وكان يحرض ريحانة على تحبيب ابن الكرمانى الى سيدتها

وبينما هو يسعى فى ذلك جاء أبو مسلم الى الدهقان ونزل عنده ، فاطلع الضحاك على مقاصده وعرف قوته .. فأعمل فكرته فى تدبير الحيلة ، ثم كلفته ريحانة مخابرة أبى مسلم بشأن زواجها به كما تقدم ، فرأى أن يستعين بأبى مسلم على قتل الكرمانى وابنه بواسطة جلنار .. فشجعه على الافادة منها ؛ ونقل اليها خبر رضاه بها من عند نفسه. وأراد أن يستخدم الدهقانة لقتل الكرمانى وابنه وغيرهما اذا اقتضت الحال . ثم يتمكن من قتل أبى مسلم اذا ساعدته الأحوال ، والا فيكتفى بقتل ابن الكرمانى فيبقى

اليمنية بلا أمير فيحضهم على الاتحاد مع شيبان لأنهم من العرب ، وهم بالطبع يفضلون العرب على الخراسانيين فينصرون شيبان ، فينفرد أبو مسلم برجاله الخراسانيين وهم قليلون ، فيغلبه الخوارج ويفتحون مرو لأنفسهم ، ويتم لهم ما كانوا يأملونه من اخراج بنى أمية من خراسان والاستقلال بها

فلما جاء أبومسلم الى مرو ، وعلم الضحاك أن أبا مسلم لابد له من الاستعانة بالكرمانى على شيبان ونصر تظاهر بأنه على رأيه ، وأشار عليه بالتفريق بين الأميرين كما رأيت ، وزعم انه استنبط هذا الرأى من نفسه ليكتسب ثقة أبى مسلم توصلا الى اغرائه بقتل ابن الكرمانى بواسطة جلنار . وكان فى خلال اقامته عند دهقان مرو ــ وبعد مجيئه الى معسكر الكرمانى ــ يتردد سرا الى معسكر الخوارج ويطلع شيبان على تدابيره . ولذلك ظل شيبان بعد قدوم أبى مسلم الى مرو هادئا لايحارب ، عملا بمشورة الضحاك بالانتظار .. فاما أن يحارب أبو مسلم الكرمانى فيفنى أحدهما الآخر فيخلو الجو لشيبان ، أو أن يحتال الضحاك فى قتل ابن الكرمانى

وكان شيبان قد تواطأ هو والضحاك فى مساء الأمس أن يذهب الضحاك الى أبى مسلم فيحرضه على قتل ابن الكرمانى على يد جلنار ، فاذا تحقق له ذلك .. بعث دعاة الخوارج الى اليمنية رجال الكرمانى يحرضونهم على الاتحاد معهم لأنهم عرب

مثلهم ، ويطلعونهم على حيلة أبى مسلم فى التفريق بينهم بالكتب التى أرسلها اليهم مع الرسول . وكان شيبان عازما على مهاجمة مرو فى صباح الغد حالما يعلم بقتل ابن الكرمانى . فبعث أمراءه فى المعسكر يستحثون الرجال على التأهب ، وأمر القصاصين أن يتلوا على الجيش أقوال عنترة وغيره من أشعار الجاهليين فى الحماسة والفخر استنهاضا للهمم وتحريضا على العصبية العربية (١) .. تلك كانت عادة الجنود العربية فى حروبها

- ٣٧ -

القصاص ورفيقه

وجلس شيبان فى خيمته ينتظر مجىء الضحاك ، فلما استبطأ مجيئه وقد مضى هزيع من الليل ضجر ، وخشى أن يتغلب عليه النعاس وعلى أمرائه الساهرين معه لهذه الغاية . فأمر أحد غلمانه أن يأتيه بقصاص يتلو عليه بعض الأشعار أو القصص على سبيل التسلية . فذهب الغلام ثم عاد وهو يقول : « انه سمع قصاصا ينشد أشعارا حماسية بصوت رخيم ويضرب على الطنبور بأطرب الأنغام »

فقال شيبان : « وأين هو ؟ »

(١) ابن الاثير ج ٤

قال الغلام : « هو بجانب فسطاط الأمير.. ألا تسمع صوته ؟»

فأصاخ شيبان بأذنيه فسمع نشيدا مطربا وصوتا عاليا يدوى فى ذلك الليل الهادىء .. تتخلله أنغام الطنبور ، فأمر الغلام أن يأتى به حالا

فخرج الغلام . ثم عاد ووراءه شيخ طاعن فى السن ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، عليه عمامة صغيرة ، واسع اللحية والصدر أبيض الشعر ، وقد غطت لحيته معظم صدره وعليه عباءة حمراء قصيرة ، وبيده طنبور يضرب عليه بلباقة ، ومعه رجل قصير القامة على رأسه عمامة كبيرة لها زائدتان عريضتان احداهما مرسلة الى الوراء والأخرى مدلاة على جبينه فوق عينيه كأنه يشكو رمدا فأصبح مغمض العينين . واذا مشى تعلق برفيقه القصاص يلتمس الطريق فى أثره . وبيده دف صغير ينقر عليه نقرا جميلا

وكان شيبان فى خيمة كبيرة قائمة على عدة أعمدة ، فى أرضها بساط كبير قد جلس هو فى صدره على وسادة وبين يديه بضعة أمراء من خاصته . فلما رأى القصاص داخلا أمره بالجلوس والانشاد وأجلس رفيقه . فبدأ هذا بالنقر على الدف نقرا محكما وأخذ القصاص فى الانشاد بما يطرب الجماد . فأنشد بعض أشعار عنترة ، ثم أمره شيبان أن ينشد أشعار غيره من الجاهليين .. فتلا أقوال زهير وطرفة وغيرهما وهو يضرب على الطنبور بما يثير

الحماس فى النفس.. وكلما قال بيتا حماسيا هاج الأمراء وتحمسوا واستعادوه .. وطلب اليه بعضهم أن يقصَّ أخبار حرب البسوس ويوم ذى قار الذى انتصف فيه العرب من العجم ، وغيرهما من مواقع الجاهلية المشهورة فأجابهم فى كل ما يطلبون سواء كان قصة أو شعرا أو ضربا على الطنبور ، ورفيقه ينقر على الدف نقرا حسنا ويساعد القصاص فى الانشاد وهو مطرق الى الأرض من ألم عينيه . فطرب الجميع ونسوا ما كانوا فيه من ملل الانتظار . وتجمع رجال الحاشية والخدم فى الخيمة وحولها حتى تكاثروا واختلطوا

وبينما هم فى تلك الضوضاء دخل غلام تخطى رقاب الناس حتى وقف بين يدى شيبان وأسرَّ اليه قولا ، فأشار شيبان اشارة تحرك لها كل من كان من الأمراء والحاشية ووقفوا وعلت ضوضاؤهم وهموا بالخروج . فوقف القصاص وتعلق به رفيقه وأرادا الخروج مع الخارجين ، فجاءهما أحد الغلمان وأمرهما بالانتقال من الفسطاط الى خيمته الخاصة بجوار ذلك المكان . فخرج القصاص ورفيقه ممسك بطرف ثوبه ، فرأى القصاص وهو خارج رجلا طويلا دخل الفسطاط فتنحى له الناس واستقبله شيبان بالترحاب وأجلسه الى جانبه وهو يقول : « أهلا بالأمير شبيب »

ولم تمض بضع دقائق حتى خرج ال.. ن من الفسطاط الا الأمير

شيبان والأميرشبيبا ، وبضعة أمراء آخرين.. وتحول سائرالحاشية والأعوان الى خيمة بالقرب من الفسطاط . وأراد القصاص أن ينصرف ، فأمسكه أحد الخدم وأمره أن يدخل تلك الخيمة وينشد لبعض رجال الحاشية هناك ، فدخل مع رفيقه وأخذا فى الانشاد والضرب والنقر . فبعث الأمير شيبان اليهم أن يسكتوا لئلا يشوشوا على حديثهم .. على أن يستبقوا القصاص الى ما بعد الفراغ من الحديث ففعلوا

- ٣٨ -

شيبان وشبيب

فلما خلا شيبان بشبيب ومن ظل فى الفسطاط من خاصته ، انطلق لسانه بالترحاب وهش له ، واستدناه حتى تماست ركبتاهما ، وشيبان يقول : « بورك فى الأمير شبيب .. أرجو أن تكون قد نجحت وآن لنا الظهور »

قال : « النجاح لاريب فيه باذن الله وببركة الأمير شيبان »

قال ذلك ، وأخرج خاتم أبى مسلم ، ودفعه اليه ..

فبغت شيبان وتناول الخاتم وتفرس فيه ، فلما عرفه تبسم والتفت الى أمير بجانبه وقال : « هذا خاتم الشاب الخراسانى فما قولكم فيمن تمكن من الحصول عليه ؟ »

فأجاب أحد الأمراء قائلا : « ما الذى ينفعنا من خاتمه وهو معسكر أمامنا وقد اتحد مع هؤلاء اليمنية ، وقبض على زمام أميرهم الكرمانى بعد أن قتل أباه .. فاذا اتحدا على صاحب مرو غلباه ولا فائدة من مقامنا هنا »

فضحك شبيب غير ضحكة الضحاك ، ووجّه خطابه الى الأمير شيبان ، وهو يتربع فى مجلسه ويده اليمنى على ركبة شيبان ، واليسرى يحك بها ذقنه وقال : « لم أخط خطوة الا وأنا حاسب لها حسابا وأظننى أحسنت التدبير ، وسأوضح لكم رأيى .. فاذا بدا لكم تعديله أطعتكم فيه .. » ثم التفت يمينا ويسارا كأنه يتأكد من خلو المكان من الغرباء أو الخدم فابتدره شيبان قائلا : « قل .. اننا فى مأمن من العيون ، وليس حولنا أحد نخشى منه على افشاء سرنا »

فقال شبيب : « لايهمنا هذا الخاتم ان لم نقتل به ابن الكرمانى الليلة أو غدا ..! »

فقال شيبان وهو يظهر الاعجاب والدهشة : « الليلة ؟ »

قال شبيب : « كنت أتوقع قتله الليلة ، ولكنه فى حال لا يبقى بها الى ما بعد الغد .. »

فقال أحد الأمراء : « وكيف نقتله وهو محاط بالحرس والحاشية ؟ »

فاعترضه شيبان قائلا : « نقتله بالدهاء والذكاء .. واذا كنتم

تعرفون دهاء الأمير شبيب فلا تستغربون ذلك منه » ثم التفت الى شبيب كأنه يلتمس منه اتمام الحديث فقال شبيب : « اذا قتل ابن الكرماني فان رجاله يكونون معنا على أبى مسلم لأنهم عرب مثلنا وكلهم يمنية ، وهم طبعا يكرهون عرب خراسان ومضر ومرو ، ولم يجمع كلمتهم علينا الآن الا أميرهم المذكور فمتى قتل فعلىَّ (وأشار بأصبعه الى صدره) أن أجمع كلمتهم تحت قدم الأمير شيبان ، فاذا فعلنا ذلك تكاتفنا أولا على قتل أبى مسلم وتشتيت جمعه ، ولا ريب فى ان نصرا صاحب مرو يساعدنا على ذلك أو يلزم الحياد على الأقل »

فقطع شيبان الحديث بقوله : « بل هو يساعدنا لأنه بعث الىَّ فى صباح هذا اليوم يطلب محالفتى »

فقال شبيب : « ولو لم يطلب هو نصرتنا لطلبنا نصرته ... وانما الغرض الأول أن نتخلص من ابن الكرمانى ولا تحسبن التخلص منه هينا .. بل هو يستحيل على سواى ، ولذلك حديث يطول شرحه والأمير شيبان يعرف معظمه »

فأجاب شيبان باحناء رأسه واطباق جفنه أن : « نعم .. »

فقال شبيب وهو يوجه حديثه الى شيبان : « لقد زهقت روحها قبل الوصول الى الغرض المنشود .. فالفتاة المفتونة بحب ذلك الخراسانى جعلتها تعتقد انه مفتون بها ، وانه لاسبيل لها اليه الا بقتل خطيبها ابن الكرمانى . وهذا أكثر تفانيا فى حب هذه

الفتاة من تفانيها فى حب أبى مسلم ، وأرجو أن يهلكوا جميعا نتيجة لهذا الحب . وقد بذلت كل ما فى وسعى لتحريضها على قتل ابن الكرمانى ، أو مساعدتى فى قتله بالسم أو نحوه ، ارضاء لحبيبها وهو ـ فى الحقيقة ـ لايحبها ، ولكنه مالأنى على اظهار الحب لتحقيق غرضه ، كما خدعته باستماتتى فى سبيل دعوته لتحقيق غرضى ، وهو يحسب نفسه يخادعنى ويسايرنى ويظننى مخدوعا مغرورا وهو المخدوع المغرور .. والخلاصة أنى خدعته حتى دفع الىّ خاتمه علامة منه لتلك الدهقانة انه يحبها وانه يريد منها أن تفتك بخطيبها .. وأعترف لكم انى آنست منها مقاومة فى بادىء الأمر .. ولكنى سأعيد الكرّة فى الغد ، بحيث لاينقضى اليوم الا وقد نفذت الحيلة .. »

فظهرت امارات الاعجاب على وجوه السامعين وهم يتطاولون بأعناقهم نحوه ، ويرقبون حركات شفتيه وعينيه لاستيعاب أقواله .. فلما رأى منهم ذلك تنحنح وسكت ، وهو مطرق ، كأنه يفكر فى أمر خطير ، فسكتوا وأصبحوا يتوقعون منه قولا فاذا هو يقطب حاجبيه ويرفعهما كما يفعل الحائر ، ثم التفت الى شيبان وقال : « بقى أمر لابد من الرجوع فيه اليكم والاعتماد عليكم »

فتجمعت أنظارهم عليه وقال شيبان : « وما الذى تريده ؟ »

قال : « لابد لنا من تمهيد السبيل لجمع كلمة هؤلاء اليمنية معنا بحيث اذا قتل أميرهم انحازوا الينا وتم الأمر لنا »

فقال شيبان : « وهل تفعل ذلك قبل مقتل الرجل أو بعده ؟ »

قال : « يجب أن نمهد السبيل قبلا خوفا من الفشل .. وأرى أن يكون ذلك بمخاطبة كبار الأمراء سرا .. ولولا انشغالى فيما هو أهم من ذلك لما تكلفت المشقة فى تبغيض أبى مسلم الى اليمنية أكثر من اطلاعهم على حيلته فى القاء الفتنة بينهم وبين المضرية ، وهو الرأى الذى أشرت به وعرضته عليه يوم وصوله كما تعلمون .. فاذا اطلعوا على هذا السر مع ما فى قلوبهم من الكره الطبيعى للفرس اتحدوا معنا لا محالة ، فما قولكم ؟ »

فلم يتمالكوا أن صاحوا بصوت واحد : « هذا هو الرأى الصائب »

فوقف شبيب وهو يتوكأ على كتف الأمير شيبان ويقول : « دعونى أذهب الآن .. »

فصاح شيبان : « الى أين ؟ »

قال : « الى أبى مسلم »

قال : « الى أبى مسلم ؟ ولماذا ؟ »

قال : « لأعيد اليه خاتمه ، فقد وعدته بذلك .. وينبغى أن أفى بالوعد لتتم لنا الحيلة ، ولكى أستمهله ريثما أقتل ذلك المغرور »

— ٣٩ —

رد الخاتم

فوقف شبيب ووقف سائر الأمراء فلم يمهلهم الا لحظة ، وخرج مسرعا ولم يقل شيئا.. فلما خرج عادوا الى مجلسهم ، وهم معجبون بتدبيره ودهائه ، ولبثوا هنيهة يتداولون فى ذلك الموضوع وقد انشرحت صدورهم واطمأنت نفوسهم وأيقنوا بنجاح مسعاهم . ثم انتبهوا لما كانوا فيه من سماع القصاص ونقره ، فصفق الأمير شيبان فدخل أحد الغلمان ، فصاح فيه : « الىّ بالقصاص ... أين هو ؟ »

قال الغلام : « تركته مع رفيقه الضرير فى خيمة الأعوان ، وهما فى الانتظار ريثما يؤذن لهما بالانشاد »

قال شيبان : « الىّ بهما »

فخرج الغلام ثم عاد وهو يقول : « لم أجدهما يامولاى .. يظهر انهما ذهبا للنوم ، لأنى آنست فيهما نعاسا شديدا بعد أن أمرا بالسكوت ، حتى رأيتهما ناما والناس جلوس، فتركوهما نائمين وخرجوا ، فذهبت اليهما الآن فلم أجدهما .. فالظاهر انهما استبطآ الأمير فى دعوتهما فانصرفا »

فقال : « لا أظنهما ينصرفان قبل أن يأخذا المكافأة ، ابحث

عنهما جيدا حول هذا المكان .. فقــد أطربانا ويجب علينا أن نكرمهما .. »

فخرج الغلام وعاد بعد برهة ولم يعثر عليهما ، فأسف الأمير لذهابهما بغير مكافأة ، وأوصى الغلام أن يتحرى شأنهما فى غد لئلا ينسبا الى الأمير البخل .. ثم اختتمت الجلسة ، وذهب الأمراء الى أماكن النوم ، وظل الأميرشيبان وحده يدبر الوسائل للاتصال بالأمراء اليمنية فى غد

أما شبيب ، فلما بعد عن معسكر الخوارج ، اختلى فى مكان بدّل فيه ثيابه حتى عاد الى ماكان عليه من مظهر المجون ، وسار توا الى معسكر أبى مسلم .. فوصل الى المعسكر ، وقد مضى معظم الليل ، ثم أقبل على المنزل الذى فارق أبا مسلم فيه ، ولم يدهش لوجوده مستيقظا الى تلك الساعة ، لعلمه بسهره على مصلحته وتيقظه فى مراعاة مشروعه . ولم يلق الضحاك معارضة من أحد .. فلما وقف بالباب دخل به الحارس على أبى مسلم فاذا هو لايزال بملابس النهار ، فلما دخل احتفل أبو مسلم بدخوله وبش له وناداه قائلا : « أهلا بالضحاك .. أرجو أن تكون قد وفيت بالوعد »

فمدّ الضحاك يده ، وتقدم نحو أبى مسلم باحترام ، والخاتم بين ابهامه والسبابة وقال : « هذا هو الخاتم يامولاى فقد أدى مهمته .. شكرا له ولصاحبه »

فمد أبو مسلم يده وتناول الخاتم وهو يقول : « بل الشكر لك أيها الهمام .. هل أرسلت الرجل الى خوارزم ؟ » وكانت عادته اذا أراد قتل رجل قال : « ارسلوه الى خوارزم » وهو يعنى بخوارزم الموت

قال : « لم أستطع ارساله الليلة لأنى وجدت الدهقانة مترددة فى تنفيذ الحكم ، لأنها لم تتعود مثل هذه الأوامر المستعجلة » وضحك ..

فسايره أبو مسلم فى الضحك وقال : « لابأس من الانتظار ولكن هل استوثقت من قيامها بالأمر غدا أو بعد غد ؟ »

قال : « نعم .. لأنها حينما شاهدت هذا الخاتم هان عليها كل صعب فى سبيل مرضاة صاحبه »

فأظهر أبو مسلم الاستحسان والاعجاب وأشار الى الضحاك أن يجلس ، وقال : « اذا وفقت الى ما تقول وفتحنا مرو ، كان لك عندنا مقام رفيع ورتبة عالية »

فأثنى الضحاك على ذلك التلطف ولم يجلس وقال : « ان اسمى ما تتوق اليه نفسى من الرتب أن أكون حائزا على رضى مولاى .. واذا أذنت لى بالانصراف الآن ذهبت لاتمام ما اتفقنا عليه .. »

قال : « لا ينبغى أن تتعجل فى الأمر على هذه الصورة لئلا يفسد علينا تدبيرنا ، ولا أظن ان الدهقانة توفق الى تنفيذ ذلك

قبل جلسة أخرى تقنعها فيها بلباقة ومهارة .. وهى الآن لاشك نائمة ، فالأفضل أن تبيت الليلة عندى ، فاذا طلع النهار ذهبت فى هذه المهمة »

فأظهر الطاعة وهو يفضل الذهاب لاتمام ما أبرمه مع شيبان ، فوقف ولم يحر جوابا .. وسكت أبو مسلم وأخذ يخطر فى الغرفة ذهابا وايابا .. فعلم الضحاك انه يفكر فى أمر هام ، فظل ساكتا لعل أبا مسلم يعدل عن استبقائه عنده . وبعد برهة وقف أبومسلم بجانب الضحاك بغتة ، وألقى يده على كتفه بلطف ، فاستأنس الضحاك بهذا التحبب ، وأصاخ بسمعه لما سيقوله أبو مسلم فاذا هو يتفرس فى عينيه تفرس المستطلع ثم قال بعبارة رقيقة ناعمة : « هل أنت تشعر حقيقة بمنزلتك عندى وعظم ثقتى بك ؟ »

وكان الضحاك قد خشى ذلك التفرس لما يعتقده من سوء قصده ولما يعلمه من صدق فراسة أبى مسلم — ويكاد المريب يقول خذونى — فلما سمع منه ذلك التلطف سرى عنه وأجاب : « كيف لا أشعر بذلك وقد سلمتنى خاتمك وعهدت الىّ بأسرارك ؟ »

قال أبو مسلم : « لايزال عندى سر آخر.. هل أكاشفك به ؟»

قال الضحاك : « لك الأمر فيما تريد، أما أنا فانى طوع ارادتك »

قال أبو مسلم : « اجلس اذن واصغ » . قال ذلك وأجلسه

ويده على كتفه . فجلس الضحاك وهو يتطاول بعنقه ليسمع ذلك السر الجديد لعله يساعده على بلوغ مأربه

— ٤٠ —

سر جديد

فلما جلسا قال أبو مسلم بصوت منخفض : « انت تعلم كم معي من رجال خراسان ، وهم طوع ارادتي .. ولكنني لا أثق الا ببعضهم ولا أسلم سري الى أحد منهم ، وقد خطر لي في هذه الساعة خاطر أردت أن أستشيرك فيه لما آنسته من اخلاصك وصدق خدمتك ودهائك — وان كنت تتظاهر بالبله والمجون — فأنت أهل للمناصب العالية . فاعلم ان تواطؤنا على قتل ابن الكرماني لا يعلم به أحد من رجالي حتى ولا خالد بن برمك ولا سليمان بن كثير مخافة أن يطرأ ما يفسد علينا تدبيرنا ، وقد خطر لي الآن أمر زادني خوفا من الفشل »

قال الضحاك : « وما هو يامولاي ؟ »

قال : « اذا نحن قتلنا ابن الكرماني فمن يضمن لنا انصياع رجاله الينا وهم عرب ونحن فرس ، ألا تظنهم ينحازون الى غيرنا ؟ »

فتجاهل الضحاك وقال : « والى من تعني يامولاي ؟.. أما

انحيازهم الى نصر فأمر بعيد لأنه قتل أميرهم الكبير .. »

فقطع أبو مسلم كلامه قائلا : « أنا أعلم انهم لا يحبون نصرا ولكنهم قد ينحازون الى جند الخوارج المعسكرين هنا .. اصدقنى لأنك عربى ، وتعرف ميول العرب .. ألا تظن أمراء اليمنية يفضلون أولئك العرب علينا ؟ »

فأطرق الضحاك وقد وقع فى حيرة لا يدرى بماذا يجيب ، واستغرب هذا السؤال .. ولكنه تجلد وتظاهر بالسذاجة وقال : « أظنهم يفضلون العرب طبعا »

قال أبو مسلم : « يخطر لى خاطر أنصحك به .. فاما أن توافقنى عليه أو ندفنه هنا ولا يعلم به أحد »

قال الضحاك : « انى طوع أمرك ، يامولاى »

قال : « قد علمت من أصحاب الخبر الذين بثثتهم فى معسكر الخوارج منذ مجيئى الى هذا المكان انهم ينوون محالفة نصر بن سيار صاحب مرو على حربنا وحرب ابن الكرمانى ، فيخطر لى الآن أن أحالف هؤلاء الخوارج على نصر وابن الكرمانى ، فاذا قتلنا هذا جعلنا قيادة العرب اليمنية كافة الى الأمير شيبان بشرط أن يكون حليفنا على نصر لأن الغرض الأصلى الذى قمنا من أجله بدعوة الامام انما هو اخراج الخلافة من بنى أمية ، وليس الغرض أن نفتح مروا أو غيرها من مدن خراسان .. وهذا سر عميق لو علمت أن طائرا تنسم ريحه قتلتك ، وأنت تعلم انى

أقتل لمجرد الاتهام ، بأمر الامام .. »

فتوسم الضحاك من وراء هذا السر خيرا كبيرا لمشروعه الأصلى ، فأقبل نحو أبى مسلم بكليته . وهش له وقال : « انى أستغرب تهديدك اياى ، وسوء ظنك بى ، وقد أوتيت فراسة تخترق بها الصدور ، وتكشف أسرار القلوب .. فاذا كنت ترتاب فى صدق نيتى ، فاقتلنى حالا ! »

فابتسم أبو مسلم وقال : « قد علمت مكنونات قلبك ولكننى أزداد اختبارا ، فاعلم اننا لو فتحنا مروا فى هذه الساعة فانما نهدف من فتحها اخراجها من سلطان بنى أمية ، ثم لايهمنا مَن يتولاها بعدهم، وأعترف لك انىأخشى أولئك الخوارج واتحادهم مع رجال ابن الكرمانى ــ بعد قتل الكرمانى نفسه ــ فاذا كانوا ضدنا أتعبونا لاسيما اذا حالفوا نصرا صاحب مرو ، فهل من سبيل الى أميرهم شيبان ؟.. هل تعرفه أو تعرف أحدا يستطيع التوسط بيننا وبينه لنبرم اتفاقا يقينا شر ما نخافه ؟ »

فلما سمع الضحاك قوله استبشر بالفوز وأيقن بنجاح مسعاه على أهون سبيل فقال : « أما الأمير شيبان فانى أعرفه ، وهب انى لا أعرفه فلا أعدم وسيلة فى الاتصال به .. »

قال : « صدقت ان من كان فى مثل تعقلك ودهائك لا يعدم وسيلة لذلك .. لكننى أستشيرك حين أخشى أن أكون واهما فى تصورى ، وقد استودعتك سرى وجعلتك موضع ثقتى

فانصحنى »

قال الضحاك : « اذا جاز لمثلى أن يبدى رأيا لصاحب دعوة الامام ابراهيم ، فانى أهنئك على هذا الرأى السديد وبخاصة بعد أن علمت الغرض الأصلى من القيام بهذه الدعوة ، لأن هؤلاء الخوارج لايطمعون فى أكثر من الاستيلاء على مرو . واذا كان استيلاؤهم عليها برضاك كانوا عونا كبيرا لك فى سائر الفتوح ولا يخفى عليك انهم يكرهون المضرية أكثر من كرههم للفرس ، فاذا حالفتهم خدموك ونصروك »

فأظهر أبو مسلم الارتياح الى نصيحة الضحاك وقال : «فعلينا اذن أن تتصل بالأمير شيبان .. ولست أثق فى أحد سواك ، فهل أعهد بهذا الأمر اليك ؟ »

قال الضحاك : « اذا كنت تثق فى قولى ، فانى أطوع لك من بنانك »

قال : « لا أثق بسواك ، فامكث عندنا الليلة فأزودك فى غد برسالة تذهب بها الى الأمير شيبان .. واترك الى فطنتك أسلوب ابلاغها بحيث يكون النجاح مضمونا »

فقال الضحاك : « كن مطمئنا من هذه الناحية »

قال : « فاذهب الآن الى مخدعك فى هذه الغرفة (وأشار الى غرفة بالقرب من المكان) وفى صباح غد أعد لك الكتاب »

فأشار مطيعا وذهب الى فراشه وهو لا يصدق ما وفق اليه من

أسباب السعادة ، ولم يستطع النوم من شدة الفرح الا قبيل الفجر فان النعاس غلب عليه فنام . واستيقظ فى الصباح فنهض وتهيأ للذهاب ، وهو يخشى أن يعدل أبو مسلم عن عزمه ، فاذا بأحد الغلمان يدعوه اليه فهرول حتى وقف بين يديه ، فدفع اليه كتابا مختوما وقال له : « ضع هذا الكتاب فى مكان سرى فانى لا أريد أن يطلع عليه أحد من رجالى ، واذهب من هذا الطريق (وأشار الى طريق غير الذى تعود المجىء منه) واذا علمت أن أحدا من رجالى اطلع عليه أو علم به فأنت تعرف جزاءك »

— ٤١ —

فتح مبين

فتناول الكتاب وخبأه فى جيبه وودع أبا مسلم ، وخرج وهو فى ملابس المجون .. الجبة والعمامة المنحرفة ، والنعل فى قدميه ، ومشى من وراء الخيام حتى توارى عن أبى مسلم ، ثم عرج ليدور من وراء المعسكر وهو يسرع فى خطواته فرأى بضعة فرسان عرف من ملابسهم انهم من رجال أبى مسلم ، فتحول ليبتعد مخافة أن يسألوه عما يحمله ، فاذا هم يركضون جيادهم نحوه .. فظل مسرعا ، فأسرعوا نحوه حتى أحدقوا به ، وأشار أحدهم الى رفاقه فانقضوا عليه وضايقوه ، فوقف وسألهم عما

يريدون فابتدره رجل ملثم منهم قائلا : « من الرجل ؟ »

فتحير ولم يدر بماذا يجيب ثم قال : « انى عابر سبيل »

فقال له : « ليس هذا سبيلا للعبور .. قل لنا من أنت وما غرضك ؟ »

قال : « لا شأن لكم بغرضى فانى سائر فى مهمة .. » ولم يجسر أن يخبرهم عن مهمته

فتحول بضعة منهم وفى أيديهم الحبال وأوثقوه وقيدوه وهم يقولون : « اما أن تخبرنا عن غرضك أو تبقى أسيرا عندنا »

قال الضحاك : « سيروا بى الى الامام أبى مسلم ، فتعلمون من أنا .. »

قالوا : « لا نسير بك اليه ما لم تخبرنا .. »

فصاح فيهم : « اذا لم تسرعوا بى اليه فانكم نادمون .. »

فقالوا : « اذا كنت رسولا فأين الكتاب الذى أنت ذاهب به ، والا فأنت عدونا ؟ »

فطال الجدال بينه وبينهم ، وهو لا يجسر على أن يخبرهم بالكتاب الذى يحمله فأطاعهم خوفا على حياته وهو يهددهم بما سيلاقونه من غضب أبى مسلم اذا لم يطلقوا سراحه ، فأجابه الفارس الملثم قائلا : « سأرسل فارسا يخبر الأمير بأمرك ، فاذا أمر باطلاق سراحك أطلقناك .. »

فرضى الضحاك بذلك وأذعن لهم فساقوه الى خيمة على أكمة

باله لهذا التدبير وعاد الى حمام أعين ، وأراد قبل انتقاله الى الدير أن يكمل بحثه عما فعله العيار .. فسار الى قصر أبى سلمة واستفسر منه عن ذلك ، فأخبره انهم لم يقفوا للرجل على أثر .. فتحقق صالح من أن أبا سلمة وبطانته أصبحوا فى خطر ، فرأى أن يبعد عنه بالحيلة فذهب الى جلنار وأخبرها بما دبره وقال لها : « فالآن ينبغى أن نخرج من هـذه المحلة خلسة بحيث لا يشعر أهلها بنا ولا يعلم أحد بقصدنا .. »

فقالت جلنار : « وخالتى لا تعلم أيضا ؟ »

فقال صالح : « وخالتك قبل الجميع »

فقالت جلنار : « والخدم ؟ »

فقال صالح : « نعم .. وكل انسان سواك وسوى ريحانة ، والسبيل الى ذلك أن نأمر الخدم فيسرجوا الخيول ونظهر أننا ذاهبون للتنزه على ضفاف الفرات ، ونشغل الخدم والسياس بما يلهيهم عن مرافقتنا أو اللحاق بنا ، ونحتج بأننا نحب التنزه على انفراد .. ومتى بعدنا عن المحلة عرجنا نحو الدير فنقيم هناك حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا »

فأحست جلنار كأن حبلا غليظا التف حول عنقها ، وكاد يخنقها ، لشدة ما هاج فى نفسها من أسباب اليأس ، لاضطرارها بعد أن أقامت فى منزل أبى سلمة واستأنست بخالتها وأحبها نساء القصر أن تفر الى دير تنقطع فيه عن الناس .. ولم تر ما يخفف من

همها الا البكاء .. وبكت معها ريحانة ، وحتى صالح مع ما علمته من جمود قلبه أوشك أن يبكى معها .. على انه أخذ يخفف عنها ويقول لجلنار : « لا تيأسى يامولاتى ، لابد من الأخذ بالثأر ولو بعد حين ، فان العاقل من صبر على مضض الحياة وتربص لاغتنام الفرص .. وكل آت قريب »

فتذكرت أبا مسلم حبيبها القديم ، وكيف كانت تحبه ، وكيف أصبحت لا تصبر عن قتله مع ما جدده وعد اليهودى من تحريك قلبها ، فهاجت عواطفها وبكت مرة ثانية لسبب غير سبب بكائها الأول ، وصالح لايعبأ بذلك أو هو لايفهمه ، وانما كان همه أن يستعجل فى اعداد ما يحملونه معهم الى الدير . فقال لها : « مرى الخدم أن يسرجوا لنا الأفراس » فأمرتهم . وفى أصيل ذلك اليوم خرج الثلاثة من المحلة يتظاهرون بالتنزه على ضفاف الفرات ، وليس معهم أحد من الخدم ولا يعرف أحد مقصدهم .. حتى اذا تواروا عن الناس تحولوا نحو الدير فذهبوا أولا الى دير هند ، وقد أعد صالح صرة فيها مائة دينار دفعها الى رئيسه هبة للدير ، وكان الليل قد أسدل ستاره فدعاهم الى المبيت هناك على أن يبكروا فى الذهاب الى دير العذارى فأطاعوه ، فقدموا لهم من أطعمة الدير وفاكهته فأكلوا وشربوا وباتوا تلك الليلة

وفى الصباح التالى كتب لهم الرئيس كتابا الى رئيسة دير العذارى أوصاها فيه بالفتاة ومن معها ، ودفع الكتاب الى صالح

فحمله وذهب بجلنار وريحانة ، وأرسل الرئيس معهم دليلا يوصلهم الى الدير المذكور فبلغوه نحو الظهر .. فاستقبلتهم رئيسته أحسن استقبال وأنزلتهم على الرحب والسعة ، ولا سيما بعد ما رأت من لطف جلنار وكرمها ، لأنها حالما وصلت الى هناك أمرت ريحانة فدفعت الى الرئيسة هبة من المال ، فخصصت لهما غرفة فسيحة ، نظيفة الأثاث .. وأوصت بعض الراهبات بأن تعنى بهما

— ٧١ —

بيعة أبى العباس السفاح

فاطمأن صالح على جلنار ، وتفرغ للنظر فى شئونه .. فأقام فى دير هند ، وكان يتردد على دير العذارى حينا بعد حين يتعهد جلنار بما تحتاج اليه ، وينزل الكوفة متنكرا يتجسس الأخبار الشائعة ليتعرف على مصير الأمور ويترقب فرصة يتمكن بها من بلوغ غايته .. فعلم أن بنى العباس نزلوا عند أبى سلمة وانه كتم أمرهم وأهل الكوفة لايعلمون بمجيئهم ، وكان الخراسانيون قد علموا بانتقالهم الى هناك فجاء جماعة منهم وعسكروا خارج الكوفة عند حمّام أعين ، وقوادهم يبحثون عنهم .. وكان أبوسلمة بعد أن أنكر على صالح الفتك بهم ، عاد فنظر فى أمرهم فرأى أن

السداد فى رأيه .. ولكنه أعظم الاقدام على قتلهم فحبسهم ، وكتم أمرهم وتوقع أن يرجع اليه صالح فيفاوضه فى شأنهم لعله يصمم على الفتك بهم أو ببعضهم

وأما صالح فلم يعد يظهر لأحد قط ، وكان يمر بحمام أعين وهو متنكر، فيسمع أهل أبى سلمة وخدم جلنار يذكرون فقدانها منذ خرجت مع خادمتها على ضفاف الفرات ، وقد رجحوا غرقها فيه .. وكان يتنكر أحيانا فى ملابس الفقهاء ، فيقضى يومه فى المسجد يسمع أحاديث القوم ، ويلبس أحيانا ملابس الجنود أو الشحاذين أوالعيارين أوغيرهم ، فعلم أن الناس عرفوا بمقتل الامام ابراهيم وضجوا فى السؤال عن اخوته وأهله ، ثم علم بعد أربعين يوما من مجىء العباسيين أن الخراسانيين المعسكرين بظاهر الكوفة عرفوا بوجودهم فى دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم ، وهى الدار التى أنزلهم فيها أبو سلمة ، وان ابراهيم أوصى بالخلافة لأخيه أبى العباس فاتهموا أبا سلمة بأنه حبسهم هناك لرغبته فى نقل الخلافة الى العلويين

فلما علم شيعة العباسيين بوجودهم فى تلك الدار ، انطلق اليهم كبير منهم اسمه أبو حميد الحيرى ، فلما أقبل رأى جماعة لم يعلم أيهم الخليفة فسأل : « من الخليفة منكم ؟ » فتقدم داود ابن على أحد أعمام أبى العباس ، وقال : «هذا امامكم وخليفتكم» وأشار الى أبى العباس ، فسلم أبو حميد عليه بالخلافة قائلا :

«السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله» وقبّل يديه وقدميه وقال له : «مرنا بأمرك» وعزاه فى ابراهيم الامام . ثم رجع وأخبر جميع القواد وكبار الشيعة فجاء معه منهم جماعة حتى دخلوا على أبى العباس وقالوا : «أيكم عبد الله بن محمد بن الحارثية ؟» فقالوا : «هذا» وأشاروا الى أبى العباس فسلموا عليه بالخلافة وعزوه فى ابراهيم . فلما علم أبو سلمة بانكشاف أمر القوم أراد أن يدخل فيبايع أبا العباس مثل سائر الناس ، فمنعوه الا أن يدخل وحده لأنهم أساءوا الظن به فدخل وسلم عليه بالخلافة

وكان صالح يسمع فى أثناء ذلك انهم سيخرجون بالخليفة ليبايعوه فى المسجد يوم الجمعة فى ١٢ ربيع أول سنة ١٣٢ هـ (١) فتنكر بملابس الفقهاء ووقف فى أحد الشوارع الكبرى ، فرأى أهل الكوفة قد حملوا السلاح واصطفوا فى الطريق لخروج أبى العباس ..

ثم رآه مارا على برذون أبلق ، وحوله أهل بيته على الخيول أو البراذين ، والناس يتزاحمون ويتطاولون لمشاهدة الخليفة ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ويتبركون برؤيته . وما زال الموكب سائرا وصالح فى جملة المارة حتى وصلوا دار الامارة ثم رأى رجلا صعد المنبر فأنصت الناس وهم يتهامسون قائلين : «هذا هو الخليفة اسمعوا خطابه» فنظر صالح الى ابن العباس فاذا

---

(١) ابن الاثير — ٩٦ — الجزء الخامس

هو طويل القامة أبيض اللون جعد الشعر أقنى الأنف حسن الوجه واللحية . ثم رأى رجلا أكبر منه سنا صعد المنبر فى أثره ولكنه قام دونه فعلم أنه داود بن على ، ثم أطل أبو العباس على الناس والتأثر باد على وجهه ، ولو رآه أحدهم عن قرب لتبين فيه ارتعاشا من الوهن والضعف .. على انه لم يكن ثمة بد من الخطبة ، فقال والناس يسمعون :

« الحمد لله الذى اصطفى الاسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظّمه واختاره لنا ، فأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه ، والناصرين له ، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته وأنشأنا من آبائنا ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته ، جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا حريصا علينا بالمؤمنين رؤوفا رحيما ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم ، فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا » . وقال تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » . وقال : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . وقال : « وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى » ..

وقال : « واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول

ولذى القربى واليتامى » . فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلا علينا والله ذو الفضل العظيم . وزعمت الشامية الضلال ان غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم . ولِمَ أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصّرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ودحض الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ورفع بنا الخسيسة وأتمّ بنا النقيصة ، وجمع الفرقة .. حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة فى دنياهم واخوانا على سُرُر متقابلين فى آخرتهم ، فتح الله ذلك منّة وبهجة لمحمد صلى الله عليه وسلم..

« فلما قبضه الله اليه وقام بالأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم ، حووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها موضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خِمَاصا منها ، ثم وثب بنو حرب ، وبنو مروان فانتبذوها وتداولوها ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملأ الله لهم حينا حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولىّ نصره والقيام بأمرنا ليمنّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض وختم بنا كما افتتح بنا ، وانى لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت الا بالله ..

« يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينـــا وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا .. فأنا السفاح المبيح .. »

ولما بلغ أبو العباس الى هنا غلب عليه الضعف واشتدت عليه الوعكة ، فجلس على المنبر وقام عمه داود فأتم الخطبة عنه بنحو هذا المعنى ، وطعن طعنا قبيحا فى بنى أمية وسوء سيرتهم وامتدح أهل خراسان لأنهم نصروا الحق ، ثم نزل أبوالعباس وعمه عن المنبر وذهبا الى دار الامارة .. وظل أبوجعفر المنصور فى المسجد يأخذ البيعة على الناس : فلم يزل يأخذها حتى صلى بهم العصر ، ثم المغرب ، وهجم الليل فدخل وصالح منزو يتأمل فيما جرى بين يديه ويكاد يتميز غيظـــا لفشـــل مسعاه فى ابطـــال البيعة العباسية ، ولكنه توسم الفرج من جهة أخرى .. فانه رأى فى أبى العباس ضعفا لا يأذن ببقـــائه طويلا ، وتحقق انه اذا مات فالخليفة بعده صاحبه أبو جعفر لأنه أفضل اخوته وخاصة لأنه تولى أخذ البيعة على الناس

- ٧٢ -

ذكرى الحبيب

وخرج صالح من المسجد ، وهو منقبض الصدر ، وذهب الى جلنار ، وأخبرها بما شاهده وان الأمر استتب لبنى العباس ولا حيلة فى ذلك . فبكت .. فقال لها : « لاتبكى ، ونحن فى الحقيقة لايهمنا قيام هذه الدولة أو سقوطها وانما يهمنا أن نقتل ذلك الرجل ، وانما سعينا فى افســاد أمرها لافســاد أمره ، فاذا لم يتيسر لنا ذلك من هذا الطريق .. فلنا طرق أخرى »

فسكتت وتنهدت ، وفى نفسها سر تحرص على كتمانه وتخجل من اظهاره حتى لريحانة ، لما فيه من صغار النفس وضعف الطبع ، فانها كانت مع كل ما أصابها من أبى مسلم لاتزال تشعر بالرغبة فيه ، وكلما تذكرته أحست بشىء يحسنه فى عينيها .. وكأن طول المدة أذهب ما فى نفسها من الحقد عليه ، ولكنه لم يؤثر على ما فى قلبها من الميل اليه .. فكانت تشعر بذلك الميل ، وتغالط نفسها لتسير مع التيار الذى دفعها غضبها فيه لطلب الانتقام ، وصالح يحرضها على الثبات ويحبب اليها الأخذ بالثأر . فلما طال جهاده وتوالى الفشل عليها ، أخذت نقمتها تتقلص وتصغر .. وحبها ينجلى ويظهر، ولاسيما بعد ماقاله لها ابراهيم ، حتى جاءها صالح بخبر استتباب الأمر للعباسيين واخفاق مساعيه فى ابدال دعوتهم،

فأحسَّت بانقشاع سحابة الحقد عن قلبها .. وتجلت لها صورة أبى مسلم كما كانت على عهد شغفها به ، وهوَّن الحب عليها كل عسير حتى أراها القصور مبنية فى الهواء ، فخيل لها أن أبا مسلم لم يفعل ما فعله بوالدها أو بها الا جريا على سياسته فى نصرة العباسيين ، وليس كرها لها ، فلعله ــ وقد تم له ما أراده من تأييد دولتهم ــ يصغيْ لنداء قلبه أو يشفق على انكسار قلبها ــ والمحب كثير الشكوك وواسع الآمال ــ اذا أسعده الزمان بما يبتغيه ، ووفِّق الى الاجتماع بحبيبه ، توالت عليه المخاوف لئلا يطرأ عليه ما يبعده عنه ، وتكاثرت شكوكه فى صدق محبته . واذا جافاه حبيبه وعاداه ، فيشعر كأن قلبه يتقد نقمة وحقدا ، ولكن ثمة أملا يظلل ذلك الحقد .. والحب أمره عجيب !

فكانت جلنـــار تتنازعها الآمال وهى تغالط نفسها ولا تبوح لأحد بسرها .. فلما جاءها صالح بذلك الخبر، تأرجحت عواطفها بين الأمل والفشل ، فلم تتمالك عن البكاء . ولم يكن وعد صالح ليخفف عنها كثيرا لتوالى عدم تحقيق وعوده ، ولكنها أظهرت الارتياح لوعده وقالت :« وأى طريق تتوقع أن نصل به الى مقصدنا ؟ »

فقال صالح : « تمهلى يامولاتى وعلىَّ تدبير ذلك ، وقــد صبرت فاصبرى أيضا ، ان الله مع الصابرين » فسكتت وأطرقت وتنهدت فشعر أنها تضمر شيئا ، وخشى أن يكون الفشل قد

أضعف عزمها وهو يحتاج اليها فى تنفيذ رغبته بقتل أبى مسلم .
فقال لها : « يظهر لى يامولاتى أن فشل سعينا هذه المرة قد أثر فى عزمك فلا تيأسى من الفوز ، وأنا عبدك ورهن اشارتك أبذل نفسى فى سبيل مصلحتك ، وأنت تعلمين اننى تركت الناس وانقطعت الى خدمتك وعاديت أشد الناس وأدهاهم من أجل رضاك ، وقد سعينا فى معاكسة ذلك الرجل ولم ننجح ، وقد بلغه سعينا وعرف مقصدنا بواسطة خازنه اليهودى على يدك ، فلو أردنا الرجوع عن عزمنا فهو لايلبث حتى يعثر علينا ويقتلنا ، ولو عرفت أنه يكتفى بقتلى ويستبقيك لهان علىّ ذلك ، لأنى أرغب اللحاق بوالدك ــ رحمه الله ــ فان ماعنده خير مما عندنا وأبقى»

قال ذلك وتظاهر بالاجهاش للبكاء ، فأوهم جلنار انه متفان فى خدمتها وذكرها بمقتل والدها ، فحرك عواطفها عليه ، فندمت على ما مرّ بذهنها من الميل الى مسالمة أبى مسلم أو استعطافه ، وبخاصة بعد ما سمعته من تلميح صالح من أن كشف أمرهم لأبى مسلم انما كان على يدها ، فأصبحوا مهددين بالقتل .. فكيف يخطر ببالها الرجوع عن عزمها ؟.. فلم تر بدا من مسايرة صالح فى قوله فأنكرت ما توهمه فيها من ضعف العزيمة وأكدت له أنها باقية على قصدها ، وأنها لايمكن أن تتنازل عن الانتقام لوالدها ، ولكن يشق عليها ما يقاسيه هو من العذاب فى سبيل ذلك .. فأجابها بأنه يفعله راضيا مسرورا لما له من الرغبة فى

الثأر أيضا ..

قضت جلنـــار فى ذلك الدير زمنـــا ، وصالح يتردد عليهـــا بالأخبار .. وأهمها فى تلك السنة هزيمة مرواز بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان قـــد جاء بجيشه لمحاربة العباســـيين فى العراق ، فهزموه فى بلد يقال له الزاب .. فهرب الى مصر واغتيل ببلدة بوصير . وجاءها بعد أيام بنبأ قتل بنى أمية وهو يستغربه ، فقالت : « لا غرابة فى قتلهم بالحرب »

فقال صالح : « وأى حرب ؟ انهم قتلوهم غدرا بعد أن أمنوهم وسمحوا بدخولهم الى مجالسهم والجلوس بين أيديهم .. »

فقالت جلنار : « قتلوهم بلا سبب ؟ ! .. »

فقال صالح : « نعم .. بلا سبب ظاهر ، ولكننى أظن أن أبا سلمة حرضهم على قتلهم .. فدس شاعرا قال بيتا حرّض به أبا العباس على قتلهم ، فقتلهم دفعة واحدة وعددهم نحو تسعين رجلا »

فقالت جلنار : « وما هـــذا الشعر الذى كان له قوة هـــذا التأثير ؟ »

فقال صالح : « ليس هو تأثير الشعر ، ولكن النفوس مستعدة والقلوب ملآنة ، والشعر حرّكها ، لأن الشعر ذكر السفاح بمن قتله الأمويون فى أيام دولتهم من الهاشميين . قال ذلك فى حضرة السفاح ، وبنو أمية على مائدته يأكلون ، فأمر بهم فضربوا بالعمد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها ، وهو يسمع

أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا .. » (١)

فلما سمعت جلنار ذلك ، قطعت كلام صالح ، ولم تتمالك عن الصياح قائلة : « أعوذ بالله .. يا للفظاعة ، يغدرون بضيوفهم ثم يأكلون الطعام فوق جثثهم وهم يسمعون أنينهم ؟ ان ذلك لم يسمع بمثله .. لقد اقشعر بدنى ، ووقف شعر رأسى ، قبحهم الله من أناس قساة القلوب »

فقال صالح يعرض بما خطر ببال جلنار من هذا القبيل : «أمثل هؤلاء يركن اليهم ، أو يرجى الصفح عنهم ..؟ » .. فسكتت ..

ولا تسل عن حال جلنار لما جاءها صالح بخبر مقتل أبى سلمة ، فقد عظم مصابه عندها مثل مصاب والدها لأنه كان يحبها ويكرمها ، فسألت صالحا عن سبب قتله فقال : « وهل تجهلين السبب ، ان القوم قد شكوا فيه فقتلوه ، ونسوا ما كان يبذله من الأموال فى سبيل نصرتهم .. وهبى انه كان ضدهم ، ألم يكن الصفح أولى بهم لرجل بذل ماله ونفسه فى سبيل دعوتهم .. بعد أن ملكوا قياد الدولة وصارت الأموال اليهم ؟ .. »

فقالت جلنار: «عجبا.. انى لم أسمع بمثل هذا البطش والفتك ، ولا أظن بنى أمية كانوا أشد فتكا من هؤلاء .. وكيف قتلوه ؟ »

فقال صالح : « قد علمت انهم شكوا فى اخلاصه لهم ، ولكنه حينما رأى الأمر قد انقضى ، بايع فى جملة الذين بايعوا .. فقدمه

(١) ابن الاثير ــ الجزء الخامس

أبو العباس وجعله وزيره بل كأنه فعل ذلك ليبتز بقية أمواله — ثم عاد الى ظنه ، فحلَّ قتله عنده .. ولم يجرؤ على القيام بذلك بنفسه ، فكتب الى أبى مسلم وهو فى خراسان يستشيره فى شأنه فأجابه : « انه أوجب الشك واستحق القتل فاقتلوه » فلم يجرؤ على قتله خوفا من الخراسانيين الذين معه ، فبعث الى أبى مسلم كى يرسل من يقتله .. فأرسل رجلا قتله سرا ، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتلوه ، وهذا هو اعتقاد أهل الكوفة الآن ولكننى عرفت الحقيقة .. »

فبكت جلنار وقالت : « قبحهم الله ، ما أقسى قلوبهم .. ان أبا سلمة رجل ليس فيهم مثله »

فقطع صالح كلامها وقال : « وأغرب من ذلك قتلهم سليمان ابن كثير .. فان أبا سلمة — كما نعلم — كان ينوى الغدر بالعباسيين ، وأما ابن كثير فأشهد عند الله انه لم يخطر بباله الغدر »

فبغتت جلنار وقالت : « قتلوه أيضا ؟ وكيف ذلك ؟ »

فقال صالح : « لما قتلوا أبا سلمة كما أخبرتك ، اتفق أن ابن كثير قال كلمة نقلها بعضهم الى أبى مسلم فشك فيه فقتله جهارا بلا تحقيق ولا نظر .. فهل يؤمن جانب أناس مثل هؤلاء ، فكل من عرفوا عنه انحرافا ولو أظهر الطاعة فانهم يفتكون به سرا أو جهرا » وقد أراد صالح أن يعرض مرة أخرى بما دار بينه وبينها

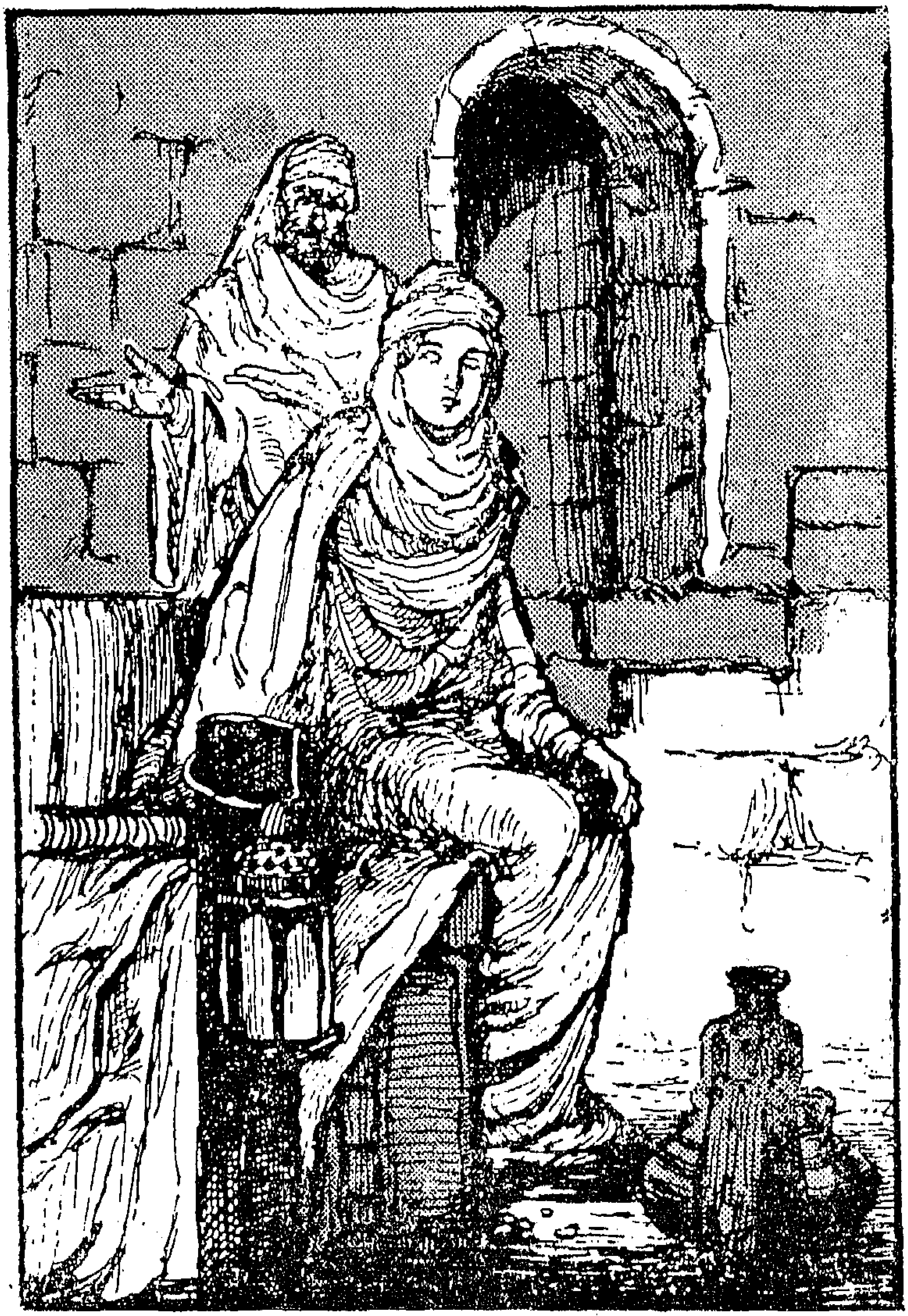

« فقال صالح بعد أن سمع ماقالته جلنار ، يعرض بما خطر ببالها من هذا القبيل : أمثـــل هؤلاء يركن اليهم أو يرجى الصفح عنهم ؟ .. »

فى المرة الماضيــة ليثبتهــا على عزمها ضــد أبى مسلم ، فرآها أصبحت تخشى ذكره لأنه سبب تلك الفظائع كلها .. وقد ارتكبها فى أقل من عام

- ٧٣ -

خلافة المنصور

فلما أيقن صالح بثبات جلنــار على عزمها ، أخــذ فى تدبير الوسائل للفتك بأبى مسلم بنفس الطريقة التى قتــلوا بها أبا سلمة ، وأخذ ينتهز الفرص لذلك . فلما مات أبو العباس السفاح سنة ١٣٦ هـ أفضت الخلافة الى أخيه المنصور ، فأيقن بوصــوله الى الغرض المطلوب بعد ما قدمه من التمهيد فى هذا السبيل منذ لقيه فى الحميمة وبشره بالخلافة ، فلما علم بموت السفاح وخلافة المنصور ذهب الى جلنار وامارات السرور بادية على وجهــه ، وكانت جلنار تنتظر مجيئه بفارغ الصبر ، فاذا رأته قادما خفق قلبها توقعا لما عساه أن ينقله اليها من الأخبار ، ثم تتفرس فى وجهه وتستطلع ما فى نفسه من سرور أو انقباض . فلما جاء فى ذلك اليــوم ، رأت السرور باديا على وجهــه .. فاســتبشرت وفرحت ، وكذلك ريحانة فانهــا كانت تقرأ عواطف مولاتها ، فابتدرته قائلة : « **هل من بشرى طيبة ؟** »

فقال صالح : « قد دنا وقت النجاح الأكيد فمات أبوالعباس وأفضت الخلافة الىأخيه المنصور صاحبى، وهذا يؤمن بكرامتى.. وقد بشَّرته بالخلافة منذ بضعة أعوام ، وأرجو أن يكون تحقيق هدفنا على يده .. وخاصة لأن فى نفسه حقدا على أبى مسلم من قبل الخلافة »

فقالت جلنار : « وأى حقد فى نفسه وأبو مسلم هو الذى سلم اليه الخلافة ، ولو أراد تحويلها الى سواهم ما لقى معارضا ؟ »

فاستغرب صالح تصدى جلنار للدفاع عن أبى مسلم ؛ وقد فاته أن الحب اذا تأصل فى قلب الكريم لم تنزعه الكوارث ، ولكنها قد تضغط عليه فتخفيه .. فاذا أزيحت عنه عاد الى رونقه بأحسن مما كان.. فلما سمع صالح قولها تجاهل وغالطها وقال : « لايخفى على مولاتى الدهقانة أن طلاب السيادة هذا شأنهم فانهم لا ينفكون عن المحاسدة والمفاخرة والمحاذرة . فأرى الآن أن أذهب الى المنصور ، فهو لاشك سوف يستقبلنى بترحاب ويقدمنى ويستبقينى عنده ، وأحب البقاء هناك للسعى فى أمرنا .. فهل تبقيان هنا ؟.. أم تذهبان معى الى الانبار لأن مقر الخلافة انتقل اليها »

فقالت جلنار : « كيف نبقى هنا وأنت بعيد عنا ؟.. اننى أرى أن ننتقل الى الانبار تقيم فى بعض بيوتها ، ولا خوف علينا فان

الناس قد نسوا أمرنا وكفانا هذا الحبس »

ففرحت ريحانة برأى سيدتها لأنها كانت قد سئمت الحبس فى ذلك الدير فقال صالح : « اسمحى لى بالذهاب أولا وحدى ، لأتجسس الأمور ثم أعود اليكما فأنقلكما اليه » فوافقته على ذلك لكنها ألحت عليه بسرعة الرجوع وقالت : « اذا أبطأت علينا سرنا اليك وبحثنا عنك فى بلاط الخليفة » قال : « حسنا » وخرج يتأهب لمقابلة المنصور، فصبغ لحيته وبدّل ثيابه ،كما كان حين قابله فى الحميمة منذ بضع سنوات ، وزاد على ذلك أنه تظاهر باصابته بالرمد ، وغطى عينيه بعصابة .. مبالغة فى التنكر ، لعلمه أن فى دار المنصور اناسا يعرفونه ، ولا سيما خالد بن برمك ، وكان قد رآه مرة فى بيت دهقان مرو ، والعينان أظهر ملامح الوجه وأدل على صاحبهما من سائر الأعضاء

أما المنصور فحالما أفضت الخلافة اليه ، تذكر منجم الحميمة وقال فى نفسه : « لو جاءنى لقربته مكافأة لبشارته » فما لبث — وهو ذات يوم فى داره بالأنبار — أن دخل عليه حاجبه الربيع وأنبأه بأن رجلا كفيف البصر يطلب المثول بين يديه على انفراد . فأشـار المنصور الى من فى حضرته من القواد فخرجوا وأذن بدخوله ، فدخل وهو مطرق يتوكأ على عكازه وقد شد عينيه بعصابة وبدت عليه مظاهر الضعف .. فلما أقبل على الخليفة سلم تسليم الخلافة ثم قال : « أشكر الله الذى أرانى صاحب القباء

الأصفر على كرسى الخلافة وان كنت أرمد »

فانتبه المنصور للرجل ، فوقف له وأخذ بيده حتى أجلسه على وسادة بين يديه وهو يقول : « مرحبا بالصديق القديم .. انى ما برحت منذ جلوسى هذا المجلس ، وأنا أفكر فيك وأرجو حضورك .. فاطلب ما تريد .. »

قال : « لا أريد شيئا يا أمير المؤمنين سوى تأييد دولتك وطول بقائك ، وقد أخبرتك يوم التقينا فى الحميمة انى سآتيك على غير انتظار ، وها أنا قد جئتك .. »

فقطع المنصور كلامه قائلا : « وما الذى أصاب بصرك ؟ »

قال صالح : « لست أدرى ماذا أصابه .. ولعلى ابتليت بهذه المصيبة لأنى لم أتمم المهمة التى جئتكم بها هناك كما ينبغى ، فلم أستطع تبليغ الرسالة قبل نفاذ الحيلة فى نجاة الامام — رحمه الله — ولكننى لم أتعمد ذلك كما تعلم . وعلى كل حال فما أنا فى حاجة الى البصر ، لولا رغبتى فى رؤية أمير المؤمنين »

فقال المنصور : « هل أدعو لك طبيبا يصف لك دواء ؟ »

فقال صالح : « كلا يامولاى .. فاننا معشر الزهاد لا نستعين على الأمراض بالعقاقير وانما ندفعها بالأدعية »

فقال المنصور : « فعسى أن يكون حضورك للاقامة عندنا هذه المرة .. »

فقال صالح : « دعيت اليك لأكون فى خدمتك الى أن تستغنى

عنى أو أموت ، فانى لا أرجو البقـاء طويلا ، ومثلى لا يليـق بمقابلة الخلفاء أو مخاطبتهم ، ولكننى علمت بما يحيق بدولتك من الأخطار لكثرة أعدائك وحسادك .. فأحببت أن يكون لى يد فى تأييدها ، على عجزى وقصر باعى .. »

فقال المنصور : « بل أنت صاحب الفضل الأكبر لأنك بشّرتنى بالخلافة وأنت لم تعرفنى ، فأحب أن تكون عندى الآن .. فاذا شئت جعلتك رئيس العرّافين »

فقـال صالح : « عفوك يامولاى ، فانى فضـلا عن عـدم استحقاقى لهذا المنصب لا أريد أن أسمى نفسى عرافا لأنى لا أحمل أدوات التنجيم ، وانما أقول ما يلقيه الىّ الهاتف أو يلهمنيه الله ، وقـد كنت أستعين بالنجوم ، فلمـا كف بصرى اكتفيت بالالهام ، فاذا شئت أن أكون فى خدمتك ضعنى فى حجرة من حجرات دارك ، أو فى مكان آخر لايرانى فيه أحد ، لأنى لا أرى أحدا »

فقال المنصور : « بل تقيم فى دارى لتكون قريبا منى » وصفق فجاء حاجبه الربيع فأمره أن يأخذ ذلك الزاهد الى حجرة منفردة فى داره ، ففعل وأمر بعض الخدم أن يقوموا بخدمته

أما المنصور فلما خلا بنفسه عاد الى دهائه وذكائه ، وطلاب السيـادة يومئذ يسـيئون الظن حتى فى أولادهم .. وبخاصة المنصور ، لفرط حذره وحزمه .. فلما رأى ذلك الزاهد يطلب

• الاقامة فى داره أساء به الظن .. وأحب أن يختبر صدق كرامته وولايته لئلا يكون دسيسة من أحد أعدائه ، فجعل يفكر فى رجل عاقل يختاره لامتحانه ، ولم يكن عنده أعقل من خالد بن برمك ، وكان مفضلا عنده ، والمنصور كثير الاعتماد على آرائه .. فبعث اليه فجاءه فأخبره بأمر الرجل الزاهد ، على أن يكون ذلك سرا لأنه اختاره عن سائر العرّافين ليستعين بآرائه عند الحاجة الى أن قال : « ولكننى أخشى أن يتعمد خداعى ، فلا يكون عنده علم ولا ولاية ، فادخل عليه وامتحنه » وأمر الربيع أن يأخذه الى حجرته

— ٧٤ —

كشف السر

فمشيا والمنصور معهما حتى أقبلا على الحجرة ، فدخل خالد وظل المنصور والربيع بالباب بحيث يسمعان ما يدور بداخلها . فلما سمع صالح وقع الأقدام داخل الحجرة تظاهر باعمال الفكرة ، أما خالد فلم يزد على أن قال : « السلام عليك » فعرفه صالح من صوته ، فأجابه على الفور : « وعليك السلام يا ابن برمك .. انك خير الوزراء لخير الخلفاء »

فدهش خالد لمعرفة اسمه وفرح لتسميته وزيرا ، فأصبح

يتمنى أن يعتقد المنصور فى كرامته فيعمل برأيه ويجعله وزيرا ، فالتفت خالد الى المنصور فرآه يشير اليه أن يغالطه ، فقال خالد : « وما ذنبى عندك حتى جعلت والدى مجوسيا ، فاذا كنت لم تعرفنى فقد كان ينبغى أن تصمت »

فضحك صالح وقال : « اذا كنت خالدا وقد وَلدَك برمك المجوسى ، فما هو ذنبى عندك .. على أن خروجك من صلب رجل غير مسلم لايمنع فضلك ؛ فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن أبوه مسلما .. واذا كنت تقصد اختبارى ، فاسألنى فأكشف لك ما يجول فى خاطرك حتى لايبقى عندك شك فى اخلاصى .. »

فأعجب خالد بذلك الجواب وسرّه وجود مثل هـذا الرجل فى بلاط الخليفة لعله يحتاج اليه فى شىء .. وكان ميّالا الى الاعتقاد بمهارته لأنه تنبأ له بمنصب الوزارة ، ولكنه خشىَ اذا طلب اليه قراءة ما فى ضميره أن يصرح بأمور لا يرضاها المنصـور ، والفرس لم تكن تخلو أفكارهم يومئذ من شىء على آل العباس ، فأحب تأجيل ذلك لخلوة يخلو بها معه . والتفت خالد الى المنصور فرآه يشير بالانصراف ، فرجعوا وقد رسخ فى أذهانهم صـدق ذلك الزاهد فى أقواله وكرامته فى استطلاع الخفايا ، وأوصى المنصور الربيع أن لا يأذن لأحد بمقابلته ، وظل صالح وحده وهو يظهر من الضعف قوة ، وقد سرّه أن يكون الممتحن خالد بن برمك لأنه مطلع على كثير من أحواله ويعرف صوته ، وخالد لم يخطر

بباله انه الضحاك الذى رآه فى منزل دهقان مرو منذ بضع سنين لاعتقاده انه قتل مع ابن الكرمانى

أما خالد فاشتغل خاطره بالزاهد ، وأراد مقابلته على انفراد لحاجة فى نفسه يريد أن يسأله عنها . فلما سمع الخليفة يوصى الربيع بمنع الناس عنه تقدم اليه أن يأذن له بمقابلتـه ، فقـال للربيع : « امنع الناس كافة الا خالدا » لأنه كان يحبه ويثق به ويعتمد على آرائه

فسرّ خالد بهذا الاذن ، وبادر فى صباح الغد فدخل على صالح فحيّاه .. فرحب به صالح وأثنى عليه ، وبشّره ومنّاه استجلابا لرضاه عنه واستدناه لاعتقاده به . فجلس خالد بين يديه وقال : « لقد جئت اليك فى أمر يهمنى الاطـلاع عليه ، فاذا كشفته فرّجت كربة كثيرين »

فقال صالح : « قل .. لعلى أستطيع ذلك باذن الله .. »

فقال خالد : « لى صديق وقع فى مشكلة لا دخـل لها فى السياسة أو الحرب ، وانما هى تتعلق بشخصه وشـخص آخر يحبه .. ولكنه لم يعد يعرف مكانه ، وهو يحب أن يعرفه »

فمد صالح يده حتى قبض على يد خالد وقال : « صرّح لى ، أو أعطنى أثرا من آثار ذلك الحبيب فأعرفه »

فقال خالد : « لاسبيل لى الى شىء من آثاره ، ولكننى أزيدك تصريحا .. أتعرف أبا مسلم الخراسانى ؟.. »

فاستبشر بذكر اسمه لعله يستفيد من حديث خالد عنه بما يعينه على الفتك به ، فقال : «ومن لايعرف صديقك أبا مسلم؟!»

فقطع خالد كلامه قائلا : « لا تقل صديقك ، لأن الخليفة ثائر عليه وقد اتهمه .. وأرجو أن لا تكون لى يد فى هذه التهمة ، ولذلك قلت انه سؤال لا علاقة له بالسياسة ولا بالحرب .. وانما مسألة أبى مسلم خاصة ، تتعلق بفتاة أحبته ولم يحبها فأساء اليها ، ثم ندم فأحب أن يقربها ، فلم يعثر لها على أثر .. ولا يزال يبحث عنها .. فهل تعرف مكانها ..؟ »

فلما سمع كلامه تذكر ما قالته جلنار عن موعد ابراهيم الخازن فعلم انه انما جاء للبحث عنها .. وتذكر ما لاحظه من عودة آمالها وتحرك قلبها ، وأيقن أن أبا مسلم ينوى قتله وأخذ جلنار منه ، والا لما كان ثمة باعث على فراره منه ، وقال فى نفسه : « لقد آن وقت العمل »

فلما فرغ خالد من كلامه ، كان صالح لايزال قابضا على يده فأطرق كأنه يفكر فى أمر هام ، ثم رفع رأسه وقال : « مسكينة جلنار .. كم أحبت هذا الخراسانى وخدمته ، وكم أساء اليها وعذبها .. فما الذى غيَّر شعوره نحوها ؟ »

فدهش خالد لذكره اسم الفتاة وملخص حديثها ، واقشعر بدنه وقال : « ان الذى غيَّر شعوره هو أنا .. لأنى كنت على علم بحبها له وتفانيها فى خدمته حتى قتلت زوجها لأجله ، ثم اتهم

أبومسلم والدها بالخيانة وقتله ، فجاءت لتعاتبه على انفراد ، ولم أكن حاضرا ، وفى صباح اليوم التالى أخبرنى بما كان من غضبه عليها وسجنها ، ورأيت فى كلامه ضعفا وتوسمت فيه ندما على ما فرط منه على غير عادته ، فأخذت فى تأنيبه وحببت اليه تقريبها والزواج بها فرضى وبعث يستقدمها من السجن ، فقيل له انها ليست هناك فبحث عنها فى دار الامارة ، وبث الناس فى أطراف المدينة فلم يقفوا لها على خبر ، فتحققنا انها هربت الى مكان بعيد ..

«وكنت شديد الرغبة فى معرفة أخبارها لاعتقادى انها مظلومة، وأحببت أن تنصف ، فحرضت أبا مسلم على البحث عنها فى الأطراف البعيدة .. فكلف رجلا يهوديا عنده أن يفتش عنها ، ووعده اذا جاء بها أن يعطيه مالا كثيرا ، فتنكر اليهودى وأخذ فى البحث حتى عثر عليها فى الكوفة بمنزل أبى سلمة وأوشك أن يظفر بها ، ولكنها غيّرت مكانها وكأنها طارت بين السماء والأرض .. فعاد الينا بهذا الخبر ، فغضب أبومسلم عليه ، وأرجعه للتفتيش عنها ثانية ، وقد جاءنى منذ بضعة أيام وأخبرنى انه لم يعثر عليها ، فهل هى على قيد الحياة ؟.. وهل تعرف مكانها ؟..»

وكان خالد يتكلم وصالح يتابعه فى الحديث كأنه مطلع على القصة .. فاذا توقف خالد أعانه بكلمة مما يعلمه ، وخالد لا يستغرب ذلك لما سبق الى ذهنه من الاعتقاد فى كرامته

فعلم صالح من سياق الحديث انهم لم يكونوا يعلمون ببقائه

حيا ، ولا أخبرهم ابراهيم بذلك خوفا من ضياع فضله فى قتله ، مع انه ينبغى أن يكون قد علم هو ببقائه حيا فى اليوم الثانى لمقتل ابن الكرمانى ، اذ لم يجدوا جثته هناك .. وعلم أيضا أن ابراهيم قريب من ذلك البلد أو ربما كان فى بلاط الخليفة ، فأحب أن يتحقق من ذلك فقال : « انها على قيد الحياة ولا يصعب على معرفة مكانها ، انما يحتاج ذلك الى مهلة قليلة ، ويلوح لى انها ليست فى مكان بعيد من هنا ، ألم تسأل العرّافين عن ذلك ؟ »

فقال خالد : « سألت غير واحد ، فاختلفوا وتناقضت أقوالهم وليس فيهم من يعتمد عليه برغم رغبة أمير المؤمنين فى الاستكثار منهم للاستعانة بهم .. ولم أجد بينهم أحدا مثلك »

فقال صالح : « ان أكثر عرّافى هذا الزمان ينتحلون الصناعة لابتزاز الأموال ، ويخبطون فى أقوالهم خبط عشواء .. وانما هى موهبة يختص الله بها أناسا ، وقلّما يستطيعها أحد بالاجتهاد ، على أن بعضهم يتخذها وسيلة لغرض خاص ، كما يفعل العرّاف حاييم »

فضحك خالد لمعرفة صالح ذلك الاسم الجديد وقال : «مسكين حاييم .. أين هو من التنجيم ؟.. ومع ذلك فهو منخرط فى جملة عرّافى المنصور يقبض مرتبا مثل مرتباتهم »

فعلم صالح أن صاحبه فى بلاط الخليفة من جملة العرّافين ، فسكت وتزحزح من مكانه .. فأدرك خالد انه قد حان انصرافه ،

فنهض وودعه وأوصاه أن يكتم ما دار بينهما ، فوعده بذلك وانه سيخبره عن مكان جلنار بعد بضعة أيام ، فخرج خالد وقد تولته الدهشة .. اذ لم يكن يظن أن مثل هذا الرجل يوجد فى الأرض، فذهب توا الي داره وبعث الى ابراهيم اليهودى ، فلما جاء سأله : « هل وجدت الفتاة ؟ » فأجاب : « كلا .. »

فقال خالد : «قد وجدت عرافا يستطيع الوقوف على مكانها»

فقال ابراهيم اليهودى : « ومن هو ؟ أريد أن أراه .. »

فقال خالد : « لا سبيل لأحد اليه فان أمير المؤمنين لايأذن فى الدخول عليه لأحد ، وقد طلبت مقابلته من أجل هـذا الأمر ، فلمست فيه مهارة غريبة .. ولم أكد أسأله عن الفتاة حتى تلا عليّ خبرها وعرف مساعيك ، وانك انتحلت صناعة العرّافين لهذه الغاية وان اسمك كعرّاف حاييم ، ونحو ذلك مما أدهشنى ، وكنت أود أن تلقاه لولا ما ذكرته لك من تشديد الخليفة فى منع مقابلته »

وكان ابراهيم يسمع كلام خالد وهو يفكر فى من عساه أن يكون هذا العرّاف ، فلما سمع ما قصه عليه من معجزاته تبادر الى ذهنه انه عرّاف كاذب مثله ، ولم يستبعد أن يكون هو صاحبه الضحاك ، وقد تحقق من بقائه حيا فى الكوفة يوم أن التقيا بباب أبى سلمة وتناكرا ، فسأل خالدا عن شكل الرجل وملبسه فأخبره ان على عينيه عصابة ، وان لحيته محناة ، فسأله

عن قامته فقال : « لم أره واقفا .. ولكن يظهر انه طويل » فلم يشك ابراهيم انه صاحبه بعينه وبخاصة لتنكره بالرمد ، فانها حيلة تعلمها الضحاك منه يوم أن التقوا ومعهم القصاص فى معسكر شيبان بضواحى مرو .. فتجاهل ، ولم يبد أية ملاحظة .. ولكنه عزم على الحذر .. فصرفه خالد وعاد وهو متعلق الذهن بذلك الزاهد ، وأحب أن يلقاه ثانية فبكر اليه فى الغد ، وأخبره انه التقى بابراهيم وانه أطنب له فيما شاهده من كرامته ومهارته

فلم يفرح صالح بما سمعه من هذا الاطناب ، وساءه ما قاله عنه لابراهيم خشية أن يدعوه ذلك الى الشك فيه لعلمه انه لم يطلع أحدا على تلك الحقائق غيره .. على انه كتم استياءه ، وأثنى على خالد ، وعمد الى اجتذاب قلبه اليه كما اجتذب قلب المنصور قبله بتبشيره بما تتوق اليه نفسه ، وكان خالد يطمع فى الوزارة وهو أكفأ حاشية الخليفة لها ، فقال له صالح : « ان الله سيكافئك على سعيك فى التوفيق بين هذين المحبين بأكبر منصب تطمح اليه الأبصار بعد الخلافة » فأدرك خالد انه يبشره بالوزارة فانشرح صدره ، ولكنه تذكر ما يحول دون ذلك من انشغال المنصور بأبى مسلم .. اذ خشى أن ينتقم المنصور بسببه على سائر رفاقه القواد فيلحقه نصيب من تلك النقمة ، فأراد أن يستفتى الزاهد فى ذلك فقال له : « أحب أن أستفتيك فى مسألة أخرى تهمنى وقد شغلت بالى ، وبالطبع أرجو أن يكون ذلك سرا بينى

وبينك »

فقال صالح : « قل .. لا تخف »

فقص عليه خالد سبب غضب المنصور على أبى مسلم ، وانه ينوى القبض عليه خوفا منه .. وأطلعه على تفاصيل لم يكن يعرفها ، ثم سأله : « هل تظن أن المنصور يجعل نقمته عامة على سائر أنصاره ؟ »

فأطرق وهو يعمل فكرته ، ثم قال : « كلا .. لأن المنصور لم يتغير على أبى مسلم لأنه قام بدعوته بل لأنه طمع فى الملك لنفسه .. وهب انه نقم على سائر الخراسانيين ، فلن ينقم عليك »

فاطمأن باله وخرج مسرعا خشية أن يأتى المنصور فيراه هناك

— ٧٥ —

المنصور وأبو مسلم

وظل صالح ينتظر مجيء المنصور ، فما لبث أن جاءه وحده ودخل عليه خلسة حتى دنا منه وقبض على يده ليبغته ، فلم يبغت لعلمه انه لايجرؤ أحد على ذلك غير الخليفة ، وكان قد سمع صوته من عهد قريب بجوار حجرته فقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله »

فقال : « وعليك السلام .. كيف ترى حالك ؟ »

قال : « أرانى فى نعيم والحمد لله لصدق بشارتى ، ويسرنى أن

أرى أمور المسلمين فى قبضة أمير المؤمنين أيده الله . ولكن هل تذكر عبارة قلتها لك يوم تلك البشارة ؟ .. »

قال المنصور : « اذكر كلامك كله ، ولم أنس منه حرفا .. أظنك تعنى الظلمة التى تحدق بخلافتى »

قال : « نعم .. هذا ما أعنيه وقد عرفته قبل وقوعه وأظنه وقع ، فلماذا تكتمه عنى ؟ »

قال المنصور : « لم أكتمه وقد جئت الآن بشأنه ، ولكن ما هى الظلمة التى تعنيها ؟ »

قال : « أتمتحننى يا أبا جعفر ؟ ان الظلمة التى أعنيها انما هى مطامع الناس فى خلافتك ، وبعضهم فى الحجاز ، والبعض الآخر فى خراسان ، وآخرون فى هذه المدينة ، بل فى قصرك يؤاكلونك ويشاربونك »

فجاء كلام صالح مطابقا لما فى نفس المنصور كل المطابقة لأنه كان يخشى العلويين فى الحجاز بعد أن بايعهم على أن تكون الخلافة بعد بنى أمية لمحمد بن عبد الله الحسنى ، وأراد المنصور نكث البيعة وحصر الخلافة فى بنى العباس ، وكان يخشى أبا مسلم اذا أقام بخراسان لأنه قادر على نقل الخلافة ، والناس يطيعونه . وكان يخاف بعض أهله على الخلافة وفيهم أعمامه وأبناء عمه وهم مقيمون معه يؤاكلونه . فلما سمع ذلك من صالح ، زاد يقينا بكرامته ومهارته فقال : «صدقت ، انى أخافهم الأقرب فالأقرب»

يعنى بعض أعمامه

قال صالح : « ليس أدعى للخوف من ذلك الخراسانى الفتاك»

قال المنصور : « تعنى أبا مسلم ؟ »

قال صالح : « اياه أعنى .. فان نجمه فى أسمى المطالع ، ولو استنهض الحجارة لنهضت معه ، ولو حارب الأبالسة لغلبهم .. هذا الذى يخشى بأسه ، ولكننى أرى نجمك أسمى من نجمه ، وسعدك أبقى من سعده .. »

قال المنصور : « ولا أخفى عنك ما فى نفسى من هذا الخراسانى فقد كنت أخشاه من أيام أخى السفاح ــ رحمه الله ــ فأشرت عليه أن يحبسه فلم يطعنى ، ولما أفضت الخلافة الىّ رأيت منه انحرافا ، وبلغنى عنه أمور أغضبتنى وخوّفتنى ، فاستخدمته فى محاربة عمى عبد الله الطامع فى الخلافة ، وضربت أحدهما بالآخر فمن قتل منهما نجانى الله منه ، ففرّ عمى وفاز أبومسلم بما فى عسكره من الغنائم .. فبعثت اليه أطلب الغنائم فغضب وقال : « انى خوّنته» وأخبرنى الرسول انه شتمنى . فلما رأيت هذه الجرأة خشيت اذا سار الى خراسان أن يعصانى .. فبعثت اليه وهو فى الجزيرة انى وليته الشام ومصر ، وطلبت اليه أن يأتينى فأجابنى جوابا يدل على خوفه منى وهذا نصه :

« لم يبق لأمير المؤمنين ــ أكرمه الله ــ عدو الا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون

الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون عن قربك حريصون على الوفاء لك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وان أبيت الا أن تعطى نفسك ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى »

« فلما قرأت كتابه كتبت اليه وأظهرت له انه مخطىء ، فأصرّ على الامتناع ومضى الى حلوان .. وجاءنى منه كتاب جمع بين الاحتجاج والاعتذار هذا نصه :

« أما بعد فانى اتخذت رجلا اماما ودليلا على ما افترض الله على خلقه ، وكان فى محلة العلم نازلا وفى قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا فاستجهلنى بالقرآن فحرّفه عن موضعه طمعا فى قليل قد نعاه الله الى خلقه ، فكان كالذى ولانى بغرور ، وأمرنى أن أجرد السيف ، وأرفع الرحمة ، ولا أقبل المعذرة ولا أقيل العثرة .. ففعلت توطئة لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان يحملكم ، ثم أنقذنى الله بالتوبة فان يعفو عنى فقد فعل ما عرف به ونسب اليه ، وأن يعاقبنى فبما قدمت يداى وما الله بظلام للعبيد » فأشكل علىّ أمر هذا الكتاب فجمعت العرّافين منذ بضعة أيام ، وطلبت اليهم استطلاع ما فى نفس الرجل ، فأحسنوا الثناء عليه وقالوا : « انه تاب عما كان فيه ، واذا أحسنت الظن به وقربته نفعك » فأمسيت فى حيرة من الأمر ، هل

اليه الآن » .. قالت ذلك وأطرقت ..

فرفعت جلنار نظرها الى ريحانة وتفرست فى وجهها لعلها تفهم شيئا مستترا وراء تلك العبارة ، فرأت ريحانة مطرقة وفى وجهها ملامح الارتياب فقالت لها : « وماذا تعنين بذلك ؟ »

قالت : « لا أعنى شيئا .. ولكننى أقول ما يجول فى خاطرى ، وأنت تعلمين انى أرغب فى حفظ كرامتك . وعلى كل حال فان زفاف الفتاة من بيت أبيها أحفظ لكرامتها ، غير انى لا أشك فى مقاصد أبى مسلم فى شأنك ، ولكننى أحسبه مشتغلا الآن بتدبير شئونه بعد هذا الفتح .. فذهابك الى بيت أبيك ، والانتظار ريثما يفرغ أبو مسلم من مهام الدولة لا يقلل شيئا من حبه لك أو رغبته فيك .. »

وبينما هما فى ذلك ، اذ سمعتا نحنحة فى وسط الخباء .. فأجفلتا ثم عرفتا انها نحنحة الضحاك ، فهرولت ريحانة وهى تتعثر فى أذيالها من البغتة والفرح ، وظلت جلنار جالسة فى الفراش وقلبها يكاد يطير من شدة الخفقان ، ثم رأت ريحانة عائدة ورجل يتبعها بقيافة غير قيافة الضحاك ، وقد تنكر فى ثوب آخر هو عبارة عن قلنسوة طويلة بدون عمامة ، وجبة سوداء طويلة مثل زى أهل خراسان ، وقد قص لحيته وأطراف حاجبيه وقطبهما .. فذهبت من وجهه امارات المجون ، وأبطل التضاحك بحيث لا يراه أحد الا أنكره

فلما عرفته جلنار ، هشّت له كما تهش لأقرب الناس اليها ، وابتسمت وهي تقول : « لقد صدق ظني .. انك لا تتركنا في هذه الحالة .. ما الذي أصاب ذلك الرجل ؟.. هل تظنه يموت ؟ »

قال : « أظنه قد مات ، لأني رأيت أهل فسطاطه في هرج واضطراب .. »

قالت : « فما العمل الآن ؟ »

قال : « أرى أن ترجعي الى بيت سيدي الدهقان »

فلما سمعت ريحانة قوله ، التفتت الى سيدتها .. ولسان حالها يقول : « ألم أقل لك ذلك ؟ »

فقالت جلنار : « وكيف نذهب ؟ »

قال : « نذهب بأخف ما عندنا وأنا أدبر ذلك ، ولكني أتوسل اليك منذ الآن أن تكتمي أمري عن كل انسان »

فاستغربت طلبه وقالت : « وماذا تعني ؟ »

قال : « أعني اني رهن اشارتك ولا أزال عبدك وخادمك بكل ما تأمرين .. ولكنني لا أحب أن يعلم أحد في الدنيا اني لا أزال حيا ولا تسأليني عن السبب الآن .. أما اسمي الجديد فهو صالح .. »

فقالت : « سأفعل ذلك .. فما العمل يا صالح ؟ »

قال : « سأعد كل شيء حتى تتمكن من الرحيل في الصباح باكرا والناس في شغل عنا »

قالت : « ألا ترى أن ننتظر الى غد لعل أبا مسلم يبعث بمن يحملنا اليه ؟ »

قال : « الأمر راجع اليك .. اذا شئت بقينا ، ولكننى لا أرى أبا مسلم يبعث اليك غدا ولا بعد غد .. »

فلم تستغرب قوله لأنها سمعت مثله من ريحانة ، ولكنه لم يعجبها فقالت : « وكيف لايبعث الى وأنت قلت لى انه انما أجل اجتماعنا ريثما يفرغ من الحرب ، ويقتل هذا المسكين على يدنا فأطعناه .. فهل من سبب آخر للتأجيل ؟ »

فقال : « لا .. ولكن أبا مسلم اليوم فى شغل عظيم من أمر هؤلاء اليمنية بعد مقتل أميرهم ، فاذا لم يتدبر أمرهم خشى عصيانهم أو انحيازهم الى الخوارج . ومهما يكن من الأمر فان الذهاب الى بيت أبيك أحفظ لكرامتك ، وليس ثمة ما يمنع أبا مسلم من أن يطلبك من مولاى الدهقان فتزفين اليه معززة مكرمة .. »

فلم تر بدا من طاعته ، فأذعنت وأشارت اليه أن يفعل ما يشاء

فقال : « مرى الخدم أن يطيعونى ولا تقولى لهم انى الضحاك»

فأشارت الى ريحانة أن تفعل ماقاله .. فخرجت ريحانة ، وقالت لقيّمة الخباء : « ان هذا الرجل بعث به مولانا الدهقان الليلة ليرجع بنا اليه فى الصباح فاعملوا باشارته » فأخذ الضحاك فى تدبير ما يلزم استعدادا للمسير

– ٤٨ –

عريس جديد

أما الدهقان ، فقد عُرف انه زوج ابنته بابن الكرمانى ، طمعا فى الكسب على يده ليقينــه بقوة الكرمانى وكثرة رجــاله ، ولاستخفافه بأبى مسلم لقلة رجاله وصغر سنه ، وأضمر فى نفسه انه اذا انقلبت الآية ورجحت كفة أبى مسلم تقرب اليه بالأموال والرجال . فكان لا يغفل عن استطلاع أحوال الجنود المعسكرة حول مرو وكانت الأخبــار تأتيه تباعا ، وكلها تدل على نجاح الخراسانيين وتغلبهم . حتى اذا جاءه الخبر بدخول أبى مسلم مرو بمساعدة ابن الكرمانى مع بقاء هذا فى معسكره ، تحقق من فوز الخراسانيين ، ونبث يتوقع فرصة يتقرب بها من أبى مسلم ، وهو يظنه غير عالم بزفاف جلنار الى ابن الكرمانى .. فلما وصله نبأ دخول أبىمسلم الى مرو ، بعث اليه بالهدايا والأموال، وكتب اليه يهنئه بالنصر وانه بذل جهده فى جمع كلمة الدهاقين على نصرته

كل ذلك وهو لايعلم بموت ابن الـــكرمانى : ثم جاءه الخبـــر بمجىء ابنته ، فخرج لاســـتقبالها وقبّلهـا ورحب بها وبالغ فى الترحاب ، وهو يعجب لمجيئها . ولمــا سألها عن سبب مجيئها لم تتماسك عن البكاء ؛ فأجابت ريحانة أنها ستخبره عن السبب فى خلوة . فأخرج من فى حضرته من الناس ، فقالت ريحانة : « ان

مولاتى الدهقانة تبكى حرقة على سوء حظها .. »

قال : « ولماذا ؟.. ماذا جرى ؟ »

قالت : « ان خطيبها توفى فى هذا الصباح فجأة »

قال : « على بن الكرمانى مات ؟ »

قالت : « نعم ياسيدى .. مات فجأة على غير انتظار »

فأطرق وهو يحك ذقنه وأعمل فكرته ، وقد تأكد من انتصار الخراسانيين وفشل العرب ، فذهبت بقية آماله ونظر الى جلنار فاذا هى مطرقة تبكى ، فظنها تبكى على عريسها وهى انما تبكى شوقا لحبيبها وخوفا من ضياع آمالها ، لأنها كانت تتوقع أن ترى منه اهتماما بأمرها ولم تكن تنتظر انشغاله عنها الى هذا الحد ، فلما رآها الدهقان تبكى حن لها وقال : « لاتبكى ياجلنار ولا بأس عليك .. » ثم وجه خطابه الى ريحانة وقال : « سمعتك تسمين ابن الكرمانى خطيبا ، وأنت تعلمين اننا عقدنا له عليها وزففناها اليه .. »

قالت : « نعم .. ولكنه لم يتزوجها بعد » وقصت له ما كان من اشتراطه على نفسه فتح مرو قبل الاقتران ، وانه مات فى الغد بغتة

فلما علم بذلك ، تبدد احساسه بالفشل والندم ، ورأى فى عودة جلنار اليه على تلك الصورة بابا جديدا للتقرب الى أبى مسلم ، لاعتقاده ان أبا مسلم يرغب فى مصاهرته . فنظر الى جلنار وهو

يبتسم ليزيل عنها اضطرابها وقال : « لابأس عليك يا بنتاه ، انى سأعوض عليك من ابن الكرمانى من هو خير منه وأقرب الينا وطنا ولغة ومشربا »

فأدركت جلنار انه يشير الى أبى مسلم فانشرح صدرها ؛ وعادت آمالها الى الانتعاش لأن أباها صار عونا لها فى الوصول الى حبيبها ، وأمنت من الجهة الأخرى انها ان تزوجت أبا مسلم بغير علمه فقد يغضب ، ويعد عملها خروجا عن طاعته.. فلما سمعت قوله قالت : « انك تعزيتى الوحيدة يا والدى . ومن كانت لها أب مثلك لا بأس عليها .. وأنت تعلم انى طوع ارادتك فى كل ما تريد »

فأشار اليها أن تذهب الى غرفتها للراحة من تعب السفر .. فنهضت وريحانة تسير بجانبها فاذا بوالدها يقول : « وأين الضحاك ؟.. انى لا أراه معكم .. »

قالت ريحانة : « لا ندرى ماذا أصابه ، فقد ذهب بالأمس ونحن فى معسكر الكرمانى ثم لم نره ..؟ »

قال : « لقد رأيت معكم رجلا عليه القلنسوة والجبَّة .. فمن هو هذا ؟ »

قالت : « هو رجل من أهل مرو اسمه صالح جاءنا به ابن الكرمانى يوم الفتح وأضافه الى الخدم بدلا من الضحاك ، ولا بأس به »

وأخذ الدهقان يفكر فى السبيل المؤدى الى نيل الحظوة فى عينى أبى مسلم بعد أن أصبح له الأمر والنهى فى خراسان ، فصمم بعد طول التفكير أن يهديه الهدايا ويزوجه ابنته ، ولكنه رأى أن ينتظر جوابه على تهنئته التى أرسلها اليه يوم الفتح

لبث فى الانتظار يومين ، وفى اليوم الثالث جاءه رسول أبى مسلم ومعه كتاب يثنى فيه عليه ويستقدمه اليه ليقيم بين يديه . فلما تلا الكتاب ، لم يتمالك أن أسرع الى جلنار وأطلعها عليه ، فكان سرورها أعظم من سروره ، ولكنها أحبت أن تثق من أمر مسيرها معه فقالت : « وهل أنت عازم على السفر الى مرو ؟ »

قال الدهقان : « وهل أستطيع غير ذلك ؟ »

قالت ريحانة : « ومتى تذهب ؟ »

قال الدهقان : « ربما ذهبت غدا »

قالت ريحانة : « ألا تحمل اليه الهدايا والأموال ؟ »

قال : « لابد من ذلك لأن الرجل أصبح ملك خراسان وأظن أن دعوته ناجحة لا محالة ، فيجب أن نبذل كل جهدنا فى التقرب منه .. وأرجو أن تساعدينى على ذلك »

قالت ريحانة : « اذا كنت أستطيع مساعدة ، فانى فتاتك ورهن اشارتك »

قال : « وأبومسلم اذا أطعتنى فيه ، لم يبق شك فى فوزنا على يده لأن النصر قد تقرر له ، وقد أخبرنى الرسول حامل الكتاب

ان الخوارج أجلوا عن مرو ، ورجال الكرمانى الذين بقوا أحياء بعد موت قائدهم انضموا الى جند أبى مسلم ، وهو الآن زعيم القوم وأمير مرو ، ولا يلبث أن تذعن له سائر بلاد خراسان وما وراءها لأن رجاله لم ينفكوا وهو محاصر مرو يفتحون البلاد ويضمون اليهم العباد ، يبايعون لأهل البيت ويلبسون السواد .. فالتقرب منه مفيد ، ولا أظنك تخالفيننى فيه ؟ »

فأدركت انه يشير الى أمر زواجها به فقالت ، وقد أشرق وجهها سرورا ، رغم ماتكلفته من السذاجة : « اذا كنت لم أخالفك فى ابن الكرمانى وهو بعيد عنا جنسا ولغة ، فكيف برجل خراسانى وهو كما وصفته ؟ !.. فاذا أمرتنى أطعتك .. »

قال : « بورك فيك من ابنة مطيعة حكيمة » وضمها الى صدره وقبلها ثم قال : « سأذهب اليه فى الغد ، وسأغتنم أول فرصة لمخاطبته فى شأنك .. ثم أبعث اليك فتأتى فى موكب يليق بمقامنا »

فعلمت انه لاينوى اصطحابها ، فرضيت بما أراده ، وانتعشت آمالها ، فأظهرت الارتياح الى رأيه .. ولكنها كانت تفضل الذهاب معه فقالت : « وماذا يحدث لو أننى سرت معك ، فأدخل مرو وأتفرج على مناظرها ريثما يتم لك ما تريد .. »

فأطرق لحظة ثم قال : « لابأس من ذهابك معى فأنزلك عند صديق لى من دهاقين مرو ، أعرف انه يقيم فى قصره بجوار دار الامارة »

ففرحت جلنار بذلك وظهر الفرح على وجهها ، فأمر الدهقان خازنه أن يعد الأموال ليحملها معه الى مرو ، وأن يعدوا الهدايا من الرقيق ، والثياب ، وغير ذلك ..

– ٤٩ –

مجلس أبى مسلم

وفى صباح اليوم التالى ، ركب فى كوكبة من الفرسان .. وجعل الهدايا فى حملة تسير فى أثره ومعها هودج جلنار وريحانة ، ومشى صالح مع الخدم . وفى الضحى وصل الموكب الى مرو يتقدمه رسول أبى مسلم .. فدخلوا المدينة وساروا حتى أقبلوا على دار الامارة ، فأمر الدهقان أن ينزلوا جلنار فى قصر صديقه بقرب تلك الدار فأنزلوها ، وترجّل هو ، ورجال حاشيته يمشون بين يديه وعليهم الملابس الفاخرة ، وبمناطقهم السيوف المحلاة بالذهب كأنهم بين يدى ملك ، فمشوا على هذه الصورة فى فناء الدار، والناس يوسّعون لهم ، حتىأقبلوا الى باب القصر وعليه الحراس ، فاستأذنوا للدهقان بالدخول فأذن له أن يدخل وحده وأن ينصرف رجال حاشيته الى دار الضيوف ، فدخل الدهقان وعليه قلنسوة حولها عمامة موشاة بالذهب ، وقد تزمل بجبة من الخز فوقها مطرف من الحرير المزركش يساوى مالا كثيرا ،

وكان قد نزع سيفه وسلمه الى أحد الخدم السائرين بين يديه

دخل القصر ومشى فى الصحن الداخلى حتى وصل الى القاعة التى ينعقد فيها مجلس أبى مسلم ومعه نقباؤه وقواده . فدخل الدهقان القاعة ، وفى صدرها أبومسلم على كرسى ، والى جانبه خالد بن برمك وسليمان بن كثير وجماعة من النقباء ، فلما أقبل على أبى مسلم رحب به فحيّاه وتقدم ، فأمر له بالجلوس بين يديه ؛ فجلس متصدرا وأعاد التحية .. فقال له أبو مسلم بالفارسية : « نشكرك على هداياك أيها الدهقان »

قال : « انى لم أهد شيئا ، وانما قدمت ما يجب علىّ لأن المصلحة واحدة »

قال أبو مسلم : « بل أنت تفضلت .. ولا ننسى ضيافتك يوم نزلنا عندك »

فانشرح صدر الدهقان لذلك الثناء وقال : « كل ذلك واجب وقد فعلته لأن الدعوة التى قمتم بها ينبغى على كل خراسانى أو فارسى أن ينصرها لأنها هى نقمة الفرس على العرب »

فنظر أبومسلم الى خالد فرآه ينظر اليه ، ثم حوّلا نظرهما الى الدهقان فاذا هو يزداد تصدرا ويده فى لحيته يمشطها بأنامله فقال له أبو مسلم : « هل كنت تعلم بذلك قبل الآن ؟ »

فاستغرب الدهقان هذا السؤال وأوجس منه خيفة لعلمه أن أبا مسلم قليل الكلام كثير المعانى فقال : « كيف لم أكن أعرفه ؟

ألا تذكر مجلسنا تلك الليلة يوم تلوت علينا وصية الامام وتعاقدنا على نصرة هــذه الدعــوة لأنها دعوة يجب على كل فارسى نصرتها ؟ »

قال أبو مسلم : « أتذكر نص تلك الوصية ؟ »

قال : « أذكر فحواها .. »

قال أبو مسلم : « وما فحواها ؟ »

فتعجب الدهقان من تدقيقــه وازداد خوفا مما وراء ذلك ؛ ولكنه تظاهر بالاستخفاف وقال : « أذكر انه يوصيك أن لا تبقى فى خراسان لسانا عربيا وأن تقتل كل من شككت فيه »

فنظر أبو مسلم الى الدهقان نظر المتفرس ، فلم يطق الدهقان صبرا على تلك النظرة خوفا من عواقبها ، فأطرق .. فقال له أبو مسلم : « وهل عملت بهذه الوصية ؟.. هل سعيت معنــا على العرب أعدائنا ..؟ » .. قال ذلك بنغمة المرتاب وتجاهل العارف

فتجلد الدهقان وقال : « كيف لا وأنا لم أدخر وسعا فى بذل الأموال واستنهاض الدهاقين لنصرة هذه الدعوة » وكان الدهقان يظن أن أبا مسلم لا يعلم بزفاف جلنار على ابن الكرمانى كما تقدم ..

فقال أبومسلم : « أمن نصرة العجم على العرب أن تزف ابنتك الى ابن الكرمانى ومعها الهدايا من الرقيق والمال ؟ »

فوقع الرعب فى قلب الدهقان ، ولم يعلم بماذا يجيب .. وبدت البغتة فى وجهه ، ورقصت لحيته وارتعشت أنامله .. ولكنه تجلد وقال وهو يضحك : « ان زفاف ابنتى الى ذلك العربى انما كان قبل الاجتماع المذكور »

فقال : « ألا تذكر ان الفتاة كانت فى بيتك ليلة ذلك الاجتماع وقد جالستنا ؟ »

فارتبك الدهقان فى أمره ، وأخذ يتشاغل باصلاح قلنسوته ومطرفه ، ويبلع ريقه ويتنحنح وقد امتقع لونه ولم يسعه السكوت فقال : « أعنى اننا عقدنا قبل تلك الليلة ، ورأيت من الفتاة رغبة الى ابن الكرمانى ، فسايرتها فيما ترضاه لأنها وحيدتى »

قال أبو مسلم : « أصحيح ما تقوله ..؟ »

قال : « هذا هو الصحيح ورأس الأمير »

فقال أبو مسلم : « واذا كنت كاذبا ؟ »

قلما سمع الدهقان ذلك زاد رعدة حتى صار ينتفض ، والتفت الى من حوله من القواد والنقباء لعله يجد بينهم من ينصره ، فرآهم مطرقين لايستطيع أحد منهم أن يتفوه بكلمة .. فلم ير بدا من الجواب لأن السكوت اقرار بالكذب ، ولم يكن يخطر له أن أبا مسلم مطلع على سر ابنته فقال : « حاشا لى أن أكذب بين يدى الأمير »

فقال أبومسلم : « ان العقد لم يتم الا بعد زيارتنا ، وابنتك لم تكن راضية بذلك العربى ، وانما أنت رضيته لها .. استخفافا منك بدعوتنا وتزلفا الى العرب ، وقد جادلتك هى فى شأنه فى الليلة التى كنا فيها عندك وأنت عازم على زواجها منه »

فلم يبق أحد من الحضور حتى خالد بن برمك الا وقد دهش لاطلاع أبى مسلم على هذه التفاصيل مع اشتغاله بمهام القيادة العامة وتدبير شئون تلك الدعوة ، وجعلوا يتلفتون بعضهم الى بعض والدهقان يكاد يموت خوفا ، وقد جمد الدم فى عروقه وود لو خسفت الأرض وابتلعته فى تلك اللحظة ، ولم يحر جوابا

وساد الصمت على تلك الجلسة هنيهة ، والجميع هادئون لايتحركون كأن على رءوسهم الطير ، لو داهم أحدهم السعال لبلع ريقه تسكينا لما يحتك فى أعلى الصدر . ثم قطع أبو مسلم السكوت وقال وقد وجه خطابه الى النقباء : « فما قولكم فى هذا الخراسانى الذى سمع وصية الامام بابادة العرب ، فنصرهم وصاهرهم .. ثم يقول انه ينصرنا ؟ »

فلم يجب أحد منهم بكلمة لعلمهم انه لايستشيرهم ، وانما هو يهدد الدهقان ، ثم قال له : « فأنت اذن لم تحفظ وصية الامام ، فبدلا من أن تنصر الخراسانيين نصرت العرب وقد نصرنهم وهم أعداؤنا . أما أنا فلا يمكننى الا حفظ تلك الوصية وخاصة آخر فقرة منها ، أتعلم ما هى ؟ »

فأدرك الجميع مراد أبى مسلم حتى الدهقان نفسه ، وفهموا انه يشير الى قول الامام : « من شككت فيه فاقتله » فنظر الدهقان الى أبى مسلم نظر المستغيث . فقال أبو مسلم : « ان طاعة الامام أولى من طاعة كل انسان ، وهو أوصانى أن أقتل كل من أشك فيه ، وقد شككت فيك .. فلا يمكننى سوى قتلك » ثم نظر نحو الباب فدخل أربعة ، على كل منهم درع من الجلد الى أسفل الركبة عليها رشاش من الدم ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة ذات شعبتين عليها شىء من آثار الدماء ، وحول الدرع منطقة من جلد علق فيها سيف

فلما دخلوا علم الدهقان انهم الجلادون ، وسمع أبا مسلم يقول لهم : « خذوا هذا الخائن الى خوارزم »

فعلم الدهقان انه يأمر بقتله ، فنهض وترامى على قدمى أبى مسلم .. وجعل يتضرع ويتوسل وهو يبكى ويقول : « اصفح يامولاى عن ذنبى ، فأعطيك كل ما أملك »

فأجابه أبومسلم ، وهو ينظر الى سقف القاعة ، وقال بصوت ضعيف : « انمالك لنا .. سواء قتلت أو بقيت حيا..» فلما لم ير الدهقان اصغاء من أبى مسلم تحوّل الى خالد بن برمك وترامى عند قدميه واستشفعه .. فرّق خالد له ، ولم يكن أحد يجرؤ على مراجعة أبى مسلم فى شىء غيره ، فهمس فى أذنه كلاما فقال أبومسلم : «قد أجلنا قتله الآن، خذوه الىالسجن لننظر فىأمره»

فتقدم الأربعة وساقوا الدهقان بين أيديهم حتى خرجوا من باب سرى يؤدى الى غرفة مظلمة جعلوه فيها ولا سبيل لأحد اليه

— ٥٠ —

الشفاعة

أما جلنـــار فانها نزلت فى قصر ذلك الدهقـــان بجوار دار الامارة ، وقد استأنست بقرب الحبيب . فأنزلها صاحب القصر بين نسائه ، فلقيت عندهن كل اكرام وترحيب .. وخاصة من الدهقانة صاحبة المنزل لأنها كانت تعرفها وتعرف والدتها قبلها ، على ان جلنار كانت لا تستأنس بأحد لاشتغال خاطرها بأبى مسلم وما عسى أن يدور بينه وبين والدها بشأنها ، وكانت تنتهز الفرص لتخلو بريحانة وتحدثها فيما يهمها من الشئون ريثما يعود والدها من تلك الزيارة . وحان موعد الظهر وأهل البيت ينتظرون مجىء الدهقان ليتناولوا الطعام معا . فلما أبطأ ظنوه تناول طعامه على مائدة الأمير ، فتناولوا طعامهم . وكانت جلنار أكثرهم قلقا على غيابه ، ليس خوفا على حياته لأن ذلك لم يخطر ببالها ، بل حبا فى معرفة ما يدور من الحديث بصددها

قضت بقية ذلك النهار وهى على مثل الجمر ، وريحانة تعدها وتمنيها حتى أمسى المساء ، فلاحظت على أهـــل القصر تغيرا

ورأتهم يجتمعون ويتسارون ، واذا رأوها تظـاهروا بالمجاملة والمحاسنة فاشتغل خاطرها وشكت ذلك الى ريحانة ، فقـالت لها : « وأنا لاحظت ذلك عليهم .. »

فقالت جلنار : « لابد من أمر حدث لوالدى .. »

وما أتمت كلامها حتى جاء أحـد الخدم يقول لجلنار : « ان أحد خدمكم بالباب .. »

فنهضت ريحانة وتبعتها جلنار حتى أقبلتا على الباب ، فاذا هناك صالح (أى الضحاك) وفى وجهـه أثر البغتة ، فقـالت ريحانة : « ما وراءك ؟ »

قال : « أدخلانى الى مكان لايسمعنى فيه أحد سواكما .. »

فدخلتا به الى غرفة وأقفلتا الباب ، فجلس وجلنار فى قلق ، وقلبها يخفق خفقانا شديدا حتى بدأ صالح بالكلام فقال لها : « هل سمعت بما حدث اليوم فى مجلس أبى مسلم ؟ »

قالت : « كلا .. »

فقص عليها ما دار بين أبى مسـلم ووالدها كأنه كان حاضرا حتى بلغ الى أمر أبى مسلم بقتل والدها فاقشعر بدنها وامتقع لونها ، ثم أخبرها بتوسط خالد بالعفو عنه وانهم أجلوا قتله وحبسوه . فلما سمعت ذلك اسـتغربته وظنت نفسها فى حلم وقالت : « حكم على والدى بالقتل .. ولماذا ؟ »

قال : « لأنه زوّجك الى ابن الكرمانى ، ورغب فى مصاهرته وهوعربى، وكان مولاى الدهقان يتظاهر بتأييده لحزبه الفارسى.. وأبو مسلم يقتل على الشك كما لايخفى عليك »

فأطرقت ثم التفتت الى ريحانة كأنها تستطلع رأيها ، فرأتها أشد حيرة منها فنظرت الى صالح وقالت : « هذا وقت المروءة وصدق الخدمة » وترقرق الدمع فى عينيها

فوقف صالح وقال : « انى رهن أمرك يامولاتى ، والذى أراه .... » وسكت . فازدادت جلنـار قلقا لتردده فقـالت : « قل ما الذى تراه ؟ »

قال : « لا أرى أحدا يقدر على التوسط فى ذلك سواك »

فجاء قوله موافقا لما فى خاطرها لأنها طالمـا تمنت مقابلة ذلك الحبيب ، وقد جرى ما جرى بينه وبينها ولم يتخاطبا ولا تشاكيا مع اعتقادها انه يحبها . وكانت عند سماعها بالحكم على والدها قد عزمت على الذهاب بنفسها لمخاطبته فى شأنه اذ لابد من أن تتشعب الحديث الى التشاكى ، فيطمئن خاطرها وتثق من حبه ، فلما أشار صالح بذهابها انبسطت نفسها وبان البشر على وجهها ، ووقفت بغتة بدون ارادتها . فقال لها صالح : « أتذهبين الآن؟»

قالت : « لابد من ذلك لأن الفرصة قصـيرة ، وأخشى أن يتسرع الأمير بقتل والدى قبل غد »

فقال : « حسنا تفعلين .. وأنا أستأذن لك بالدخول على يد

الحاجب فقد عرفته ، وهو الذى قصّ عليّ الحديث اليوم .. انهضى غير مأمورة وتخمرى ريثما أعود اليك بالاذن » وخرج

فتحولت جلنار الى مكان هناك يصلح أهل القصر شعورهن فيه ، وأصلحت من شـأنها اصـلاحا بسيطا ، والتفت بالمطرف المزركش ، ولفّت رأسها بشال موشى .. فقالت ريحانة : « هل أذهب معك يامولاتى ؟ »

قالت : « لا أظن ان ذهابك يجدى .. فربما لا يأذن لنـا بالدخول معا ، وأنا أحب أن أخاطبه على انفراد »

ثم جاء صالح وهو يقول : « قومى يامولاتى .. لقـد أذن الأمير بمقابلتك .. »

فنهضت جلنار ، وقد اشتد خفقان قلبها ، وتصاعد الدم الى وجهها ، ومشت مع صالح والليل قد أسدل ستاره .. فخرجت من باب القصر ، ولم تمش بضع خطوات قليلة حتى أطلت على باب القاعة وصالح يمشى بجانبها . فلما دخلت الى هناك قال : « لا يخلو دخولك على هذا الأمير من باعث على الحذر ، فكونى على يقين ـــ اذا شعرت بضـيق ـــ انى آتيك كما تأتى المردة . ولكن احذرى أن تنادينى باسمى القديم .. »

فأوجست من هذا التحذير خوفا ، ولكنها شغلت عن التفكير به لما هاج فى خاطرها من مقـابلة أبى مسلم ، وهى أول مرة ستخاطبـه فى خلوة ، مع ما فى قلبهـا من لواعج الحب وعوامل

الاعجاب به . فأوصلها صالح الى الباب وأشـار الى الحـاجب فوقف لها وأدخلها القاعة وقد أزاح لها ستر الباب بيده ، فرأت قاعة كبيرة ، فى أحد أركانها شمعدان عليه شموع منيرة . وفى صدر القاعة رجل متكىء على وسادة وعليه ثياب الامارة كأنه فى مجلس الحكم ، فسبقها الحاجب حتى وقف بين يدى الرجل وقال : « قد أتت الفتاة التى استأذنت فى الدخول على الأمير »

فقال أبو مسلم : « أين هى ؟ » وأشـار بيده الى الحاجب ، فخرج ومشت جلنار وهى تخطو الهوينى وقدماها لا تساعدانها على السرعة لما داهمها من الرعشة ، لدخولها وحدها على أبى مسلم ، والرجال الأشداء يرتعدون فى حضرته فكيف بفتـاة مفتونة ، وقد قاست الصعاب فى سبيل الحصول على رضـاه . والفتـاة ترتعد بين يدى حبيبها وهو مندفع اليها فكيف بمن يخشى الناس غضبه ، واذا شك قتل ..

— ٥١ —

الحديث

وكان أبو مسلم متكئا على وسادة ، فلما أقبلت جلنار جلس وقد ارتدى الجبة السوداء والعمامة السوداء وقال باللغة العربية : « أهلا بالدهقانة .. »

فأجابته بالفارسية : « لست دهقانة .. وانما أنا جاريتك »

فأشـــار اليها أن تجلس فجلست على وسادة بين يديه ، وقد أحست بالخلوة المطلقة مع رجل تحبه وتعتقد انه يحبها ، فغلب عليها الحياء تمازجه رعشة الحب ، ثم تذكرت والدها وانها أتت من أجله فلبثت تنتظر ما يقوله أبو مسلم . فقال لها بالفارسية : « أراكم لا تحبون من الفرس الا لغتهم ، وأما فيما خـــلا ذلك فأنتم عرب ! »

فأدركت انه يعرض بالسبب الذى حكم على والدها من أجله ، فرفعت بصرها اليه ، فلم تستطع التفرس فى وجهه ، وأحسَّت كأن سهاما تنطلق من عينيه الى عينيها .. وكأن نورا باهرا يسطع من حدقتيه فيبهر النـــاظر اليهما . فقالت وهى تنظر فى البســـاط : « وكيف نكون عربا وقد بذلنـــا النفس والنفيس فى سبيـــل الفرس ..؟ على اننا لو أردنا أن نكون عربا ما استطعنا الى ذلك سبيلا ..! »

قال : « وأنت أيضا تتعمدين خداعى ؟ »

فلما سمعت ما فى كلامه من الجفاء ، رأت غير ما غرسه الضحاك فى ذهنها من حبه لها ، على انها حملت ذلك منه على شدة غضبه من والدها ، فقالت : « حاشا لله أن أخادعك .. وما أنت ممن يخدعون لأنك تخترق أعماق القلوب بعينيك وتكشف غوامض الأسرار بذكائك .. فكيف تتجرأ فتاة حقيرة مثلى على خداعك ..

ولكننى أقول لك الواقع »

فقطع أبو مسلم كلامها وقال : « الواقع ان أباك قد خدعنا فأظهر التقرب منا والنصرة لنا على حين انه كان يخابر ابن الكرمانى ليصاهره وقد زفّ ابنته اليه .. هل تنكرين ذلك ؟ »

فلم تستطع جلنار ردا على هذا القول فرأت أن تأتيه من باب العطف بالحب فقالت : « لاريب ان والدى ارتكب خطأ كبيرا بزفافى الى ذلك العربى ولو علم ما فى قلبى .. (قالت ذلك وتنهدت) لما رضى به .. ومع ذلك فان ذلك العربى المسكين لم ينل من آماله غير الفشل .. »

فقال : « يكفى أن أباك خادعنا وأوجب الشك ، فحلّ لنا قتله عملا بوصية الامام صاحب هذه الدعوة »

فصاحت : « العفو يامولاى .. اعف عن والدى وان كان ذنبه كبيرا .. اعف عنه لأن تلك المصاهرة كانت سببا فى تعجيل أمر العرب بمقتل أميرهم . وهب ان والدى فعل ذلك رغبة عن أبى مسلم فان فى هذا القلب (وأشارت الى صدرها) من الحب له ما لو تفرق فى عشيرة لكان كل منهم عاشقا » وشعرت بعد الفراغ من قولها انها تسرعت ، ولكنها لم تستطع صبرا وقد أرادت أن تستطلع ما فى قلبه ليطمئن بالها »

أما هو فلما سمع تصريحها بحبه ، دهش له وظنه تهورا .. فأغضى عنه ، وقال : « انى أشكرك على حبك أيتها الدهقانة ولا

أنكر انك خدمت مصلحة الخراسانيين ، غير ان ذلك لا يبرىء والدك من ذنبه »

فاستغربت جوابه الجاف على خطابها الحار وقالت : « ألا تزال تذكر ذنب والدى فى جانب اندفاعى فى حبك ؟ »

قال : « لا تقولى حبى ، بل قولى حب دعوتى ومصلحة خراسان »

فزاد استغرابها لتنصله من الحب الى هذا الحد ، وشعرت انها تتكلم فى واد وهو فى واد آخر فقالت : « بل فى حبك أيها الأمير »

قال : « وما الباعث الى ذلك ، والحب فى مثل هذه الحال ينتهى بالزواج وأنا لا مأرب لى فى النساء على الاطلاق ، بل أنا أعتبر الزواج جنونا ، وقد تزوجت امرأة .. ويكفى للانسان أن يجن فى زمانه مرة واحدة ، واعلمى يا جلنار انى لو كنت ممن يتفرغون للنساء ما استطعت القيام بالدعوة التىأنا قائم بها» (١)

وكانت جلنار تسمع كلامه ، وقلبها يكاد يتمزق من الغيظ وخيبة الأمل ، ولكنها تجلدت وقالت وصوتها يرتجف : « ألم تكن تحبنى من قبل ؟ »

قال : « لم أحبك ، ولا أحببت سواك من النساء ، ولا أريد أن أحب امرأة ما .. »

---

(١) ابن الاثير ج ٥ وابن خلكان ج ١

قالت : « ألم تقل لرسولى أنك أحببتنى عندما رأيتنى ، وأنك تؤجل الزواج الى ما بعد الفراغ من الحرب ؟ »

قال : « أظنك تعنين ذلك المهذار المنافق .. لقد قتلته جزاء خيانته ، وهل تصدقين قوله ؟ »

فتذكرت جلنار وصية الضحاك انه لايريد أن يعلم أحد ببقائه حيا فسكتت عن ذكره ، ولكنها ظلت مقتنعة بصدقه لاختبارها اياه من قبل ، ولأنها رأت غيرته عليها وتفانيه فى خدمتها ، فترجح عندها غدر أبى مسلم وانه استخدمها واستخدم الضحاك فى تنفيذ غرضه لقتل ابن الكرمانى ثم قتل الضحاك ، فخشيت اذا جادلته أن يغضب ويأمر بقتلها وليس أهون عليه من القتل . فاستجمعت رشدها وعمدت الى الملاينة ريثما تنقذ والدها فقالت : « لا تغضب أيها الأمير ، فانى لم أحبك من أجل الزواج ولكننى أحببت مناقبك وسجاياك .. »

فأدرك أبو مسلم انها تخدعه خوفا من غضبه ، فخدعها وقال لها : « وأنا أحببت مناقبك وشكرت غيرتك ونصرتك »

فلما سمعت تلك المجاملة منه ، وتحققت انه لايحبها ، أخذت تشعر بانقلاب حبها الى بغض ، ولكنها لم تر بدا من استعطافه لانقاذ والدها ، فقالت : « فأتوسل اليك أن تعفو عن ذنب والدى وأن تبقيه .. »

قال : « ذنب والدك لا يغتفر لأنه يعد خيانة »

فقالت : « هب انه خيانة ، فاجعله فى مقـابل خيـانتى ابن الكرمانى فى سبيل نصرتك وهو زوجى »

قال : « انك لم تقتليه فى سبيل دعوتى ، بل قتلتيه رغبة فى زواجى ..! »

قالت : « وهل تعد ذلك ذنبا لى ؟ وعلى كل حال فقد ساعدتكم على قتل الرجل مع انه زوجى .. أفلا تكافئنى على قتله بالعفو عن والدى ؟ »

قال : « أتعدين ذلك فضيلة فيك وهى خيانة ، ثم تتوقعين أن أتزوجك ، ومن يضمن لى أنك لا تقتلينني . أما والدك فلا تتعبى نفسك فى أمره ، ولو أردت أن أطاوعك فى العفو عنه فلا سبيل الى ذلك .. وقد سبق السيف العزل »

فنهضت ثم جثت بين يديه وهمت بتقبيـل ركبتيه وذرفت الدمع وهى تقول : « أستحلفك بالامام ابراهيم صاحب هـذه الدعوة أن تعفو عن والدى لأنى أصبحت بعد جفائك لا سبيل لى سواه » . قالت ذلك وصوتها يتقطع وتكاد تشرق بدموعها

فدفعها بيده وحول وجهه عنها وهو يقول : « قلت لك قد سبق السيف العزل ، ولا سبيل الى ابقاء والدك على قيد الحياة»

فأجفلت وتراجعت وقالت : « ماذا تعنى ؟.. لا سـبيل الى ابقائه على قيد الحياة ؟.. هل قتلته ؟ »

قال : « نعم .. »

فصاحت : « قتلته .. لا .. لم تقتله لأنك أجلت النظر فى أمره الى الغد.. بالله ألا رثيت لحالى.. ألا أشفقت على شبابى ، وأبقيت على والدى .. أنا مسكينة .. » وأغرقت فى البكاء حتى كاد يغمى عليها

ولم يكن ذلك ليغير شيئا من قلب ذلك الرجل الشديد ، ولم يجبها على بكائها الا بقوله : « قلت لك انه قد سبق السيف العزل .. واذا كنت لا تصدقين فاننى أريك أباك رأى العين » .. ثم صفق فدخل غلام فقال له : « ائتنى بالدهقان .. »

فلما سمعته يقول ذلك انتعشت آمالها وتوهمت انه لا يزال حيا ، فتابعت الغلام بنظرها فرأته دخل دهليزا فى جانب القاعة ، ثم عاد وفى يده وعاء كبير فوقه غطاء ، وتقدم به حتى وضعه بين يديها وكشف الغطاء فرأت رأس أبيها فى قاع الوعاء ، وقد جمد الدم حوله وتلطخت لحيته وشاربه .. واشتبك شعر رأسه وتلوث بالدم ، وعيناه لا تزالان مفتوحتين .. واتفق اتجاههما نحوها كأنهما تنظران اليها .. فلما وقع نظرها عليه لم تتمالك أن صاحت : « وا والداه » والتفتت الى أبى مسلم وقد غاب رشدها ولم تعد تفقه ما تقول ، ولطمت خديها وصاحت : « قتلته ياظالم .. ويلاه ، والداه ..» وأخذت فى البكاء حتى دوت القاعة بصوت نواحها ..

فقال لها أبو مسلم : « اسكتى أو أرسلك الى خوارزم حالا »

فأدركت انه يهددها بالقتـــل ، ولكنها لم تكن تبالى بالموت لفرط حزنها فقالت : « أرسلنى الى حيث شئت .. لم يبق للحياة عندى قيمة بعد خيانة حبيبى وقتل والدى » وعادت الى البكاء بصوت عال

فصاح أبومسلم بالحاجب فجاءه ، فقال : «خذ هذه الفتاة الى سجن النساء ، ولولا خوفى أن يقال انى قتلت امرأة لقتلتها »

— ٥٢ —

الفرار

فمشت جلنار مع الحاجب وهى تصيح : « وا والداه » وتبكى حتى اذا دنت من باب القاعة سمعت الحاجب يكلمها همسا وهو يقول : « لا تخافى ياسيدتى لابأس عليك .. »

فعرفت انه صوت صالح ، فنظرت فى ثيــابه فاذا هى ثياب الحاجب فاستغربت وصوله الى تلك الحيلة .. ولكنها كانت لاتزال فى شغل من أمر والدها ، ولا تزال صورة رأسه الملطخ بالدم نصب عينيها .. فلما خرج بها من الباب ، رأت فى الدهليز شبحا نائما وبقربه ثياب ، فالتقط صالح الثياب بخفة ودفعها الى جلنار وقال لها : « البسى » فاذا هى جبته وقلنسوته .. فلبستها بسرعة ومرَّا فى الدهليز وليس فيه أحد حتى بلغا الى الباب الخارجى فخرجا ولم يعترضهما الحراس لاعتقادهم انهما الحاجب وأحــد

الخدم . فلما خرجا من دار الامارة مشى بها صالح ، فنزلا فى حجرة يصعد اليها بسلم ، وقد قطعا الطريق ولم يفه أحدهما بكلمة ..

فلما نزلا الخان ، ودخلا تلك الحجرة ، أخذ صالح فى تخفيف الأمر على جلنار فقال لها : « ألم ألمح لك غير مرة أنه خائن غادر ..؟ قد سمعته ينكر ما قاله لى عن حبه لك وافتتانه بجمالك ولكن أنى لى أن أكذبه وهو صاحب السيف ولا شفقة عنده ، ولا عهد له .. ولم أكن أعلم انه فعل ذلك خداعا حتى يستخدمنا فى قتل ذلك الرجل المسكين ثم يقتلنا ، وقد أراد قتلى معه فأوصى الرجل الذى أرسله معى لقتل ابن الكرمانى أن يدس السم فى قدحى أيضا . ولو لم تساعدنى الأقدار ويغلب علىّ القىء سريعا لكنت الآن فى عالم الأموات .. وهو يعتقد انى قُتلت ، وقد قال لك ذلك الليلة .. على اننى لم أكن أظنه يتعمد أذاك أو أذى مولاى الدهقان .. ولو علمت انه سيرتكب هذه الجريمة وينكر حبك لمنعتك من الذهاب اليه . وان كنت لا أظنك تقبلين مشورتى بالامتناع عن زيارته لما غرس فى قلبك من الحب له وحسن الظن به .. ومع ذلك فقد أوجست خيفة وهيأت ما يلزم للفرار بك عند الحاجة .. فأغريت الحاجب حتى أسكرته ، ولبست ثيابه وتزينت بزيه لأتمكن من انقاذك .. وقد وفقت الى ذلك بعون الله »

وكانت جلنار تسمع كلامه كأنها فى حلم لما مرّ بها تلك الليلة من الغرائب . رأت رأس أبيهـا فى وعاء وقـد تلطخ بالدماء ، وسمعت جفاء حبيبها فانقطع رجاؤها فى الحب ، وذهبت آمالها أدراج الرياح ، فاستغرقت فى التأمل وصالح جالس بين يديها ثم قال لها : « أتأذنين لى أن أذهب لاستقدام ريحانة »

فانتبهت وقالت : « لابد من ذلك .. اذهب حفظك الله .. »

فقال لها : « اعطنى جبتى وقلنسوتى .. »

فخلعتهما ، فلبسهما وهو يقول : « امكثى فى هذه الحجرة ولا تخرجى منها حتى أعود » وخرج وأغلق الباب وراءه ..

فجلست وقد خلت بنفسها فى تلك الحجرة الحقيرة . فتلفتت فلم تجد حولها الا جدرانا عارية عليها رفوف من الخشب قـد سمّرت فيها ، وعلى الأرض حصير بال فوقه فراش قذر.. والمكان موحش يزيده رهبة ضعف نور المصباح . وتصورت قصر والدها وما كانت فيه من النعيم ، وما كانت قد بنته من قصور الآمال ، وكيف ضاعت تلك النعم وتهدمت تلك القصور فى ساعة ، فقتل والدها وخانها حبيبها ، وخرجت هاربة تائهة لا تعرف مقرها ، وفكرت فى أسباب ذلك الشقاء فلم تجد اللوم يقع على غير أبى مسلم ، وتصورت ما كان له من الحب فى قلبها وكيف قابلهـا بالجفاء وهددها بالقتل بعد أن فتك بوالدها .. فانقلب حبها الى بغض شديد ، وأصبحت لاتستطيع تصوره .. تلك هى العادة فى

مثل هذا الحال فان المحب اذا رأى من حبيبه غدرا أو خيانة انقلب حبه بغضا شديدا وأصبح من أشـد الناس كراهية له ، فكيف بجلنار وقد انتهرها حبيبها وخانها وقتل والدها ، وان كان فى الحقيقة لم يخن حبها لأنه لم يعاهدها ولا أظهر لها الحب ، ولكنها كانت تعتقد ذلك بناء على شهادة الضحاك .. وان كنا لا نبرّىء أبا مسلم من الشدة والقسوة ، ولعل عذره انه كان يكره النساء ويعد الزواج جنونا ، بل هو لايعرف عواطف المحبين لأنه لم يكن يحب ولا يشعر بالحب .. وذلك نادر فى النـاس والحمـد لله لأن الحب يدمّث الأخلاق ، ويلطّف الطباع ، وهو أبو الشفقة وشقيق الحنان ، ولولاه لأكل الناس بعضهم بعضا .. لأن الذى لا يحب لا يرحم ، ولا يشفق ، فيذهب الضعفاء ضياعا لتسلط القوة الحيـوانية . وانما تصلح هـذه الخصلة فى رجل الحرب وخاصة فى ذلك العصر ، عصر الشدة والبطش .. وقد كانت فى أبى‌مسلم بأعلى درجاتها ، لأنه كان لايبالى أن يقتل أباه أو أخاه اذا وقف فى سبيل مقاصده ، فلما علم بتلاعب الدهقان بادر الى قتله ليتخلص مما قد يخطر له من الخيانة ونحوها ، ولو كان فى صدر أبى‌مسلم قلب يحب ، ما أصمّ أذنه عن استغاثة جلنار، ولا خطر له أن يكافئها على حبها له بعرض رأس والدها فى وعاء بين يديها ..

قضت جلنار فى مثل هذه الهواجس حينا واستغرقت فى ذلك

حتى نسيت نفسها ، ثم انتبهت لوحدتها فى تلك الحجرة لا تسمع الا شخير الخيل أو صهيلها وضرب الأرض بالحوافر ، وقد غلبت رائحة الدواب على كل طيب ــ وكفى برائحة الخان مثلا للقذارة والنتن ــ وتذكرت بيت أبيها ومقتل والدها فغلب عليها الحزن فعادت الى البكاء .. ولم تر ما يفرج كربها سواه . فبكت حتى بلّت ثيابها ، وهى تحذر أن يعلو صوتها لئلا يسمعها أحد فيأتى اليها وهى منفردة على هــذه الصورة ، فتعاظم أمرها عندها ، والمصيبة العظمى تظهر ساعة وقوعها صغيرة فى عينى صاحبها ، ثم تنجلى له فتتعاظم عنده حتى تبدو كما هى ، فاذا طال صبره عليها تصاغرت حتى تزول . وكذلك جلنار فانها لم تدرك عظم مصيبتها لأول وهلة ، فلما خلت بنفسها وأطلقت العنان لتصوراتها أخذت مصيبتها تنجلى لها وتتعاظم عندها ، وأبومسلم السبب الرئيسى فى كل ذلك . وكانت الى تلك الساعة اذا ذكرته أحست بشىء من العطف هو بقية الحب الصادق ، على ان ذلك الشعور لم يكن يمكث الا كلمح البصر ، ثم يزول ويخلفه الغضب وحب الانتقام

ــ ٥٣ ــ

البغتة

على أن جلنار تعبت من تلك الهواجس ، مع ماكانت فيه ، على

أثر تلك الصدمة فغلب عليها النعاس ، فأغمضت عينيها لحظات قليلة رأت فى أثنائها حلما طويلا ظهر فيه أبو مسلم بصورة الحبيب ، كما شاهدته للمرة الأولى فى بيت والدها ، وانه جاملها ولاطفها فتشاكيا وتعاتبا ، وتذكرت وهو يلاطفها ما كان من جفائه بقتل والدها وخيانة عهدها ، فتوهمت ان ذلك الجفاء كان فى الحلم وانها عادت الى اليقظة فرأت حبيبها على عهده ، ثم ما لبثت أن استيقظت فرأت حلمها يقظة ويقظتها حلما . ولكن شبح أبى مسلم كان لايزال مرسوما أمامها بصورة الحبيب ، فجعلت تخاطبه وتعاتبه قائلة : « أهذه شروط المحبة عندك يا قاسى القلب ؟.. تقتل أبى وتخون عهدى ، ثم تهددنى بالقتل حتى أقنع بالفرار ؟ !.. »

وبينما هى تناجى نفسها على تلك الصورة ، اذ سمعت خشخشة وصوتا ورأت شيئا يمر من بين يديها مرور السهم ، فأجفلت ووقفت رغم ارادتها .. ونظرت فاذا هو جرذ دخل الحجرة من ثقب فى الحائط تحت الباب وانصرف الى ثقب تحت بعض الجدران ، فوقف شعرها وأصبحت تخشى الجلوس على ذلك الحصير.. فوقفت وكان لوقوفها حركة عظيمة لأنها أفزعت جرذا كان كامنا وراء الفرش ، فنفر وكان لعدوه على الحصير خشخشة عظيمة شغلت جلنار عن هواجسها ومصائبها ، وأصبح همها تجنب الجرذان وغيرها مخافة أن تمس يدها أو قدمها . وحدثتها نفسها أن تخرج

من الحجرة ، ولكنها لم تتجرأ على ذلك لأنها لا تعرف أحدا فى الخان ، فاستبطأت صالحا وخشيت أن يكون لذلك سبب يبعث على القلق ، فضاقت الدنيا فى عينيها .. واذا هى بنحنحة صالح فى فناء الدار ، فخفق قلبها سرورا وتهيأت للقائه وأصغت لتسمع وقع قدميه على السلم وتتبع وصوله الى تلك الحجرة ، فلم تسمع شيئا فاستغربت ذلك .. وتوهمت انها سمعت هتاف بعض الأرواح من الجان فاقشعر بدنها وجمد الدم فى عروقها ، وظلت واقفة فى مكانها لا تجرؤ على المشى ولا على الجلوس وقد حبست تنفسها مبالغة فى الاصغاء ، فمضت بضع دقائق وهى لا تسمع غير وقع حوافر الدواب وأصوات شخيرها ، ثم سمعت صوتا لم تظن انه صوت صالح وهو يقول : « هيىء كل شىء ريثما أعود » . ثم سمعت خفق نعاله على السلم فاطمأن خاطرها وأسرعت نحو الباب وفتحته ، فرأت صالحا وحده والبغتة ظاهرة على وجهه فقالت : « أين ريحانة ؟.. »

قال : « هى هنا .. هيا بنا نسرع بالخروج من هذه المدينة قبل اغلاق أبوابها علينا ، وهذه الخيول معدة فى فناء الخان » . قال ذلك وأخذ يبحث عن جبة الحاجب وقلنسوته ، وكان قد تركهما هناك عند ذهابه ، فخلع قلنسوته وجبته ولبس تلك بأسرع من لمح البصر ثم مشى بين يدى جلنار

فتبعته على السلم وهى تتعثر بأذيالها من البغتة فضلا عن

اختلال الدرجات وليس فيها درجة مثل الأخرى ، ولما وصلا الى فناء الخان رأت جلنار ثلاثة جياد مسرّجة ، وريحانة واقفة بجانب واحد منها فقال صالح : « اركبى يامولاتى هذا الجواد » وأشار الى ريحانة فركبت جـوادا وركب هو جواده ، وأشـار الى صاحب الخان فأمر رجلا أن يسير فى ركابهم ليعود بالخيـول . فساق صالح فرسه أولا وهو يقول لجلنار : « اثبتى على فرسك يامولاتى وأتبعينا » وأوصى الرجل أن يبقى الى جانبها ليساعدها عند الحاجة ..

مشى الركب على هذه الصورة ، وكلهم سكوت ، وجلنار تصبّر نفسها عن استطلاع السبب الذى أوجب هذه العجلة . وبعد قليل وصلوا الى باب المدينة فوجدوه موصدا على جارى العادة من ايصاده عند الغروب . فصـاح صالح بالبواب صيحة رجل له سلطان : « ما بال بابك لايزال مغلقا ، لعلك كنت نائما عندما جاءتك الأوامر بفتحه منذ ساعة ؟ »

فلما رآه البواب يخاطبه بهذه الجرأة ، وعليه ثياب الحجاب صدقه وخشى شكواه لأنه ــ حقا ــ كان عند العشاء غائبا ، وقد ذهب لتناول الطعام فى منزله ، ولم يخطر له أن الأمير سيرسل من يأمر بفتح الباب . فلما هدده صالح ظن أن الأمر جاءه فى أثناء غيابه ، فخشى الشكوى لعلمه بشدة أبى مسلم ، فهمّ بالاعتذار فقطع صالح كلامه قائلا : « لابأس الآن .. أسرع وافتح الباب ،

مهمتنا عاجلة جدا .. ولا وقت لنا لاستماع الأعذار »

فأسرع الرجل وفتح الباب ، وحين أصبحوا خارج المدينة ساقوا خيولهم ، وصالح دليلهم .. وكلما قطع مسافة تفقد جلنار وريحانة ، والليل مظلم .. ولكنه كان خبيرا بتلك الجهات ، يعرف الطرق السهلة والصعبة والجهات المأهولة وغير المأهولة . فلما بعدوا عن مرو ، أمسك عنان جواده حتى حاذى جواد جلنار وسألها : « هل أحسست بالتعب ؟ » فقالت : « نعم .. تعبت ولكننى لم أفهم سبب هذه العجلة »

قال : « سأخبرك عند وصولنا الى القصر »

قالت : « وأى قصر ؟ »

قال : « قصر مولاى الدهقان .. فاننا على مقربة منه »

فاطمأن بالها لقربها من بيت أبيها ، وبعد قليل أطلوا على القصر .. فأسرع حتى بلغ الباب فطرقه وصاح بالبواب : « افتح ان الدهقانة قادمة » فبغت البواب ولم يصدق ، ولكنه سمع صوتها وهى تناديه .. ففتح لهم ، فدخلوا بالجياد وترجلوا فى الحديقة ، ومد صالح يده وأعطى الغلام كيسا وأمره بالرجوع .. فركب أحد الأفراس وساق الفرسين ورجع الى مرو

وكان أهل القصر نياما فأمرت الدهقانة البواب أن لا يوقظ أحدا منهم الى الصباح ، ودخلت وصالح وريحانة معها الى قاعة والدها وهى على مثل الجمر لاستطلاع الخبر . فلما دخلوا قالت :

« قل ما وراءك يا صالح .. لقد شغلت بالى !.. »

قال : « ان الذي ستسمعينه أعظم من ذلك . اذ لا ينبغى لنا أن نبيت هنا ، ولذلك اسمحى لى أن آمر باعداد الخيـول من مرابط والدك للسفر بأسرع ما يمكن »

قالت : « افعل » وهو يعرف مرابط الخيل ، فأيقظ الخـدم وأمرهم أن يعدوا ثلاثة من جياد الخيل السهلة القياد ، وعاد الى القاعة وجلنار وريحانة فى انتظاره على مثل الجمر ، فلما دخـل جلس جاثيا وقال : « اعلمى يامولاتى انى لما رجعت لاحضـار ريحانة مررت بدار الامارة فرأيت النـاس فى هرج ومرج ، ثم علمت أن أبا مسلم علم بفرارك فأمر بالبحث عنك فى غرف الدار وما يجاورها ، وانهم اذا لم يجدوك بعثوا من يأمر بوابى المدينة بمنع الناس من المرور الا من عرفوه أو أتاهم بجواز ، فهرولت مسرعا الى قصر صاحبكم الدهقان وناديت ريحانة وأتيت بها من طرق خفية حتى وصلت الى الخان فتنحنحت حتى تشعرى بمجيئى ثم أمرت صاحب الخان باسراج الأفراس وذهبت لاحضـارك فركبنا وجئنا الى هنا كما ترين »

فأعجبت بدهائه وغيرته وقالت : « وما هو الباعث على سرعة خروجنا من هذا القصر ؟ »

قال : « السبب ياسيدتى ان أبا مسلم سيبعث فى صباح الغد من يستولى على هذا القصر ومن فيه ، وقد سمعته يقول ذلك

وهو يهدد المرحوم والدك بالقتل، وخصوصا بعد أن يعلم بفرارك ولا يجدك بمرو .. فلا بد أن يبحث عنك فى هذا القصر . وهل فى وسعك الوقوف فى وجهه وهو صاحب السلطان وليس فى قلبه شفقة ولا حنان ؟ »

فزادت مصيبتها بذلك الخبر ضخامة لأنها كانت تظن نفسها اذا يئست من الدنيا أوت الى بيت أبيها ، فتقيم فيه وتعيش كما يعيش الملوك ، وتتناسى مقتل والدها بالزواج من أحد الدهاقين . فلما سمعت كلام صالح غصّت بريقها ، ولم تتمالك عن البكاء وقالت : « ألا يكفى هذا الظالم قتل والدى وخيانة عهدى حتى يضع يده على أموالنا وضياعنا ؟ »

قالت ذلك واستغرقت فى البكاء ، وشاركتها ريحانة فى ذلك .. فقال صالح : « ان البكاء لاينفعنا يامولاتى بل هو يزيد المصيبة ضخامة ، وليست هذه الحطام مما يطمع فيه بعد ذهاب صاحبها .. دعى أبا مسلم يفعل ما يريد ، وسينال جزاءه باذن الله .. سوف ننتقم منه انتقاما ينسيك كل هذا العذاب »

فلما سمعت الوعد بالانتقام ، ارتاحت نفسها اليه ــ ولايشفى قلب الموتور الا الانتقام ــ وقد سرّها ان صالحا بدأ يذكر الانتقام ووعدها به فقالت : « أتنتقم لى منه ؟.. »

قال : « أنتقم لى ولك .. ألم يأمر بقتلى ، ولولا يد القدر لذهبت مع ابن الكرمانى فى ساعة واحدة .. ولكن الله أبقانى

لأنتقم لك »

فقطعت جلنار كلامه وقالت : « ان الأقدار دبرت ذلك لحسن حظى لأنى لولاك ما عرفت كيف يكون مصيرى .. والآن ما العمل ؟ »

قال : « ينبغى لنا قبل كل شيء أن نحمل ما فى هذا القصر مما خف حمله وغلا ثمنه .. اعهدى الىَّ بذلك وأنا أهتم بتدبيره »

فالتفتت جلنار الى ريحانة وقالت : « ريحانة تعرف كل شيء »

فقال لها : « اخبرينى عن أماكن النقود والحلى ، واذهبى وأتينى بها .. وأنا باق هنا فى انتظارك .. »

فنهضت ونظرت الى جلنار فقالت لها : « لا تتركى شيئا من الحلى ولا النقود ولا تنسى ثيابى .. واختارى منها أحسنها وأمرى الخازن أن يعطيك مفتاح خزانة والدى لعله أبقى فيها شيئا لم يحمله الى ذلك الخائن .. »

فقالت ريحانة : « ان هذه الأموال تحتاج الى دابة أو دابتين لحملها »

قالت : « مرى الخدم أن يعدوا بغلين مع التى أمرتهم باعدادها »

— ٥٤ —

الوسيلة

فخرجت ريحانة ، وظل صالح مع جلنار ، فقال لها : « أريد منك يامولاتى أن تتحلى بأخلاق الرجال ، وتخلعى عنك ضعف النساء فاننا مقبلون على عمل عظيم يتطلب الصبر والدهاء .. فاذا كنت لا تصبرين على التعب ، أو لا تريدين الانتقام .. فاخبرينى منذ الآن ولا تتعبى نفسك بالأسفار ..! »

فقالت : « اذا كنت لا أريد الانتقام فما الحيلة ؟ وأنا لا أستطيع الاقامة فى هذه الديار ، وكيف لا أحب الانتقام من رجل سلبنى أهلى ومالى وأخرجنى من بيت أبى طريدة شريدة ، وخان عهدى وهددنى بالقتل ، فاذا كنت أنت تريد الانتقام لأنه أراد قتلك ، فكيف بى وأنا موتورة بقتل والدى ؟.. ولا تحسب خيانة العهد أخف وقعا فى نفسى من اليتم... ولا لوم علىّ اذا أردت قتله وأنا فتاة فهو الذى علمنى قتل الرجال ، وأنت تعلم كم ترددت يوم أن اقترح علينا قتل ابن الكرمانى ، وكم استفظعت تلك الجريمة ثم ارتكبتها التماسا لقربه وتضحية لحبه فكافأنى بالخيانة والغدر .. فلا غرو اذا انقلبت عاقبة سعيه عليه .. »

قال : « اذا كنت مصممة على ذلك فأنا طوع ارادتك فى كل ما ترين وسنتباحث فى الطرق اللازمة . وأما الآن فلا بد لنا من

معرفة الخطة التي يجب أن نسلكها فى العمل .. لأننا لا نستطيع أن تتغلب على هذا الرجل بالسيف ، وهو صاحب القوة ، ولا نستطيع ذلك بالدهاء والبطش وهو أدهى الناس وأشدهم بطشا.. فلا بد من حيلة نحتالها عليه »

فأحست جلنار بقصر باعها فى هذا الشأن ، وظهر الارتباك فى وجهها ..

فابتسم صالح وقال : « لا تيأسى يامولاتى .. ولا تظنى انى أسألك لقلة الوسائل عندى ، ولكننى أستطلع رأيك .. »

فانبسطت نفسها وقالت : « كيف أعرف الوسائل وأنا لم أخرج من بيت والدى قبل تلك المرة المشئومة ، فدبر أنت ما تراه وأنا أسير معك ... »

قال : « ذلك ما كنت أرجوه من تعقلك وحزمك .. فاعلمى يامولاتى اننا لا نقدر على الكيد لأبى مسلم الا فى الشـام عند الأمويين ، فهم أعداؤه الألداء .. وهم الذين ينتقمون لنا منه »

قالت : « وكيف ينتقمون لنا ؟ هل يجردون عسكرا لمحاربته ، وهب انهم يفعلون ذلك فهل تضمن انهم يفلحون والرجل محصن فى مرو ؟ »

قال: «لاأعنىأن يجردوا لذلك جيشا ، لأنهمكما قلت لايفعلون ذلك من أجلنا واذا فعلوه لا يفلحون ، ولكننى أهديهم الى جذر الشجرة فاذا قطعوه سقطت الشجرة ميتة .. »

فلم تفهم جلنار ماذا يعنى ، فقالت : « وأية شجرة تقصد ؟.. »

قال : « أعنى صاحب هذه الدعوة الذى قام أبو مسلم وأصحابه يدعون الناس اليها باسمه .. »

قالت : « أظنك تعنى ابراهيم الامام ؟ »

قالت : « اياه أعنى .. »

قالت : « وكيف تصل الى ذلك الجذر وأين هو ؟ »

قال :« هو فى جهات الشام ، فى مكان لايعرفه الا نفر قليلون»

قالت : « وهل تعرفه أنت ؟ وأين هو ؟ »

قال : « نعم .. انه فى الحميمة فى أرض البلقاء بالشام »

قالت : « وما الذى ذهب به الى هناك ؟.. وما قصته ؟ »

فقال : « ان الوقت قصير لايأذن لى بسرد القصة مطولة ، ولكننى أقول باختصار ، ان النبى صلى الله عليه وسلم لما مات لم يوص بالخلافة الى أحد .. فاختلف أصحابه عليها ، وكانوا فئتين : المهاجرين والأنصار .. فالمهاجرون هم الذين هاجروا معه من مكة الى المدينة يوم هاجر فرارا من ظلم أهلها . والأنصار هم الذين نصروه لما جاء المدينة . وبعد جدال طويل أقروا على ان الحق فى الخلافة للمهاجرين فتولاها واحد منهم ، ثم الثانى ، والثالث بالانتخاب فيما بينهم ، ولم يكونوا يعرفون توريث الملك كما كان الفرس يفعلون . ولكن أهل النبى الأقربين كانوا يرون التوريث ويعدون خروج الخلافة من بين أيديهم حيفا وظلما

« وأقرب الأقربين من النبى عمه العباس وابن عمه على بن أبى طالب . فبعد الخلفاء الثلاثة تولاها على ابن عمه ، لكنها لم تستمر فى نسله فأخذها منهم بنو أمية بالدهاء والعصبية وتوارثوها نحو مائة سنة الى مروان بن محمد الذى يحاربه أبومسلم الآن . وكان أولاد العباس فى أثناء هذه المدة يسعون فى ارجاع الخلافة لهم وهم الذين يعبرون عنهم بأهل البيت ، وكل منهم يطلبها لنفسه ..

« آل على يريدونها لأنفسهم ، وآل العباس يزعمون انهم أحق بها من سواهم . ثم ان آل على الذين يطالبون بالخلافة فئتان : احداهما نسل ولده من امرأته فاطمة بنت النبى . والثانية نسل ابنه من امرأة أخرى واسمه محمد بن الحنفية . وكان كل من هؤلاء أيضا يطلبها لنفسه . فاتفق أن ابن محمد بن الحنفية هذا واسمه هاشم ، جاء دمشق وافدا على سليمان بن عبد الملك الأموى. فرأى سليمان منه فصاحة وقوة فخافه ، فأوعز الى رجل سمَّه بلبن فأحسَّ أبو هشام بقرب الوفاة وهو راجع الى المدينة ، فخاف أن يموت قبل أن يعهد بالخلافة لأحد من أهله ، ولم يكن أحد منهم معه لكى يبايع له ، فعرج الى بلد فى البلقاء يقال لها الحميمة كان بنو العباس يقيمون فيها ويدعون الناس الى أنفسهم سرا . وكان صاحب الدعوة منهم يومئذ محمد بن على بن عبد الله ابن عباس ، فنزل عنده أبوهشام وأوصى اليه . وكان معه جماعة من شيعته سلمهم اليه وأوصاه بهم ثم مات . فأخذ محمد المذكور

فى بث الدعاة ثم مات وخلف أولادا كثيرين من جملتهم ابراهيم الذى يسمونه الامام ، فأقام ابراهيم بعد أبيه بالأمر واستكثر من بث الدعاة الى الأطراف وخصوصا خراسان لأن الشيعة كانوا أشد وثوقا بأهل خراسان من غيرهم .. »

فقطعت جلنار كلامه وقالت : « لماذا لم يسعوا فى غير هذه البلاد ؟ »

قال : « لأن أهل الشام ومصر متفقون مع بنى أمية وفيهما أهل الدولة . وأما الحجاز فأهله قليلون لايستطيعون القيام بالدعوة . وأما أهل البصرة والكوفة ، فكان أهل البيت مذعورين منهم لأنهم خانوهم غير مرة .. وفضلا عن ذلك ، فان أهل خراسان كانوا ناقمين على بنى أمية لاحتقارهم اياهم وعسفهم فيهم كما تعلمين ، فرأوا منهم أذنا صاغية . وكان أهل خراسان من قبل يبايعون لآل على ضد بنى أمية ، ووفق ابراهيم الامام الى أبى مسلم هذا فبعثه قائدا لدعاته ونقبائه فتمكن بدهائه وشدته وقسوته من فتح مرو كما رأيت ، وهو يتظاهر بالمبايعة لأهل البيت على العموم « أى أهل بيت النبى » فالناس يبايعون الآن لابراهيم الامام باسم أهل بيت النبى على أن يتناوبها العباسيون والعلويون . ولكننى لا أظن العباسيين الا سيخرجونها من أيديهم ، والخلاصة ان ابراهيم الامام هو مركز الدائرة التى تدور عليها هذه الدعوة وهو مقيم فى الحميمة ، ولا يعلم به مروان بن محمد صاحب دولة

بنى أمية.. فالذى أراه أن نسعى فى كشف هذا السر لمروان فيبعث من يقبض عليه بسهولة ، ومتى حبسه أو قتله ذهبت مساعى أبى مسلم هباء فيشتد أمر بنى أمية .. وهذا أشد انتقام نقدر عليه »

فلما سمعت جلنار قوله أحست بارتياح لرأيه وقالت : « انه رأى صواب .. والآن ماذا نعمل ؟ »

قال : « لابد لنا من مغادرة هذا المكان سريعا بما خف حمله وغلا ثمنه ، ثم نسافر الى العراق فالشام ونسعى فى الأمر .. »

فقالت : « ولمن نترك هذا القصر وهذه الجنات ؟ »

قال : « نتركها لذلك الظالم .. الذى بيده السلطة الآن وهو يطلب حياتنا .. فاذا نجونا بها غلبناه ، ولا يغنيه البنيان ولا الأشجار شيئا عما سندبره لهلاكه باذن الله .. »

— ٥٥ —

الرحيل

وبينما هما فى الحديث جاءت ريحانة مسرعة وهى تقول : « قد أعددت ما يلزم وجمعت كل الحلى والنقود والثياب ، وهى كثيرة تحتاج الى عدة بغال لحملها .. وأوصيت الخادم أن يعد الأفراس والبغال .. »

فقال صالح : « هلم بنا يامولاتى .. »

فنهضت وخرجت من القاعة حتى أطلت على الحديقة فسمعت صهيل الأفراس ، ورأت البغال وعليها الأحمال ، وتصورت أنها خارجه من البيت الذى ولدت فيه ، وربّيت بين أشجاره وجدرانه فى عز ونعيم وحولها الجوارى والحشم كأنها سلطانة فى مملكة ، فكيف تخرج منه هاربة الى دار غريبة لم تطأها قدمها من قبل ، وفى مشروع عظيم يعجز عنه كبار الرجال .. فغلب عليها ضعف النســاء فدمعت عينــاها . وكان صالح يرقب حركاتها ويخشى ضعفها .. فلما لاحظ ذلك عليها ، ابتدرها قائلا : « لابد لنا من السرعة قبل أن يدركنا ذلك الظالم برجاله ويقبض علينا جميعا فينال منا ما يريد وتذهب مساعينا هباء . فاختارى من خدمك اثنين أو ثلاثة تثقين بهم يكونون معنا لخدمتك أو لمهام أخرى »

فلما سمعت تهديده هان عليها الخروج، وقنعت بالنجاة، والتفتت الى ريحانة وقالت : « من ترين أن نصطحب من الخدم الأمناء ؟»

فأجابتها على الفور : « نصطحب سعيدا الصقلبى فانه أمين ويقظ فيكون فى خدمتك خاصة ، ونأخذ معنا أبا العينين لأن أصله من العراق ويعرف عادات البلاد وطرقها .. فيكون عونا لنا ودليــلا ، وهو الى ذلك نشط أمين .. واذا شئت خادما ثالثا ، فسليمان الحلبى لابأس به لأن أصله من الشام .. »

فاستصوبت جلنار رأيها وقالت لها : « ابعثى اليهم وأتينا بهم سريعا »

فذهبت ريحانة كما أمرتها ، ووقفت جلنار فى انتظارها وهى تفكر فى أمرها ومصير ذلك القصر وأهله فقالت فى نفسها : « ان أهل هذا القصر لايزالون سعداء لأنهم لم يعلموا بما أصاب مولاهم ولا بما يهددهم من الخطر فى الغد » ثم نظرت الى صالح وقالت له : « هل تترك أهل هذا القصر معرّضين للقتل والأسر ونحن نعلم بما يهددهم .. ألا ترى أن نخبرهم بما أصاب والدى ونحذرهم ؟ »

قال : « لابد من ذلك ، ولكن بعد خروجنا ونجاتنا بما معنا »

فعلمت انه لم يفته شيء من التدبير ، فسكتت .. ثم جاءت ريحانة وجاء الخدم الثلاثة :

سعيد الصقلبى ، أصله من سبى الأندلس لما فتحها موسى بن نصير سنة ٩٢ هـ ، اذ جمع من السبى كثيرا وفيهم الغلمان والنساء ، وكان سعيد يومئذ فى الخامسة من عمره فوقع فى نصيب أحد الجند فباعه لأحد النخاسين الذين يتجرون بالخصيان البيض، فخصاه وضمه الى من كان عنده وسماه سعيدا ، ثم انتقل سعيد بالبيع الى دهقان مرو وعاش فى منزله مدة طويلة ، وكان يتكلم العربية والفارسية ونسى لغة بلده .. وقد سموه صقلبيا لبياضه ، وكان طويل القامة ، طويل الساقين صغير العينين ، صوته كصوت النساء ، ووجهه قليل الشعر

وأما أبو العينين ، فقد لقب بذلك لكبر عينيه وجحوظهما ..

وأصله من أنباط العراق ، دخل فى خدمة الدهقان منذ صغر سنه بلا شراء ، وانقطع اليه وهو يعد نفسه من رقيقه ..

وأما سليمان الحلبى ، فسمى بذلك لأنه حضر من جهات حلب ، وهو ليس حلبى الأصـــل .. ولكنه رومى وقع أسيرا فى بعض المواقع بين الروم والعرب ، وبيع كما تباع الأسرى فى تلك الأيام ، ولم يوفق لمن يفتديه حتى دخل فى حوزة الدهقان وصار من عبيده . فأعجب الدهقان بحسن خلقه ، ورأى فيه مروءة فأعتقه ، فأصبح من مواليه .. فأطلق سراحه وخيّره بين البقـاء عنده كبعض أولاده أو الذهاب الى بلده ، ففضل البقاء عنده لأنه ألف المكان ولم يعد يعرف مصـير أهله وكان الدهقـان يحبه ويثق به ..

فريحانة قد وفقت فى اختيارها ، وقد جاء هؤلاء الثـلاثة ، واستعدوا للرحيل وهم لا يعرفون الغرض من ذلك . وجاءوهم بالدواب لركوبهم ودبروا كل شىء ، وكان الفجر قد دنا ، فأشار صالح بالركوب فركبوا وركب فى مقدمتهم ، وقال للحارس وغيره من أهل القصر انه عائد اليهم بعد قليل .. فأطاعوا وهم يستغربون ما رأوه لأنهم لم يعلموا بمقتل دهقانهم ولا ما ينويه أبو مسلم من الفتك بهم .

سار الركب والليل يكاد ينقضى، وقد أقبل الفجر مبشرا بطلوع الشمس سلطانة النهار.. ولما بعدوا عن المحلة ، أوقفهم صالح فى

خلوة وأخبرهم أنهم ذاهبون فى خدمة الدهقانة جلنار الى الحج ، وان ذهابها سرى فلا ينبغى أن يعلم به أحد ، فاذا سئلوا عن المكان الذى جاءوا منه فليقولوا انهم من مدينة بلخ وقد خرجوا يريدون اللحاق بقافلة تقدمتهم منذ يومين قاصدة بيت الله الحرام. وأوصاهم أن لا يذكروا اسم الدهقانة ولا الدهقان وانه سيخبرهم بالسبب بعد قليل . ثم تقدم الى الدهقانة وقال لها : « انى راجع الى القصر لأخبر الخدم والحراس بالواقع وأعود ، فامكثوا فى انتظارى »

قالت : « سر فى رعاية الله .. وافعل ما تشاء .. »

قال : « اعطينى رجلا من أتباعك يزكى شهادتى أو يؤيد قولى .. »

فأمرت سعيدا الصقلبى أن يرافقه ، فسار معه ولم يفهم القصد ولكنه سار تلبية لأمر مولاته ، فأسرّ له صالح حقيقة الأمر وأوصاه أن يساعده فى تلك المهمة ، وساقا جواديهما نحو القصر. فلما وصلا اليه رأيا أهله فى هرج وقد استيقظوا من نومهم ، وعلموا بمسير مولاتهم على تلك الصورة ، فدعا صالح قيّم الدار وأخبره على انفراد بمقتل الدهقان وان أبا مسلم سيرسل من يستولى على القصر بما فيه ، وأوصاه أن يتدبر الأمر ، وان الدهقان قبل أن يموت أعتق عبيده وجواريه جميعا ، وان القصر بما فيه صار ملكا حلالا لهم الى أن قال : « فتدبر أنت بحكمتك

حتى لا يظفر ذلك القاتل بكم ، وأسرع لأنه لا يلبث أن يبعث بمن يقبض عليكم »

فسأله عن الدهقانة فقال : « انها انتقلت الى بعض أهلها فى نيسابور وانها هى التى بعثت الى أهـل القصر بالعتق والحرية ووهبتهم كل ما فيه » الى أن قال : « وهـذا سعيد رسـولها اليكم »

فأيّد سعيـد قوله .. وأكد ان الدهقـانة توصيـه بأهل القصر خيرا وأن ينقذهم بحكمته وبحسن تدبيره ، ويوافيها بعد ذلك الى نيسابور لأنها سوف تكون هناك بعـد بضعة أيام .. فصدقهما وأخذ فى التدبير

— ٥٦ —

سليمان بن كثير

أما صالح فانه عاد مع سعيد الى الدهقانة وخدمها ، وكانوا فى انتظارهما .. ثم أخذوا فى السير حتى انتصف النهار ، وقد بعدوا عن مرو ، فترجلوا .. ونصبوا خيامهم بجانب عين ماء فى ظل الأشجار ومكثوا للاستراحة .. فاغتنم صالح تلك الفرصة ، وذهب الى الدهقانة وعندها ريحانة وقال لها : « ينبغى أن نطلع خدمك الخصوصيين على الحقيقة ، ونكتم الأمر عن الخدم الآخرين

الذين هم فى خدمة الدواب كالسياس ونحوهم »

قالت : « افعل ما تراه ، فانى لا أدرى ماذا أعمل .. »

فخشى ضعفها فقال لها : « أراك قد ضجرت ونحن لا نزال فى أول الطريق ! »

قالت : « لم أضجر ، ولكننى لا أزال أحسب نفسى فى حلم من هول ما رأيته بالأمس .. وأنا لم أذق نوما »

قال : « نحن هنا فى مأمن ، فنامى واستريحى لأن سفرنا طويل وأما أنا فلا أنام حتى أدبر الأمر الآخر .. »

قالت : « وأى أمر تعنى ؟ »

قال : « أتظنين صالحا يغفل عن فرصة يغتنمها فى سبيل ذلك ؟» ثم حك لحيته وأصلح قلنسوته وقال : « نحن ساعون فى قطع الشجرة من جذرها ، ولكننى سأدبر حيلة ألقى بها الشقاق بين فروعها أى بين أبى مسلم ونقبائه »

قالت : « وكيف ذلك ؟.. وأى النقباء تعنى ؟ »

قال : « أتعرفين سليمان بن كثير ؟ »

قالت : « أنت أخبرتنى انه كبير النقباء ، وانه قديم فى هذه الدعوة »

قال : « هو أقدم من أبى مسلم فيها ، ولكنه كان يدعو أهل خراسان لولد على بن أبى طالب ، وكان هو زعيم هذه الدعوة ، فلما توفى صاحب الدعوة العلوية وتحولت الى بنى العباس كما

ذكرت لك ، أرسل الامام ابراهيم أبا مسلم من قبله وجعله رئيسا على سائر النقباء وفى جملتهم سليمان بن كثير وهو شيخ جليل ، وأبومسلم كما تعلمين شاب .. فشقّ ذلك على سليمان فى بادىء الأمر، ولم يقبل أن يكون تحت قيادته ، ثم قبل رغم ارادته .. على أن أبا مسلم غيّر صورة الدعوة فجعلها باسم « آل محمد » أى أهل النبى وهو اسم يشمل العباسيين والعلويين ، لأن الأولين من نسل العباس عم النبى ، والآخرين من نسل على ابن عمه . والذى أراه ان أبا مسلم فعل ذلك استعدادا لنقل الدعوة الى آل العباس ، وانى أعلم أن سليمان بن كثير لايريد ذلك بل هو يفضل بقاءها لآل على لأن هذا هو مشروعه الأصلى وبه فخره . وفى نيتى أن أكتب الى سليمان كتابا أستحثه فيه على حفظ البيعة لأولاد على وأبين له طمع أبى مسلم ونحو ذلك ، مما يهيج الضغائن بين هذين الرجلين .. وهما دعامة الدعوة ، فاذا اختلفا اختل نظامها »

فأعجبت جلنار بسهره على هذا الأمر ، وتجددت قواها وآمالها وازدادت تسليما له وقالت : «بورك فيك.. افعل ما تراه موافقا . وهل بعد هذا السهر والاهتمام من حاجة الى اهتمامى ، ومع ذلك فان السهر والتعب قد أثرا فىّ كثيرا ، وأنا لم أتعود ذلك »

فنهض وحيّا ، ووجّه كلامه الى ريحانة ، قائلا: « وأنت أيضا فى حاجة للنوم على ما أظن ، فاذهبى الى فراشك ودعى مولاتنا ..

وانى ذاهب الى شأنى » قال ذلك ومضى الى خلوة وقد أعد ورقا ومدادا ، وكتب كتابا هذا نصه :

« من دهقان يخاف أن يذكر اسمه الى سليمان بن كثير

« أما بعد فانك جئتنا منذ بضع سنين تدعونا الى بيعة أهل النبى لأنهم أقرب للتقوى والعدل — ولا يكون آل النبى الا كذلك — فأطعنا وبايعناك لنتخلص من ظلم بنى أمية لأنهم يكلفوننا دفع الأموال بغير حق ، ويعاملون غير العرب باحتقار ، فحمدنا الله على قرب نجاتنا من ذلك الظلم على يدك وأنت شيخ عاقل حكيم . ثم ما لبثنا أن رأينا الأمر قد تحوّل وأصبحت أنت وسائر النقباء فى قبضة غلام لا يعرف له أصل ولا نسب ، فاستبد بكم وتطاول عليكم ، ونحن نحسب طاعتكم له عن حكمة أو حسن سياسة ، لأن المسلمين انما يفضلون بالتقوى ، ثم علمنا انه لايمتاز عنكم الا بسفك الدماء والقسوة وحب الاثرة ، وانه انما يستخدمكم لمطامعه ولا يبالى أن يقتل أيا كان التماسا للسلطة فيستخدم الناس لغرضه ثم يقتلهم كما فعل بالكرمانى ، وكما فعل بدهقان مرو ، بعد أن بذل ما بذله من المال ، فقتله شر قتلة ..

« وهو يزعم انه يفعل ذلك بأمر الامام ، وأى امام يأمر بالقتل على الشك ؟ فقد عرفنا الأئمة يحاسبون أنفسهم على حشرة يقتلونها فكيف بقتل الناس ، بل كيف بقتل كبار المسلمين الذين

نصروا الدين بأموالهم وأنفسهم ، ولا سيما الدهاقين الذين هم عمدكم فى هذه النهضة ، لأن خراسان فى قبضتهم وقد نصروكم وأيدوا دعوتكم .. فكيف يقتلهم هذا الظالم بلا سبب غيرالشك؟ فأصبح سائر الدهاقين فى خراسان مهدّدين بالقتل ، وأنا منهم ، ولذلك لم أجرؤ على ذكر اسمى . على ان الخطر يشمل كل من ينصر هذا الغلام من النقباء وأنت فى مقدمتهم ، فلا بد من أن يأتى يوم يقتلك فيه وهو لايحتاج فى تحليل قتلك الى أكثر من الشك فيك ـــ وما أسرع الشك الى قلب الانسان ـــ ولا جناح على أحد سواك لأنك جررت البلاء على نفسك بيدك . كنت رئيسا على أهل الهدى تدعو الناس الى بيعة خليفة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لايقتل المسلمين ولا يظلمهم ، فجعلت نفسك عبدا لغلام يزعم ان امامه أمره بقتل الناس على الشك . وأراه يتلاعب بكم جميعا .. فبعد أن كانت البيعة باسم أبناء علىّ ، جعلها باسم أهل البيت اجمالا تمهيدا لاخراجها من العلويين لبنى العباس ليستقل بها صاحبه ومولاه الامام ابراهيم ، وتذهب مساعى العلويين ونقبائهم هباء منثورا ، فاذا كنتم لا تزال فيكم بقية عقل وحمية فاستدركوا الأمر قبل استفحاله وارجعوا البيعة لأصحابها الأتقياء . واعلموا أنكم اذا فعلتم ذلك ، كان كل الدهاقين فى خراسان وسائر أهل فارس من أنصاركم .. فبادر يا ابن كثير الى استدراك ما فات ، وارجع البيعة لأصحابها ، وانقذ المسلمين من

أناس يقتلون على الشك لا يستثنون مسلما ولو كان نصيرا أو نقيبا أو اماما ، والا فان العاقبة تعود عليك وأنت أول من تقع النقمة على رأسه .. وهـذا انذار لك ولسائر النقبـاء الذين استسلموا لذلك الغلام والسلام »

ولما فرغ من كتابة الكتاب لفّه وجعله فى أنبوب من القصب الفارسى وأقفل عليه ، وحمل الأنبوب وخرج الى خيمة الخـدم فلقى سعيدا فى الطريق عائدا من خيمة جلنار ، فناداه فوقف .. فقال صالح : « كيف فارقت الدهقانة ؟ »

قال سعيد : « تركتها مستغرقة فى النوم من شدة التعب »

قال صالح : « عندى كتاب أريد ارساله الى مرو ، فهل تثق بأحد من أولئك السياس نبعثه فى هذه المهمة على أن يحفظ ذلك سرا ؟ »

قال سعيد : « عندنا سائس أبكم سريع الفهم »

قال : « ان البكم يلزم فى هذه المهمة ، ولكن الأبكم يكون أصم أيضا فكيف يفهم مرادنا ؟ »

قال سعيد : « ان هذا الأبكم غير أصم .. فهو يسمع ولكنه لا يستطيع الكلام ، لقد أصيب بالبكم نتيجة عقدة لسانه »

قال صالح : « وهل اختبرت أمانته ؟ »

قال سعيد : « أنا على يقين من أمانته .. »

قال صالح : « أين هو ؟ »

فصاح سعيد مناديا أحد السياس وأشار اليه فأتى نحوه ، واذا هو قصير القامة أسمر اللون ممتلىء الجسم ودلائل الصحة بادية فى استدارة وجهه وغلظ عنقه واتساع صدره ، وكان جذعه عاريا الى الحقوين فبان الشعر كثيفا على صدره وكتفيه .. وذراعاه مستديرتان ممتلئتان ، وكذلك ساقاه وقدماه ، وليس عليه من الكساء الا سراويل قصيرة تغطى فخذيه الى أعلى الركبة ؛ فوقف وأشار برأسه اشارة التحية فقال له صالح : « أتعرف مرو ؟ »

فأشار برأسه أن : « نعم .. »

قال : « أتعرف أميرا اسمه سليمان بن كثير ؟ »

فأشار بيديه وأصابعه انه عرفه منذ نزل أبو مسلم عند الدهقان المرة الأخيرة ، وتحقق صالح من اشارات أخرى انه عرف الرجل حقيقة فقال له : « خذ هذه القصبة (وأخرج له الأنبوب) وامض سريعا الى مرو واذهب توا الى دار الامارة فتجد الرجل هناك فادفع اليه هذه القصبة واسرع راجعا ، واذا سألك سائل لاتجبه والأفضل أن تدفعها اليه وتنجو بنفسك سريعا وتعود الينا فتجدنا فى انتظارك هنا أو فى المحطة التالية .. خذ الدابة واركب عليها الى مرو »

فضحك السائس وأشار الى قدميه الغليظتين وقبض يده بشدة كما يعبر الخرس عن القوة ، يريد أن يقول : « ان قدميه أسرع من الدابة » فربت صالح على كتفه تحببا وثناء ، فلامست

أنامله الجلد فابتلت من العرق

أما السائس فتناول القصبة وأشــار برأسه اشارة الوداع ، وتحوّل نحو مرو مسرعا سرعة الغزال ، وصالح وسعيد ينظران اليه ويعجبان من سرعته حتى توارى عن أبصــارهما . فتحولا للاستراحة ، فمضى صالح الى خيمته واستلقى وأخذ يفكر فيما ينبغى له من السعى فى مشروعه

— ٥٧ —

أبو سلمة الخلال

وكانت الشمس قد مالت نحو الأصيل ، وتذكر انهم لايزالون على مقربة من مرو بحيث تكاد تمسهم يد أبى مسلم . وتصور أن أبا مسلم علم بمكانهم ، فبعث من يتبعهم ، فاقشعرّ بدنه لاعتقاده فى دهاء ذلك الرجل وقدرته العجيبة على كشف المخبآت وشدة بطشه ، فاذا عثر عليهم لايبقى على أحد منهم .. ويالها من خيبة . ولكنه رأى نفسه عاجزا عن مواصلة السير فى تلك الساعة نظرا لما تشكوه جلنار من التعب بعد الجهد الذى بذلته ، وشدة حاجتها الى النوم ، فعزم على السفر حالما تستيقظ ولو فى نصف الليل

وبينما هو فى تلك الهواجس ، سمع أجراسا تدق عن بعد فاختلج قلبه ونهض مذعورا لعلمه انها أجراس قافلة مارة من

هناك ، وأصاخ بسمعه ليتبين جهة المسير ، فأدرك انها قادمة من الشمال فترجّح عنده انها من القوافل التى تتردد بين العراق وخراسان ، فخرج من خيمته لعله يراها عن بعد من جهة الصوت.. ولكنه لم ير القافلة لأنها كانت لا تزال متوارية وراء التلال ، فأسرع الى ثيابه وتنكر بملابس حاجب أبى مسلم وقلنسوته وأصلح من شأنه وذهب الى سعيد وأبى العينين وسليمان وأخبرهم بمجىء القافلة ، وانه عازم على استطلاع الأخبار منها وأوصاهم أن يكونوا على حذر لئلا تبدر منهم كلمة أو اشارة تدل على حقيقة أمرهم ..

ثم ركب فرسا وساقه نحو الجهة التى سمع منها دق الأجراس ، وبعد قليل أطل على القافلة فاذا هى سرب من الجمال يقودها حمار عليه شيخ كأنه الدليل ، والى جانبى القافلة فرسان مدججون بالسلاح لحراسة القافلة ، فعلم انهم يحملون أموالا لأبى مسلم فضلا عن المئونة ونحوها .. فوقف يعترض القافلة كأنه صاحب الأمر والنهى ، فأسرع اليه أحد الفرسان ، فابتدره صالح قائلا : « لماذا هذا التباطؤ فى المسير ؟ »

فلما سمعه الفارس يخاطبه بسلطان ورأى عليه ثياب حجّاب أبى مسلم ظنه قادما من عنده لاستعجالهم فقال : « أتعدون مسيرنا بطيئا وقد جئنا من الكوفة الى مرو فى عشرين يوما ومعنا هذه الأثقال ..؟ هل أنت قادم لاستعجالنا ؟.. »

قال : « انى ذاهب ببشـارة لشيعتنـا فى الكوفة ، ولكننى سمعت الأمير يذكر ابطاءكم فأسرعوا حفظكم الله »

فلما سمع الفارس قوله انه ذاهب ببشارة ، تشوّق للاطلاع على البشارة فقال : « وما هى تلك البشارة ؟ »

قال : « ألم تعلموها بعد ؟.. ألم تروا نصر بن سيار صاحب مرو تائها فى هذه الأودية ؟.. »

قال الفارس : « كلا .. وهل فتحتم مرو ؟ »

قال : « فتحناها منذ بضعة أيام وأعلام الحق تخفق الآن فوق دار الامارة ولو عجلتم قليلا لشهدتم الفتح واشتركتم فى الغنيمة. كيف فارقتم شيعتنا فى الكوفة ؟ »

قال الفارس : « هم فى خير ، وستشتد عزيمتهم بخبر الفتح .. ولا سيما أبو سلمة رعاه الله »

قال صالح : « وكيف أبو سلمة ؟ .. »

قال : « هو عمدتنا وذخرنا ، وهـذه الأموال كلها من عنده وهو كما تعلم لايدخر وسعا فى نصرة هذه الدعوة ، والحق يقال ان هذه الدعوة انما تقوم بسيف أبى مسلم ومال أبى سـلمة الخلال .. »

فتذكر صالح حال أبى سلمة هذا ، وانه من كبار الأغنياء وقد بذل ماله فى سبيل نصرة الشيعة ، وانه كان قبل ظهور أبى مسلم يفعل ذلك فى نصرة شيعة على كما كان يفعل سليمان بن كثير . فلما

تحولت الدعوة الى العباسيين ورأسها أبو مسلم أذعن كما أذعن ابن كثير وصار يبذل أمواله فى نصرتهم . ومرت القـافلة وهما واقفان يتكلمان ، وصالح ينظر الى الأحمال فاذا هى كثيرة ، وفيها صناديق الأموال . فلما خطر له أمر أبى سلمة الخلال ، تظاهر بالاسراع وودع الفارس وأوصاه بالاسراع وقال له : « واصلوا السير الى مرو ولا تقفوا فى هذه المحطة ، فتصلوا الى مرو فى العشاء »

فأشار الفارس اشارة الطاعة وافترقا ، فأظهر صالح انه يسير نحو الكوفة.. حتى اذا توارت القافلة عن بصره ، رجع الهوينى فى أثرها بحيث يرى أطرافها ولا يراه أحد من أهلها ، فرآها عند وصولها الى المحطة لم تقف الا قليلا ثم أقلعت ، فسرّه ذلك وسار الى خيمة الدهقانة فرآها لا تزال جالسة عندها ، فسـأل الخدم عن القافلة فقالوا : «انهم مشوا مسرعين ولم يقولوا شيئا» فذهب الى خيمته وبدّل ثيابه وهو يفكر فى أبى سلمة الخلال والسبيل الى تحويله عن نصرة أبى مسلم ، واذا بسعيد الصقلبى قد جاءه مسرعا وناداه بلهفة فقال له : « ما وراءك ؟.. »

قال : « أدرك مولاتى الدهقانة فانها استيقظت من نومها وهى تبكى وتنتحب ، ولا نعلم ما بها .. »

فعلم أنها تبكى لأنها يتيمـة وغريبـة ، وقد أخـذت تحس بمصيبتهـا وتتبين ضخامتهـا ، فأسرع الى خيمتها فلقى ريحانة

بالباب وهى تشير اليه أن يسرع. فدخل الخيمة فرأى جلنار جالسة فى الفراش ، وشعرها مرسل على كتفيها ، وقد احمرّت عيناها ، وتكسرت أهدابها من كثرة البكاء ، فلما أطل صالح صاحت به : « آه يا صالح ، بل يا ضحاك ، لأنى هكذا كنت أناديك فى أيام سعادتى ، وأنا الآن يتيمة مقهورة شاردة هاربة »

فجثا صالح عند فراشها وقال : « ما الذى جرى يامولاتى ، هل حدث شىء جديد ؟ »

قالت وهى لا تستطيع أن تمسك نفسها عن البكاء : « آه يا صالح .. كنت نائمة فرأيت فى منامى ان ذلك القاسى جاءنى وفى يده خنجر وكأنه يهم بقتلى فصحت فيه : ويلك يا ظالم ، أهذا جزاء المحبة .. ووبّخته وعنفته وعاتبته عتابا شديدا وهو واقف لايتكلم ، وكان غيظى يتعاظم عليه وحنقى يشتد وأشعر رغم ذلك بشىء يتحرك فى قلبى وينعطف نحوه ، وكأن بين ناظريه وعروق قلبى رباط لا أدرى ما هو ، فقلت له : لايغرنك ضعف هذا القلب فانى سأغلبه وأغلبك وأنتقم لقتل والدى شر انتقام »

فقطع صالح كلامها بلهجة المجون ، وقال : « احذرى أن تذكرى اسمى ، أو تخبريه انى مشجّعك على هذا الانتقام ، لئلا يرسلنى الى خوارزم » . قال ذلك وضحك كما كان يفعل فى أيام مجونه

فلم يسع جلنار الا الضحك رغم ما بها ، ثم أمسكت نفسها ونظرت اليه شزرا فابتدرها قائلا : « لا ذنب لى فى ذلك فانك

ناديتني باسمى القديم وتمنيت أن أتسمى به ، فتقمصت شخصيته لأن الضحك على كل حال خير من البكاء . ومع ذلك لم أكن أحسبك تهتمين بأضغاث الأحلام وتستسلمين للضعف النسائى ، وقد طلبت اليك منذ أول خطوة خطوناها أن تخلعى عنك هذا الضعف ، وتتخلقى بأخلاق الرجال .. لأن الأمر الذى نحن بسبيله يحتاج الى دهاء وتعقل وسعة صدر .. »

قالت : « لا أزال غير قادرة على فكر أو عمل »

قال : « لا أكلفك أن تقومى بعمل ، فقد شرعت فى العمل منذ الآن ، فكتبت كتابا الى سليمان بن كثير (وأخبرها فحواه) وانما أطلب اليك الصبر والدعاء وأنا ضامن انك ستنسين كل هذه المتاعب .. اصبرى ان الله مع الصابرين »

فأحست جلنار بثقل أزيح عن صدرها وقالت : « صدقت لا حيلة لى غير الصبر » ثم مسحت عينيها والتفتت الى ريحانة فرأتها تذرف الدموع بلا بكاء ولا شهيق حتى كادت تختنق من ضيق صدرها وحبس عواطفها . فلما رأت مولاتها تنظر اليها ووجهها منبسط ، ابتسمت والدمع ملء عينيها ، وقالت : «تجلدى يامولاتى ولا بد من الصبر ، والفرج قريب باذن الله »

فرأى صالح ان من الحكمة أن يشغلهما عن ذلك الحديث النسائى فقال : « اخبرينى يامولاتى .. هل تعرفين أبا سلمة الخلال ؟.. »

فظلت جلنار صامتة مطرقة كأنها تستحث ذاكرتها وهى تتذكر انها سمعت هذا الاسم قبل الآن ، فبادرت ريحانة الى الجواب قائلة : « أظن مولاتى لا تذكره ولكننى أعرف هذا الاسم جيدا فانه لرجل فارسى من أكبر أرباب الثروة فى العراق وفارس ، وكان بينه وبين مولاى ــ رحمه الله ــ علاقات قديمة ، وكثيرا ما كان يزوره وينزل فى داره أياما ، وكانت مولاتى الدهقانة لا تزال صغيرة »

فابتسم صالح وبدا السرور فى وجهه وقال : « ان هذا الرجل من أكبر دعائم هذه الدعوة فهو يؤيدها بماله كما يؤيدها أبو مسلم بسيفه ودهائه .. وحكايته مع أبى مسلم مثل حكاية ابن كثير ، فان أبا سلمة كان مع ابن كثير يدعوان للعلويين ثم أطاع أبومسلم فى الدعوة الجديدة رغم ارادته . فاذا استطعنا تحويل أبى سلمة عن تأييد هذا المشروع ، غلّت أيديهم عن العمل ولا سيما بعد القبض على ابراهيم نزيل الحميمة .. »

فقالت جلنار : « تذكرت هذا الاسم الآن ، وأذكر أيضا انه جاءنا مرة ومعه الهدايا والأحمال وفيها الحلى والجواهر .. وكان والدى رحمه الله يحبه .. »

فقالت ريحانة : « وأنا أعرف امرأة من نسائه أصلها من مرو بينها وبين والدة مولاتى الدهقانة ــ رحمها الله ــ قرابة ، وسيدى الدهقان والدك زوّجه اياها .. وكنت واسطة بينهما »

فقال صالح : « لقد هان الأمر الآن ، فالذى أراه أن نحمل مولاتنا الى الكوفة ننزلها فى مكان تقيم فيه فى أمان ريثما أذهب لقضـاء المهمة الأولى فى الشام ، ثم آتيكم الى الكوفة ظافرا غانما » ثم التفت الى الدهقانة كأنه يستطلع رأيها فرآها صامتة وفى وجهها ملامح الاستسلام فقال لها : « كونى مطمئنة فانى لا أتركك حتى أتحقق من راحتك وسلامتك، وأترك عندك ريحانة وسعيدا وأبا العينين واصطحب الحلبى فقط لأنه يعرف الشام ، لعلّى أحتاج اليه فى شيء .. والآن لابد لنا من الاسراع فى الرحيل لئلا يعرف أبو مسلم مكاننا فيذهب كل سعينا هباء ، ولا غرابة فى اطلاعه على سرنا وهو يكاد يطلع على خفايا القلوب »

فتنهدت جلنار ولم تجب ، فأدرك صالح انها تتأسف على خيبة أملها فى أبى مسلم .. لكنه تجاهل ووقف لتدبير أمر السفر الى الكوفة ..

— ٥٨ —

مروان بن محمد والناسك

فلنتركهم فى تدبير شئونهم ، ولنذهب بالقـارىء الى دمشق الفيحاء دار الخلافة الأموية ، فان الأمويين اغتصبوا الخلافة من أهل البيت كما تقدم ، ونقلوا عاصمة المسلمين من المدينـة الى

دمشق لأن أهل الحجاز متفقون مع على وأولاده ، ودمشق من المدن العظمى التى كان لها شأن كبير فى التاريخ القديم ، فجعلها الأمويون مقرا للخلافة ومركزا لقوة المسلمين حتى حدثتهم أنفسهم أن ينقلوا منبر النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة اليها ليضيفوا الى عصبيتهم العربيـة أعظم أثر اسلامى يفاخرهم به أعداؤهم المقيمون فى الحجاز .. فلم يتيسّر لهم ذلك ، واكتفوا بالعصبية ، فحكموا المسلمين نحو مائة سنة .. وامتد سلطانهم الى معظم العالم المعمور فى ذلك الوقت ، وفى أيامهم بلغ العرب أسمى درجات العز ..

والدولة الأموية أقوى دول العرب وأشـدها بطشا .. وهى وحدها (بعد الخلفاء الراشدين) دولة عربية خالية من شوائب العجمة لأن أمراءها عرب وعمالها عرب وكتابها عرب ، وهى التى نقلت دواوين الحكومة الى اللغة العربيـة ونصرت العصبيـة العربية ، لكنها بالغت فى ذلك واحتقرت غير العرب واستبدت بالفرس وغيرهم ممن دان لسلطانها حتى نقموا منها وساعدوا أهل البيت على حربها لاخراج البلاد من أيديها

وكان على رأس الخلافة فى عصر روايتنا هذه مروان بن محمد وهو من أحسن الخلفـاء وأكثرهم حميـة وحزما وغيرة على الاصلاح ، ولكنه جاء متأخرا وقد تمكن الفساد من جسم الدولة الأموية وتغلغل الفساد الى أعضائها الحيوية ، حتى انقسمت على

نفسها ، وقام من بنى أمية غير واحد ادعوا الخـلافة لأنفسهم ، فتمكن مروان ببسالته وعقله من التغلب عليهم . وكان الخلفـاء الذين تقدموه قد انغمسوا فى الترف واللهو ، وأكثرهم شربوا الخمر واستكثروا من النساء . فلما تولى مروان الخلافة ورأى حالها من الاضطراب عزم على الحزم والتعفف ، فحرّم الخمر على مجالسه وابتعد عن النساء (١) واهتم بشئونه اهتمام الرجال

ولكن ذلك لم ينفعه شيئا لأن الدعوة العباسـية كانت قد استفحلت فى أيامه ورسخت أقدامها فى خراسان ، وانتشر دعاتها فى أنحاء فارس والعراق ، فارتبك فى أمره وبذل غاية جهده فى دفع أعدائه ، وكانت ثقته بنصر بن سيار عظيمة ، ونصر شيخ جليل بلغ الخامسة والثمانين من عمره ، وقد حنكته الأيام .. وفى طبعه ميل الى الاصلاح ، فألقى اليه مقاليد خراسان وأوصاه بحمايتها وحفظها من الشيعة ، ولم يكن يخطر له الخوف عليها لعلمه بقلة الشيعة وتسترهم حتى جاءه الخبر بسقوط مرو وفرار نصر بن سيار منها بأهله وأولاده ، فأسقط فى يده وأيقن بخروج خراسان وما وراءها من سلطانه وأصبح خائفا على سائر مملكته

وكان مروان فى تلك السنة قد بلغ الثالثة والستين من عمره وأمه كردية الأصل ، وذلك نادر فى الخلفاء على عهد بنى أمية لمحافظتهم على العصبية العربية ، خلافا لما صارت اليه الحال فى

---

(١) ابن الاثير — الجزء الخامس

أيام بنى العباس فان معظم خلفائهم من الهجناء . والهجين أبوه عربى وأمه غير عربية . وكان مروان قوى البدن شجاعا فلقبوه بالحمار ، وكان ربع القامة أبيض اللون أشهل شديد الشهلة ، ضخم الهامة ، كث اللحية أبيضها (١) وشيبه أكبر من سنه،لهول ما لاقاه من الأمور العظام ، وبخاصة بعد أن جاءه النبأ بسقوط مرو وفرار نصر ، فانه ما فتىء يجمع رجاله وقواده ويشاورهم فى أمره ، ويتداول معهم فيما صارت اليهحال الدولة من الاضطراب، وقد أخذ فى اعداد الجنود ، وهمّ أن ينهض بنفسه ؛ لأنه رأى انه من الحزم أن لايثق بأحد من رجاله فى مثل تلك الحال . فكان يقضى نهاره مشاورا ومعظم ليله مفكرا ، وربما مضى الليل وهو يضرب فى أرجاء غرفته منفردا عن الأهل والجوارى والسرارى

فاتفق فى احدى الليالى وهو ساهر على تلك الصورة ، وقد جاءه الخبر باستفحال أمر الشيعة ، أن جاءه الحاجب مهرولا فظنه جاءه برسول أو رسالة .. وكان من عادتهم أن لايردوا عن باب الخليفة صاحب خبر فىأية ساعة جاء ، ولو فى نصف الليلأو بعده. فلما دخل الحاجب على مروان صاح فيه : « ما وراءك ؟ »

قال : « ان بالباب رجلا غريب الشكل يطلب أن يخاطب أمير المؤمنين »

قال مروان : « لعله صاحب خبر ، أو رسول ؛ أو من هو ؟»

---

(١) المسعودى ـ الجزء الثالث

قال : «كلا.. ولست أدرى من هو ، ولما أردت تأجيل أمره الى غد ، قال : انه يريد مخاطبة أمير المؤمنين فى شأن لا يجوز تأجيله لحظة .. »

فاهتمّ مروان بالأمر ، وقال : « ادخله .. »

وكان مروان جالسا على سريره فنهض والتفّ بالعباءة وتمشى فى الغرفة ، وظله يتنقل شمالا أو يمينا حسب موقعه من المشمعة القائمة فى جانب الغرفة . ولم تمض لحظات قليلة حتى عاد الحاجب وهو يقول : « الرجل بالباب يامولاى .. »

قال : « ليدخل .. »

فدخل رجل طويل القامة حاسر الرأس ، وقد تجعّد شعر رأسه ولحيته وتلبد من الوسخ والاهمال ، وعليه قميص طويل يكسوه الى الركبة وهو حافى القدمين عارى الساقين والزندين . والقذارة ظاهرة على يديه وأنامله ، وفى وجهه ولحيته وعلى قميصه ؛ وعلى كل شىء فيه مع بله يظهر من خلال قذارته .. وحين رآه مروان ابتدره بالسؤال عما فى نفسه فقال بلغة التهديد : « ألا تدعونى للجلوس ؟.. كأنك تخاف على الطنافس من جلدى ، أو غرك ما رأيته من زهدى .. ان أولياء الله لا يلبسون الحرير والديباج ولا يهتمون بالمشط والطيب .. »

فلما سمع مروان كلامه هابه ، ولم يكن شديد الاعتقاد بالولاية لأنه كان قد تعلم من الجعد بن أدهم مذهبه فى خلق

القرآن والقدر (١) وغير ذلك .. ولكن شـدة افتقار المرء الى الشيء تهون عليه تصديق المستحيل ، وتساعده على التصـديق رغبته فى الحصول على ذلك الشيء .. فكان مروان فى حاجة الى من يشير عليه أو يرشده الى الصواب ، فاحتمـل جسارة ذلك الرجل ورحب به وأمره بالجلوس ، فجلس على طنفسة وجلس مروان على وسادة تجاهه وأصاخ بسمعه ، فرأى الرجل يتمتم بكلام لم يظهر منه لمروان الا حركة الشفتين ، فظنه يصلّى فصبَّر نفسه وهو على أحر من الجمر ، فطال جلوس الرجـل وطالت صلاته ومروان صابر حتى كاد يضجر ، واذا بالشيخ قد مسح وجهه بيديه واعتدل فى مجلسه وقال : « اعلم يامروان انى جئتك برسالة من عالم الغيب جاءتنى فى المنـام الليـلة ، وقد أوصانى صاحب الرؤيا أن أبادر بابلاغك اياها حالا وأوصيك وصية ، فهل أنت مصدق لما أقوله لك ؟ »

قال مروان : « نعم .. قل »

— ٥٩ —

الرؤيا

قال الشيخ : بدأت رؤياى بصـوت أيقظنى واذا برجـل

(١) ابن الاثير — الجزء الخامس

ينادى : « الحميمة ... الحميمة ... الحميمة ! » فقلت : « وما الحميمة ؟ » قال : « فى الحميمة أصــل الشر ومنبع العداوة » فقلت : « وأية عداوة ؟ » فزجرنى الصوت وقال : « اذهب الى أمامكم مروان بن محمد فى هذه الساعة ، وقل له ان عدوه الأكبر ابراهيم فى الحميمة وهو أصل متاعبه ، فاذا قبض عليه وقتله فقد قطع رأس الحيـّة .. فاذهب اليه حالا » وأردت أن أستزيده بيانا فاستيقظت من منامى وجئت اليك فبلّغت الرســالة وها أنذا راجع الى مغارتى » .. قال ذلك وهمّ بالنهوض ، فأقعده مروان وسأله عما يظنه من أمر هذه الرؤيا فقال : « نحن لا نفسر الرؤيا وانما ننقلها كما أتتنا ، فعليك الآن أن تســأل عن الحميمة فاذا كانت بلدا فابعث اليه من يبحث عن رجل اسمه ابراهيم »

ففطن مروان للحال أن هــذا الاسم هو اسم صاحب الدعوة العباسية ولم يكن يعرف مكانه ، فأدرك أن المراد بالرؤيا التنبيه الى مكان صاحب تلك الدعوة للقبض عليه.. وآمن بولاية الشيخ لأنها وافقت غرضه ، والانسان وان أنكر السحر وكذب أقوال السحرة فانه اذا رأى فى أقوال أحدهم قولا يوافق ما فى نفسه مال الى تصديق السحر .. حتى الطبيب اذا لم يطمئن أهل المريض ويؤكد لهم شفاء مريضهم اتهموه بالجهل بلا برهان . وانما يدفعهم الى تلك التهمة كرههم لما يعتقده . وتذكر مروان انه يعرف بلدا بالبلقاء اسمها الحميمة ، فعزم على ارسال جند يبحثون عن رجل

اسمه ابراهيم .. فاذا كان من نسل العباس كان هو المراد ، فيقبضون عليه ويزجون به فى السجن .. أما الشيخ فظل متحفزا للخروج ، فقال له مروان : « امكث أيها الشيخ عندنا على الرحب والسعة »

فقال الشيخ وهو ينفّض يديه : « أعوذ بالله من هـذا الشر أتريد يا مروان أن تحجب عنى وجه الخالق وتفصل بينى وبين أهل الغيب ؟ »

فقال مروان : « اخبرنى اذن ما هو اسمك وأين مقامك حتى أبعث اليك عند الحاجة .. »

قال : « لا أقدر على ذلك الآن ولا حاجة لك بى ؛ اذ لا أقدر على شىء غير ما أراه فى الرؤيا أو أسمعه من الهاتف ، فلو سألتنى سؤالا من عندك فلا جواب عندى ، فاذا شئت أن تنتفع بى دعنى أنصرف الى مغارتى ولا تسألنى عن اسمى ، فاذا أتتنى رؤيا أخرى ، أو خطر لى شىء يقال ، أتيتك على عجل .. وأرجو أن تأمر حاجبك أن لايؤخرنى عنك ، واحذر أن تطلع أحدا على أمرى فان حفظ هذا السر يحفظ خدمتى لك »

فرأى مروان فى كلام الرجل قوة وكان يود ابقاءه عنده ، فلما سمع عذره لم يشأ أن يرغمه على البقاء ، فقال له : « فاصبر اذن لنأمر لك بالجائزة »

فصاح : « الجائزة ! الجائزة ! ولماذا ؟.. اننا لانأكل من طعامكم

ولا نشرب من شرابكم ولا نمس أموالكم . هكذا أمرنا ، فاطلق سراحى يا مروان أو اقتلنى ، فانى بين يديك .. ولا أرى سببا لتأخيرى سوى انك تريد نفسى فخذها » قال ذلك بلهجة شديدة فاستغرب مروان غضبه بلا سبب وقال فى نفسه : « يظهر ان هذه أخلاق الأولياء وأهل الصلاح »

فأخذ يخفف من غضب الشـيخ ويسايره وقال له : « افعل مابدا لك .. واذا شئت أرسلت من يحرسك حتى تصل مكانك »

فقال الشيخ والغضب باد على وجهه وفى صـوته : « الذى أريده منـك يا ابن الكردية أن تطلق سراحى قبـل أن تزهق روحى »

فحمل مروان قوله هذا أيضا على البله لاعتزال أولئك الزهاد عن الناس ، وانقطاعهم للعبادة آناء الليل وأطراف النهار فى مغارة لايرون فيها أنيسا ولا يعاشرون غير الدواب فقال له : « اذهب فى حراسة الله واعلم أن بابنا لايغلق عنك ليلا ولا نهارا ، فاذا رأيت رؤيا فتقدم بها الينا » وأمر الحاجب أن يطلق سبيله وأوصاه أن لايذكر خبره لأحد . فخرج مهرولا وخطواته واسـعة وهو ينظر الى السماء ، وعاد مروان الى مجلسه وقد اشتغل خاطره بما سمعه من قول ذلك الناسـك ، ولم يتمالك أن بعث الى أحد الخاصة من أهل ثقته .. وزعم أنه رأى رؤيا دلّته على محل الامام ابراهيم وروى له ما قاله الشيخ ، فقال الرجل : « لاريب انها

رؤيا صحيحة لأن الحميمة فى البلقاء وفيها أناس من الشيعة ، فابعث اليها من يقبض على الرجل الذى اسمه ابراهيم فانه الامام المطلوب »

فكتب مروان الى عامله على البلقاء أن يذهب الى الحميمة ، فيقبض على رجل من العباسيين اسمه ابراهيم وذكر له صفته

— ٦٠ —

معسكر أبى سلمة

وأما الناسك ، وهو صالح أو الضحاك ، فكان قد رافق جلنار ورفاقها الى الكوفة وسأل عن منزل أبى سلمة الخلال ، فأخبروه ان له معسكرا خاصا فى محلة حمام أعين خارج الكوفة ، وهو هناك بحاشيته ورجال بطانته كأنه دولة قائمة بنفسها .. وأهل الكوفة يراعون خاطره ويخشون نفوذه ، وبخاصة بعد قيامه بالدعوة العلوية .. فانه كان يبذل الأموال الطائلة فى سبيلها ، فلما تحولت الى العباسيين ، وقام بها أبو مسلم ، لم ير بدا من مسايرته ، فظل على البذل والعطاء وفى خاطره شىء لم يبح به لأحد خوفا على نفسه من غائلة القتل ، ولا سيما بعد أن بلغته وصية الامام « من اتهمته فاقتله » ، وكأنه كان يتوقع فشل أبى مسلم فى دعوة ابراهيم ، فيعود هو الى الدعوة العلوية .. اذ تكون السبل قد

مهّدت لها على أهون سبيل .. على أن تظاهره بدعوة بنى العباس لم يكن ليخفى ما فى نفسه على دهاة القواد والشيعة من أهل الكوفة ، ولكنهم كانوا يسايرونه أيضا ليستدروا أمواله فى سبيل نصرتهم ..

فلما وصل صالح بمن معه الى الكوفة وعلم أن أبا سلمة معسكر فى حمام أعين جاء بهم اليه ، وحطوا رحالهم ونصبوا خيامهم خارج المحلة يظهرون الاقامة مؤقتا للاستراحة ، وذهب صالح وريحانة حتى أتيا المعسكر فطلبا مقابلة أبى سلمة ، فأدخلوهما الى فسطاط كبير مبطن بالحرير الأحمر ببابه الحراس ، ومظاهر الثروة بادية على رياشه وأساطينه .. وكان صالح بملابس أهل خراسان فدخل وحيّا ، ولم يكن فى مجلس أبى سلمة وقتئذ أحد سواه ، فرحّب به وسأله عن غرضه ، فاغتنم تلك الخلوة وقال : « هل يعيرنى مولاى اصغاء قليلا ؟ »

قال : « نعم .. »

قال صالح : « برفقتى جارية ، فهل تأذن بدخولها ؟ »

قال أبو سلمة : « تدخل » وصفق .. فجاء غلام فأمره أن يدخل الجارية الواقفة بالباب ، فدخلت ريحانة وقد غطت وجهها بالخمار على عادة النساء عندهم ، ووقفت متأدبة فدعاها للجلوس فأبت ، ولكنها قالت : « أيذكر مولاى انه رأى هذا الوجه ؟ » وكشفت عن وجهها

فلما وقع نظره عليها تذكرها وقال : « ريحانة ؟ »

قالت : « نعم يامولاى .. »

قال أبو سلمة : « وأين مولاك الدهقان ؟ هل تركته ؟ »

قالت ريحانة وصوتها مختنق : « لا ياسيدى، بل هو تركنا ..» ولم تتمالك أن تمسك نفسها عن البكاء

فلم يستغرب أبوسلمة بكاءها ، لظنّه ان مولاها طردها ، فهى تبكى على فراقه ، فقال لها : « وكيف تركك ؟ »

فسكتت ولم تجب ..

فأجابه صالح قائلا : « اذا أراد مولاى أن نقصّ عليه الخبر فليأمر أن تذهب جاريته الى دار النساء ويأذن بذهاب الدهقانة جلنار ابنة صديقك دهقان مرو معها لأنها مقيمة خارج هذا المعسكر »

فبغت أبو سلمة وقال : « جلنار أيضا هنا .. وأين والدها ؟ »

قال صالح : « اذا أمرت بدخولها دار النساء قصصت عليك خبرها »

قال أبو سلمة : « لتدخل حالا ، فان شيرين (يقصد امرأته) تفرح كثيرا لرؤيتها »

ثم نهض هو، وأشار الى صالح أن يلاقيه من الخارج ، ودخل من باب سرى فى الفسطاط الى دار بجانبه ، ثم خرج من باب الدار وبين يديه الخدم فلقيه صالح وريحانة هناك . فأشار

أبو سلمة الى ريحانة قائلا : « ادخلى الى مولاتك شيرين » والتفت الى صالح وقال : « هؤلاء هم الخدم فمرهم بالذهاب الى الدهقانة لينقلوها بما معها الى هذه الدار »

فأثنى صالح عليه ومشى والخدم فى أثره الى خيمة جلنار وأخبرها بما فعله ، وطلب منها أن تسير معه الى الدار ، وأن يبقى الخدم هناك حتى ينقلوا الأمتعة

فمشت ، وصالح يشجعها ويمنّيها بتحقيق بغيتها ، على يد أبى سلمة حتى دخل بها الدار ، فاستقبلتها الجوارى وذهبن بها الى خالتها .. فلما رأتها شيرين ألقت بنفسها عليها ، وراحت تقبّلها وتستنشق ريحها لأنها كانت تحبها كأولادها . فأهاجت تلك القبلات ما فى خاطرها من أمر والدها وفرارها ، فغلب عليها البكاء ولم تعد تستطيع أن تمسك نفسها ، حتى خافوا عليها . فجاءت ريحانة وشاركتها البكاء ، ولكنها جعلت تخفف عنها بعبارات استدلت منها شيرين على وقوع الفتاة فى مصيبة اليتم ، فأجلستها الى جانبها وجعلت تمسح دموعها وتقبّلها . وكان أبو سلمة قد سمع الضوضاء وهو مع صالح فى غرفة الرجال فتركه ودخل دار النساء ؛ فرأى جلنار على تلك الحال فتأثر قلبه من بكائها ، وقد توردت وجنتاها ، واحمرت عيناها ، وتكسرت أهدابهما فنادى ريحانة ، فأتته أيضا وهى تبكى فسألها عن سبب بكائها فقالت : « ستسمع ذلك من صالح فانه هو سبب بقائنا

أحياء ، ولولاه لكنا مع الأموات »

فرجع أبو سلمة الى صالح وعلامات التأثر بادية على وجهه ، فأدرك صالح أنه قد آن أن يكاشفه بالأمر ، ولكنه كان يخشى أن يكون ظنه فى أبى سلمة فى غير محله من حيث رغبته فى العلويين ونقمته على أبى مسلم ، فعزم على استطلاع سره بالحيلة . فلما أقبل أبو سلمة عليه ، وسأله عن سبب ما شاهده من بكاء تلك الفتاة قال : « انها تبكى والدها .. »

قال أبو سلمة : « تبكى والدها الدهقان ..؟ وما الذى أصابه ؟ »

قال صالح : « قتلوه .. »

قال أبو سلمة : « ومن الذى قتله ؟ »

قال صالح وهو يتظاهر بالتهيب : « قتله .. قتله .. قائد رجالكم وصاحب دعوتكم »

قال أبو سلمة : « أبو مسلم ؟ »

قال صالح : « نعم ياسيدى »

فهز رأسه وقال : « لا حول ولا قوة الا بالله .. ولماذا قتله ؟ »

قال صالح : « قتله لأنه نصره بالمال والرجال ولأنه بذل كل ما فى وسعه لنصرته »

فضحك أبو سلمة ضحكة يمازجها غضب شديد وقال : « كيف يقتله لهذا السبب ؟.. قل الحقيقة .. »

قال صالح : « هذه هى الحقيقة ياسيدى ، انه كان يعطيه الأموال بغير حساب ، وقد خاطب سائر الدهاقين فى خراسان لينصروه »

فقال أبو سلمة : « لايعقل أن يكون على هذه الصورة ويقتله بلا سبب .. »

فاعتدل صالح فى مجلسه وتأدب فى جلسته حسب عادتهم فى الجلوس ، وقال : « هل تدهش لذلك من رجل يقتل على الشك ؟ ألم تسمع بوصية الامام ابراهيم ؟ »

فأمسك أبو سلمة لحيته بيده وحك ذقنه وهو يقول : « انا لله وانا اليه راجعون » وكأن فى خاطره شيئا يضمره أو يخشى اظهاره .. فتظاهر صالح بالحزن والبكاء ، وقال بصوت ضعيف : « أتستغرب ذلك من رجل يقتل على التهمة عملا بوصية امام يدعون باسمه ليلا ونهارا ، وقد عهدنا الأئمة من قبل يحاسبون أنفسهم على نملة ان قتلوها بغير حق ! »

فلم يتمالك أبو سلمة أن قال : « أولئك أئمة الهدى أبناء بنت النبى صلى الله عليه وسلم .. أولئك أبناء الامام علىّ كرم الله وجهه » . قال ذلك وغص بريقه

- ٦١ -

المكاشفة

فاغتنم صالح تلك الفرصة وقال : «فلماذا حولتم الدعوة اذن الى هؤلاء وأنتم أصحاب هذا الأمر ..؟ أم هى لاتزال فىالحقيقة لأبناء الامام علىّ وانما تظهرون البيعة لابراهيم تمويها ؟ »

فسكت أبوسلمة ولم يجبه ، وكان الجواب يحشرج فى صدره ولا يأمن التصريح به .. فابتــدره صالح قائلا : « يظهر لى ان أولئك الناس خدعوك وتملقوك طمعا فى أموالك .. وأنا أعلم يقينا انك غير راض عن امامهم هذا ، ولكنك لا ترى أن تفسد عليهم أمرهم ، لأن تظاهرك ضدهم يؤذيهم .. »

فلم يعد أبو سلمة يستطيع صبرا عن الكلام فقال : « كلا .. ولكننى أعلم اننى لو قلت ما فى نفسى لم أجد من ينصرنى .. ولا أدرى كيف تغيروا جميعا وقبلوا هذا الامام وهو صاحب هذه الوصية »

ففرح صالح بهذا التصريح وقال : « وماذا عسى أن يكون من أمر هذا الامام وهو كأحد الناس ، وأنتم جعلتم له هذه المنزلة وجمعتم له قلوب أهل فارس وخراسان »

وكان أبو سلمة جالسا يصغى لكلام صالح .. فلما سمع قوله هذا هبّ من مجلسه بغتة ، وجعل يضرب فى الغرفة ذهابا وايابا ،

ومطرفه يجر وراءه وصالح يرقب حركاته وتقلبات عواطفه ، فأدرك انه يكتم كرهه لهذه الدعوة ، فنهض معه ووقف فى أحد جوانب الغرفة ، وأطرق تهيبا مما جاش فى خاطر أبى سلمة . ثم وقف أبوسلمة أمام صالح ، وهو يصلح قلنسوته الموشاة ، وقال : « قد جمعنا له قلوب أهل خراسان وفارس ومكناه من سيوفهم وأيديهم وألسنتهم فأصبح هو المالك ولا حيلة لنا »

فقال صالح : « الحيلة سهلة يامولاى »

فضحك مستهزئا وقال : « كيف تستسهل ما لاسبيل اليه ?.. ان مئات الألوف من الفرس وغيرهم يدعون باسم ابراهيم الامام ، فكيف نستطيع تغيير قلوبهم ? »

فقال صالح : « قلت لمولاى ان ذلك هيّن علىّ ، فهل تصغى لقولى ?.. وهل أنا فى خطر على حياتى ? »

قال أبو سلمة : « قل ما بدا لك ولا تخف ، انك فى أمان »

قال صالح : « ما قولك فى قطع الشجرة من جذرها ومحاكمة الرجل بقانونه ? »

وكان أبو سلمة يخاطب صالحا وهو يتمشى .. فلما سمع قوله وقف وأطرق ، وسبابته بين شفتيه ينقر بها قواطعه ، ويده الأخرى فى منطقته .. ثم رفع بصره الى صالح ، وقال : « ماذا تعنى يا صالح ? »

فقال صالح : « أعنى أن نقتل ذلك الرجل »

فقال أبو سلمة : « ومن الذى يجرؤ على قتله ..؟ »

فقال صالح : « علىّ تدبير ذلك .. أنا أقتله ولا يشعر بى أحد .. فهل اذا فعلت ذلك يهون عليك تحويل هذه الدعوة ومقاومة أبى مسلم ..؟ انه بدونك لا يستطيع عملا ولا سيما اذا علم الناس بمقتل صاحب الوصية .. فلا شك عندى انهم سيفرحون لقتله ، وأول من يفرح هذه المسكينة التى قتل أبومسلم أباها ، ونهب قصره ، وجعلها شريدة طريدة ، وأخشى أن يصل خبرها الى أبى مسلم فيبعث اليها لأنه يفتش عنها لكى يقتلها ، فتأمل واعتبر هذه المعاملة .. ولا غرو فان هذه هىقاعدة العمل عند أبى مسلم ، يتقرب الى الرجل وهو فى حاجة اليه .. فاذا فرغ من حاجته قتله ، فيجب أن يكون كل منكم ساهرا على حياته .. أقول ذلك بكامل الحرية ولك الخيار »

فأدرك أبو سلمة انه يعرض بالخطر على حياته هو ، فتجاهل وعاد الى اتمام الحديث فقال : « وهل أنت واثق من قدرتك على ما وعدت به ؟ »

قال صالح : « لك علىّ ذلك فى مدة لا تتجاوز مسافة الطريق وبضعة أيام .. أليس صاحبكم فى الحميمة ؟ »

فقال أبو سلمة : « بلى .. »

قال صالح : « لا تمضى أربعة أسابيع أو نحوها حتى يقضى عليه ، وسأذهب فى هذه المهمة وأترك عندك مولاتى الدهقانة

وخدمها ، وربما أخذت معي واحدا منهم ، فأوصيك بها خيرا ..»

قال أبو سلمة : « لا توصيني ببنت دهقان مرو ، فانه كان صديقي فضلا عن صلة النسب بيننا ، فان شيرين خالة جلنار وقد احتضنتها احتضان الوالدة لولدها .. فكن مطمئنا لهذا الأمر »

وكان أبو سلمة قد استبشر بما سمعه من صالح وتوسم فى الرجل قوة وعزما ، وجاء كلامه مطابقا لما فى خاطره .. فعزم على استخدامه لتحقيق مصلحته ، فأظهر له الارتياح وأثنى عليه ، ولم يعلم أن صالحا انما فعل ذلك خدمة لمصلحته هو ، لا يهمه من تلك الأحزاب غير الخوارج .. وانما يهمه فضلا عن ذلك أن ينتقم لنفسه من أبى مسلم لأنه تعمد قتله بالسم ، وأبو مسلم يحسبه فى عداد الأموات

فلما بلغ بهما الحديث الى هذا الحد ، أشار أبو سلمة الى صالح أن ينزل للاستراحة فى دار الضيوف على أن يعود الى الكلام فى هذا الموضوع .. فمضى ليقضى بقية يومه فى الراحة وتدبير بعض الشئون ، وسار الى ريحانة فاجتمع بها وأطلعها على ما دار بينه وبين أبى سلمة وأفهمها أمورا تقولها لجلنار ، وأوصاها بالبقاء هناك ريثما يعود من مهمته الى الشام ، وانه سيصطحب معه سليمان الحلبى لأنه يعرف تلك البلاد . ثم دعا سعيدا ، أبا العينين فأوصاهما بكتمان كل شيء عن أهل الدار فوق وصية لأبى سلمة بذلك . وفى اليوم التالى استأذن أبا سلمة فى الذهاب ، فعرض

عليه مالا .. فأبى وقال : « انى أقوم بهذا الأمر خدمة لمصلحة المسلمين لا أطلب عليها أجرا »

– ٦٢ –

الرحيل الى الحميمة

فركب صالح جملا سريعا ، وكذلك سليمان .. وحملا ما يحتاجان اليه من الطعام والماء ، وأسرعا نحو الشام . وكان صالح فى أثناء تلك المدة يبحث عن أحوال شيبان ورجال الخوارج سرا بالاستفهام وغيره . وقد تقدم ان شيبان نزح عن مرو بعد أن أيقن بوقوعها فى يدى أبى مسلم . فلما استتب الأمر لأبى مسلم هناك بعث الى شيبان يدعوه الى البيعة فأجابه شيبان : « أنا أدعوك الى بيعتى » فكتب اليه أبو مسلم : « ان لم تدخل فى أمرنا فارحل عن منزلك الذى أنت فيه » فسار شيبان الى سرخس واجتمع اليه جمع كثير من بكر بن وائل ، فخشى بأسه أبو مسلم.. فبعث اليه رسلا لمخابرته فسجن الرسل ، فبعث اليه جندا حاربوه وغلبوه ، فهرب الى بلد آخر وآخر حتى دخل المدينة فقتل فيها وذهب أمر الخوارج (١) ؛ وقد وصل خبر مقتل شيبان الى صالح وهو سائر فى طريقه الى الشام ، فشق ذلك عليه وكاد يذهب

(١) ابن الاثير — الجزء الخامس

بنشاطه وسعيه ، ولكنه تذكّر اساءة أبى مسلم اليه ، ورأى انه مطالب أيضا بالانتقام لشيبان وسائر الخوارج ، وهم يرون السلطة لا تجوز لأحد ، فاذا تمكن من افساد أمر بنى العباس فقد خدم المبدأ الأصلى عندهم، وعلى هذا يحل له قتل كل ذى سلطان يدعى الخلافة ، ومهما أكثر من قتل هؤلاء فذلك معدود عنده من الحسنات .. ووجد نفسه بين جماعات ، كلٌ منهم يدعى الخلافة لنفسه : الأمويون والعباسيون والعلويون ، وكلهم فى اعتبار الخوارج لايليقون للخلافة .. فأيهم استطاع قتله ، أو أفسد أمره، فقد خدم به مصلحة أصحابه

وما زالا سائرين مسرعين حتى وصلا الى دمشق ، فنزلا خارجها .. وقضى صالح أياما وهو يدرس أحوالها . وترك سليمان هناك وسار الى الحميمة فتحقق من وجود بنى العباس وفيهم ابراهيم الامام ، ثم عاد واحتال الحيلة التى ذكرناها لتنطلى حيلته على مروان بغير أن يعرفه أو يبحث عن قبيلته أو اسمه أو غير ذلك . فلما خرج من عند مروان فى تلك الليلة سار توا الى خارج المدينة حيث التقى بسليمان الحلبى ، وبدّل ثيابه فلبس العمامة والجبة مثل سائر أهل الشام وتظاهر بالتقوى ، وأمر سليمان أن يسير فى أثره كأنه خادم له ، وأوصاه وصايا تنفعه فى المهمة التى يهمّان بالقيام بها .. وذلك انه قصد البلقاء مسرعا حتى وصل الى الحميمة على جمله ، وسليمان على جمل آخر فى اثره . فلما وصل

« وما زال صالح يواصل السير هو وسليمان حتى وصلا الى دمشق ، فنزلا خارجها .. وقضى صالح اياما وهو يدرس احوالها »

الى الحميمة ، نزل فى خان وتظاهر بالتقوى والولاية . وأشاع خادمه سليمان انهما قادمان من الحجاز فى مهمة لرجل سيكون له شأن عظيم ، اسمه ابراهيم .. فلما سمع أهل الحميمة ذلك ، خشى الذين يعرفون صاحب الدعوة من صالح لئلا يكون قادما بدسيسة .. فأنكروا وجود هذا الاسم . وكان بعضهم يجتمعون اليه فى الخان يتجسسون ما فى نفسه بغير أن يخبروه عن منزل الامام ، فكان صالح يتظاهر بالبله ويقول : « تكبدت مشقة السفر من الحجاز الى الشام لأرى الامام وتمنعوننى عنه ، وأنا انما جئت لأنبئه بهاتف أخبرنى ان حياته فى خطر قريب حتى يحترس» ولم يقل صالح ذلك الا حينما تحقق قرب وصول رجال مروان بحيث لم يعد فى امكانهم الفرار من أيديهم .. فلما بلّغ الامام قوله أرسل اليه أخاه أبا العباس متنكرا كأنه أحد أهل المحلة ، فقدم الى الخان وسمع أقوال صالح من فمه .. فلم يهتم بها اذ لم يثبت عندهم أنه من أهل الكرامة

ولم يمض على ذلك يومان حتى جاءت جنود مروان بغتة فأحاطوا بالمحلة حتى دلّهم بعض أهلها على دار بنى العباس ، وهم كثيرون فقاوموا الجند حتى كادت تكون مذبحة . فقال رئيس تلك الشرذمة : « ان أمير المؤمنين يطلب أحدكم الذى يسمى ابراهيم ، ولا خوف عليه ولا بأس عليكم جميعا .. فسلموه الينا بلا قتال . أما اذا اضطررتمونا للقتال ، حلّ لنا أخذكم جميعا »

فتذكر أبوالعباس كلام صالح ، وتبيّن له صدقه .. ولكن لم يعد عندهم حيلة للنجاة ، فتشاوروا فيما بينهم سرا ، فاستقر رأيهم على تسليم الامام ابراهيم فسلّموه .. وكان اخوته ثلاثة : أبا العباس ، وأبا جعفر المنصور ، وعبد الوهاب .. فتحقق ابراهيم انه مقتول ، فأوصى بالخلافة بعده الى أبى العباس .. وأمرهم أن ينتقلوا الى الكوفة وفيها شيعتهم

- ٦٣ -

أبو جعفر المنصور

وكان صالح قد علم بالقبض على ابراهيم ، ففرح لنجاح مسعاه وتربّص الى الغد ليسرع الى أبى سلمة ليخبره بما حدث . فلما أمسى المساء جلس للعشاء وهو لا يزال بملابس أهل الشام ، وقد تنكر وصبغ لحيته بالحناء وجعدها بعد أن حشاها بالشعر لتذهب خفتها ، وتظاهر بالبله . وجلس بعدالعشاء فى حجرته يتوقع أن يأتيه بعض أهل الامام للاستشارة بعد أن تحققوا من صدق نبوءته ، واذا بخادمه سليمان قد دخل وهو يقول : « ان بالباب رجلا شريفا يطلب مقابلتك » فتظاهر بعدم رغبته فى المقابلات فى تلك الساعة لانشغاله بالصلاة ، ثم أذن للقادم .. فدخل عليه شاب أسمر اللون ، نحيف البدن ، عليه قباء أصفر وعمامة

سوداء ، والهيبة تتجلى فى وجهه مع صغر سنه

فلما دخل علم صالح أنه أبوجعفر المنصور ، وكان قد عرفه من قبل ، والمنصور لا يعلم . فقال صالح فى نفسه : « انما جاء الرجل لأمر هام » فأعمل فكرته لاتمام الحيلة ، فوقف له ورحب به قائلا : « مرحبا بصاحب القباء الأصفر »

فلما سمع المنصور قوله بُغِت وتحقق من كرامته واطلاعه على الغيب ، فأسرع اليه واستأذنه فى الجلوس ، فجلسا وصالح يبتسم كأنه يضمر شيئا ، فقال له المنصور : « لقد جئتك فى مهمة سرية لأنى تحققت من كرامتك ، فهل أبوح لك بما فى نفسى ؟ »

قال : « سواء عندى أبُحتَ أم كتمت ، فانى عالم بما فى نفسك .. فاذا أحببت أن أطلعك على ما فى ضميرك فعلت ، واذا شئت أن تقول فانى سامع »

فازداد المنصور اعجابا بالرجل وقال : « قد تحققت من صدق كرامتك من أول كلمة سمعتها منك .. وانما أطلب اليك أن تخرج خادمك لنخلو برهة »

فأشار صالح الى الخادم فخرج ، وأخذ صالح يعبث بلحيته وهو مطرق يجيل عينيه فى جوانب الحجرة كأنه يفتش عن ضائع ، ثم تمتم ليوهم جليسه أنه يصلّى فابتدره المنصور قائلا : « أتعلم لماذا جئتك ؟.. »

وكان صالح يعلم ان هؤلاء لا يهجسون بغير الخلافة ، وكل

منهم يطمع فيها لنفسه .. فقال له : «جئتنى لأمر يتعلق بالخلافة»
قال : « نعم .. لذلك جئتك ، فاصغ لى وأشِر علىّ .. ولكن اخبرنى قبل كل شيء ، هل أنت تستطلع الغيب بالولاية أو بالتنجيم ؟ » وكان المنصور شديد الاعتقاد بالتنجيم وصدق المنجمين ..

فقال صالح : « بكليهما لأنى أمارس التنجيم الروحانى .. فأطّلع على المخبآت بمراقبة النجوم ، ولكننى لا أستخدم الاسطرلاب .. تفضل قل ما تريد فانى سامع »

قال : « قد عرفت صدقك من انذارك ايانا فى صباح هذا اليوم ، ولم يسعدنا الحظ بالاطلاع على الحقيقة الا بعد فوات الفرصة ، فأخذوا أخى الامام ابراهيم أسيرا ولا ندرى ماذا يكون مصيره ، غير اننا لا نرجو بقاءه .. وقد أنبأنا هو بذلك وأوصانا وصية تتعلق بالبيعة .. »

فقطع صالح كلامه وقال : « البيعة لك ! » لعلمه ان تلك البشارة أفضل ما يتقرب به الناس من هؤلاء الأشراف

فقال : « وما أدراك انها لى ؟ فقد بويع بها أخى أبو العباس الليلة ؟ »

قال صالح : « بل هى لك .. ان لم يكن عاجلا فآجلا » . قال ذلك خداعا للمنصور لعلمه أن قوله يجتذب قلبه نحوه .. وما ضرّه لو لم تصح نبوءته ، وقد أجل وقوعها لوقت لم يحدده

وكان المنصــور من أهل الذكاء والدهاء ، ولكنه سبق الى اعتقاده صدق صالح من أول نبوءة ، وتوسم الولاية فى وجهه بما شــاهده من بلاهته فقال له : « انما جئتك لهذه الغـاية وقد تحققت من صدقك منذ ناديتنى بصاحب القباء الأصفر »

ولم يكن صالح قد قال ذلك لغرض ولكن اتفق أن لهذه العبارة حكاية أخذ المنصور يقصها عليه ، فقال وهو يشير الى قبائه : « ان هذا القباء يشهد بصدقك ، فقد اجتمع بنو هاشم منذ مدة فى المدينة وأنا معهم للنظر فى أمر البيعة لمن تكون بعد ذهاب دولة بنى أمية ، وكان الامام جعفر الصادق حاضرا فقال : «لاينال الخلافة الا صاحب القباء الأصفر » وكنت لابسا هــذا القبــاء فوعدت نفسى بهذا الأمر ورتبت العمال من تلك الساعة » (١)

ففرح صالح لهذه المصادفة ، وأخذ يستخدم دهاءه لاتمــام الحيلة فقال : « ألم أقل لك ذلك ؟ »

قال : « نعم .. ولكن الواقع خلاف ما ذكرت ، فقد بايعوا قبلى لأخى ابراهيم ، ولما ساقوه اليوم الى السجن بايع لأخى أبى العباس ، وأوصانا أن نذهب الى شيعتنا فى الكوفة »

فقطع صالح كلامه كأنه لايريد أن يسمع قوله وقال : « لا .. لا .. بل أنت الخليفة ، هذا الذى أعرفه . ولو بويع بها كل أهلك فانها صائرة اليك .. أبشر بها من الآن وسترى ونرى ان شاء

---

(١) الفخرى — ١٤٧

الله » .. قال ذلك ووقف كأنه يريد أن يصرف جليسه ، فلم يعبأ المنصور بتدلله لعلمه ان أهل الكرامة يغلب فيهم غرابة الطباع فوقف وهو يقول : « ما بالك ؟ »

قال صالح : « لقد آن وقت رجوعى الى بيتى »

فقال المنصور : « ألا تمكث معنا فنذهب سويا الى الكوفة ، فاذا صح قولك كافأناك ؟ »

فقال صالح : « ياحبذا ذلك ، ولكننى مضطر للذهاب الى المدينة بجوار قبر الرسول ، وأما الكوفة فلا أعرفها ولا أريد الذهاب اليها »

قال المنصور : « أتشير علينا بالذهاب اليها ؟ »

قال صالح : « كيف لا .. وفيها أبو سلمة ؟ »

فاستغرب معرفته اسم أبى سلمة بعد أن قال انه لا يعرف الكوفة فقال له : « أما من سبيل الى استبقائك معنا ؟ »

قال صالح : « ان بقائى أو ذهابى ليس بارادتى .. فقد كنت مقيما فى المدينة ، ولا أعرف هذا البلد من قبل .. فسمعت الهاتف يأمرنى بالمجىء بهذه المهمة ، ووصف لى البلد ، فجئت كما علمت.. ولكنكم لم تصدقونى فأصابكم ما رأيت ، وربما يأتينى هاتف آخر بأمر يتعلق بك فآتيك حيثما تكون .. أما الآن فأطلب اليك أن تأذن فى انصرافى »

وكان المنصور مع اعتقاده بالولاية والتنجيم صاحب دهاء

ومكر ، فلما رأى صالحا يبالغ فى التباعد عنه بعد أن طلب اليه البقاء معه تحقق أن الرجل لا غرض له غير الصدق ، اذ لو كان من أهل النفاق لاغتنم تلك الفرصة للبقاء معه .. ولا سيما بعد اعتقاده انه سيكون خليفة ، فغلب فى ظنه صدقه وود لو يرافقه ليستعين به فى الاطلاع على المخبآت لأن المنصور كان شديد الاعتقاد فى التنجيم كثير الاعتماد على المنجمين (١) فلما لم ير حيلة فى ابقائه قال له : « ما اسمك ؟ وأين مقامك ؟.. حتى اذا وفقت الى الخلافة قربتك واستعنت بعلمك »

فقال صالح : « لا تفيدك معرفة اسمى ولا مكانى .. دعنى أنصرف الآن وسآتيك عند الحاجة ، وربما جئت عاجلا لأنى أشعر بظلمة تحدق بخلافتك .. اذا انقشعت ظهرت الحقيقة ، أما الآن فانى منصرف » .. قال ذلك ونادى غلامه ؛ فقال المنصور : « اذا كنت مصمما على الذهاب فأستودعك الله » وخرج

— ٦٤ —

اقتل .. ثم اقتل

وكان صالح لما علم بعزم أبى العباس واخوته على الذهاب الى أبى سلمة ، أحب أن يستعجل اليه ليخبره بما كان .. فيدبر حيلة

(١) ابن الاثير — الجزء الخامس

لاتمام ما ينويانه على آل العباس ، فأصلح لحيته وبدل ثيـابه فرجع الى حاله الأول .. وأمر خادمه سليمان أن يهيىء الجملين .. وأغلق باب الحجرة على نفسه ومكث يدبر بعض الأشياء ، فلما فرغ سليمان من اعداد الجملين ذهب الى صاحب الخان ، فدفع اليه أجرة الحجرة وثمن العلف .. ولبث ينتظر خروج صالح وهو منذهل من دهائه واحتياله حتى أصبح لايجرؤ على مخاطبتـه . فطال انتظاره وقد أمسى المساء ، وهو لا يعلم ما يعمله مولاه داخل الحجرة ، ثم خشى أن يكون احتباسه لسوء أصابه فتقدم نحو الحجرة وهو يخطو خطوا خفيفا ويتطاول بعنقـه ويصيخ بأذنيه ، لعله يسمع حركة أو صوتا يستدل به على شيء .. فوصل الى الباب فرأى من بعض شقوقه نورا ضعيفا ولكنه لم يسمع صوتا فوقف يتسمع وهو يتردد بين أن يقرع الباب أو ينتظر وهو صامت .. فاذا هو بالنور قد انطفأ ، وسمع وقع أقدام ، فعلم أن صالحا خارج ، ثم ما لبث أن رأى الباب قد فتح .. وأطل منه رجل طويل القامة حاسر الرأس ، حافى القدمين ، عارى الزندين ، وقد تجعد شعر رأسه ولحيته وتلبد من الوسخ والاهمال ، وعليه قميص طويل يكسوه الى الركبة ، والقذارة ظاهرة على كل شيء فيه ، فبغت سليمـان لأول وهلة .. ثم تذكر انه رآه فى هـذه الصورة منذ بضعة أيام ..

أما صالح فانه أسرع الى عباءته والتف بها وغطى رأسه ولحيته

وأشار الى سليمان فخرج معه الى الجملين ، فركبا وخرجا من الخان حتى أمسيا خارج المحلة وهما صامتان لا ينطق أحـــدهما بكلمة ، ثم قال صالح : «ياسليمان، أتعلم الى أين نحن ذاهبان؟»

قال سليمان : « أظننا ذاهبين الى دمشق .. »

قال صالح : « نعم .. اننا ذاهبان اليها كالمرة الماضية ، فتبقى أنت فى انتظارى خارج المدينة ريثما أعود اليك »

فقال سليمان : « سمعا وطاعة .. »

وساقا الجملين طول ذلك الليل ، واليوم التالى وما بعده ، من غير أن يستريحا الا قليلا ، وما زالا حتى اخترقا الغوطة وأشرفا على دمشق نحو الغروب .. فاذا بغبار يتطاير قرب باب المدينة فوقفا ، وقال صالح : « أسرع ياسليمان وأتنى بخبر هذا الغبار فانى فى انتظارك هنا ، واحذر أن يعلم أحد بحقيقة حالنا »

فهزّ سليمان رأسه ، استنكارا لذلك التحذير ، واتجه بجمله نحو المدينة ، وظل صالح فى انتظاره وهو على جمله ، وقد التف بالعباءة . ولم تمض برهة حتى رآه عائدا ، فلما أقبل عليه قال : « ماذا رأيت ؟ »

فقال سليمان : « رأيت معسكر الخليفة مروان بن محمد »

فقال صالح : « والخليفة معهم ؟ »

فقال سليمان : « نعم .. »

فقال صالح : « هل علمت سبب خروجهم ؟ »

فقال سليمان : « علمت انهم عسكروا هنا تأهبا للسفر فى صباح الغد »

فقال صالح : « الى أين ؟ »

فقال سليمان : « أظنهم ذاهبين الى حرب فى بلاد بعيدة لكثرة ما أعدوه من الأحمال والأثقال »

فأطرق صالح وقد أدرك أن مروان خارج لقتال شيعة العباسيين فى العراق بعد أن تحقق من استفحال أمرهم على أثر دخولهم مرو وزحفهم نحو العراق . فترجل وأشار الى سليمان ، فنزل وجلس فى ظل شجرة والليل قد أسدل نقابه ، وقدم سليمان طعاما كان قد حمله من الخان .. فأكلا ، حتى اذا فرغا من الطعام قال صالح : « انى ذاهب فى مهمة الى هذا المعسكر ، فامكث أنت هنا ريثما أعود اليك .. وأطعم الجملين ، وكن مستعدا للرحيل »

فقال سليمان : « سمعا وطاعة .. »

ونهض صالح فخلع العباءة ، فظهر بزيّه الجديد ، وشعره المجعد وقميصه القصير وقذارته ، ثم تمرغ فى تراب ناعم هناك حتى كساه الغبار كأنه قادم من سفر طويل ومشى نحو خيمة الخليفة

وكان مروان فى شغل مما بلغه من أمر الشيعة واستفحالها فى فارس والعراق حتى خشى على سلطانه ، وقد أجل سفره حتى جاءه الخبر بالقبض على الامام ابراهيم فى صباح ذلك اليوم ،

فأمر أن يحبسوه فى حران وخرج بجيشه ليبيتوا تلك الليلة فى الغوطة ثم يبكرون فى صباح الغد . فلما فرغ من العشاء صرف أمراءه وجلس فى فسطاطه يدبر شئونه ، وكان مشتغل الخاطر كثير القلق لما أحاط به من المشاغل ، فلم يستطع نوما . وبينما هو فى ذلك اذ جاءه الحاجب يخبره بمجىء الناسك المعروف ، فبغت مروان لأول وهلة ، ثم شعر براحة واطمئنـــان عند ذكر اسمه وقال : « ليدخل حالا »

وما لبث أن دخل صالح فى الحالة التى ذكرناها ، فرحب به مروان ولم يجرؤ أن يدعوه للجلوس .. فابتدره صالح قائلا : « لقــد كابدت مشقة كبرى ، وسفرا طويلا ، حتى تمكنت من الوصول اليك قبل سفرك »

فقال مروان : « لعلك جئتنى ببشرى جديدة ؟ »

فقال صالح : « ليست هى بشرى جديدة يا ابن محمد ، ولكننى علمت انهم قبضوا على ذلك الرجل وانك حبسته فى حران ، فاذا أبقيت عليه فانك لم تفعل شيئا .. اقتل .. ثم اقتل .. ثم اقتل ..»

فأطرق مروان ولم يستغرب الرأى ثم قال : « طب نفســا ، واعلم انه مقتول .. »

فلمــا ســمع قوله ، تحول يريد الخروج فأراد أن يدعوه للجلوس .. فتذكر ما كان من انكاره ذلك فى المرة الماضية ، فلبث صامتا وهو يرى صالحا يسير نحو باب الفسطــاط فى خطوات

طويلة ، ورأسه متجه نحو السقف حتى خرج من الباب ، ولم يلتفت الى الوراء »

فعاد مروان الى هواجسه وقد اطمأن خاطره من بعض الوجوه وارتاح الى رأى الناسك ، ومال الى الاعتقاد فى كرامته مع انه كان من أهل الشكوك فى الدين .. ولكن الانسان مفطور على الضعف وحب الذات ، فاذا رأى حادثا وافق غرضه ــ وان كان مخالفا لاعتقاده ــ يغلب عليه ضعفه فيصدق المستحيل ..

— ٦٥ —

حاييم المنجم

رجع صالح وقد تحقق أن ابراهيم مقتول بعد قليل ، وأخذ يفكر فى أمر اخوته وذهابهم الى الكوفة ، وما يكون من أمر أبى سلمة ، حتى اذا عاد الى خادمه سليمان وجده فى انتظاره ، وقد أعدّ الجملين فركبا وسارا مسرعين . وقبل خروجهما من الغوطة ترجّل صالح عند بحيرة هناك ، اغتسل فيها وأصلح شعره ، ولبس ثيابه ، وتلثم بالكوفية والتف بالعباءة وسار يطلب العراق وهو يكاد يواصل السير ليلا ونهارا حتى لا يسبقه العباسيون الى أبى سلمة . وبعد مسيرة أيام ، أشرف فى الصباح على الكوفة فأطل على حمام أعين ، فرأى قصورها وحدائقها وفساطيطها ، وتذكر

المهمة التى جاء من أجلها ، فأيقن انه فائز بتحقيق هدفه فى اخفاق أمر العباسيين لمقتل ابراهيم ومجىء اخوته وسائر أهله الى أبى سلمة ، فيهون عليه اغراؤه بقتلهم أو حبسهم ، فتذهب دولتهم .. ويقوى الشيعة على أبى مسلم ، فيفشل ويسهل عليه الانتقام منه

فاستراح فى ظل شجرة هنيهة ، ثم ركب مسرعا الى حمام أعين وأمر سليمان أن يذهب الى جلنار ليخبرها بمجيئه . وسار توا الى منزل أبى سلمة وهو لايزال ملثما بالكوفية وملتفا بالعباءة ، فلما وصل الى الباب ترجّل وأراد الدخول .. فاعترضه الحراس ومنعوه من التقدم ، فاستخف باعتراضهم وقال لهم : « أخبروه انى رسول أحمل اليه كتابا .. »

فقال أحدهم : « لايستطيع أحد أن يخاطبه فى شىء الآن »

فقال صالح : «ولكننى رسول جئت بخبر هام لاينبغى تأجيله»

قال : « مهما يكن من أمر رسالتك ، فنحن مأمورون بمنع أى انسان من الدخول عليه لانشغاله بمقابلة سرية »

فاضطرب خاطر صالح بتلك المقابلة مع هذا التشديد فى منع الداخلين عليه ، ولم ير بدا من الطاعة .. فتحوّل الى مقعد بجانب الباب وحل عقال كوفيته تخفيفا من وطأة الحر ، وجلس يفكر فيما سمعه .. ثم سمع تصفيقا ، ورأى الحراس على أثره فى حركة واهتمام ، وقد دخل أحدهم ثم عاد يتقدمه رجل قصير القامة غريب الملبس عليه عمامة كبيرة جدا ، وقد كحل عينيه

بكحل كثير وأرسل سالفيه على صدغيه ، وجعل لحيته شطرين ، أرسل كل شطر منهما الى جانب من صدره ، وعليه جبة من الخز واسعة ، وبيده عكاز يتوكأ عليه ، ووراءه غلام ، وقد علق على احدى كتفيه جرابا مزركشا وحمل اسطرلابا كبيرا وتأبط كتابا ضخما .. فلما رآه صالح اختلج قلبه فى صدره من البغتة لأنه يشبه صاحبه ابراهيم اليهودى خازن أبى مسلم ، فتفرس فيه وقد دهش ، وكاد الدم يجمد فى عروقه اذ تحقق انه ابراهيم بعينه .. وندم على حل لثامه مخافة أن يراه فيعرفه وينكشف أمره

أما ابراهيم فانه خرج وهو يمشى الخيلاء يضرب الأرض بعكازه ويلتفت يمينا وشمالا ، والحرس وقوف بين يديه هيبة واحتراما ، فوقع بصره على صالح فتفرس فيه حينا وقد امتقع لونه عند رؤيته ، ولكنه تجاهل وظل سائرا الى بغلة عليها عدة موشاة بالديباج أسرع بعض الغلمان فى تقديمها اليه ، وساعده غلامه فى الوثوب على ظهرها.. ولم تكن الا لحظة حتى ركبها وسار

وظل صالح واقفا وقد تولته الدهشة ، ثم انتبه لحاله وقال فى نفسه : « ما الذى جاء بهذا الخبيث الى هنا ؟ .. لابد انه قادم بدسيسة ؟ » ثم التفت الى الحاجب وقال : « هل تظن مولانا يأذن بدخولى عليه الآن ؟ »

فدخل الحاجب ثم عاد ، فدعا صالحا .. فدخل حتى أقبل على أبى سلمة فى قاعة كبيرة كان جالسا وحده على وسادة فى صدرها

وقد ظهر الاهتمام على وجهه ، فلما رأى صالحا مقبلا ابتسم له ورحب به ودعاه للجلوس الى جانبه . فهمّ أولا بتقبيل يده احتراما ثم جلس ، فابتدره بالسؤال عن حاله وسلامته فأجابه بالدعاء .. فقال أبوسلمة : « أرجو أن تكون قد فزت فى مهمتك ليتم سرورنا فى هذا اليوم .. »

فقال صالح : « لقد نجحت فى مهمتى أحسن نجاح بفضل بركتك ودعائك .. فهل نحن فى مأمن من الرقباء ؟ »

فقال أبو سلمة : « نحن فى مأمن .. قل ما بدا لك .. »

فقال صالح : «أتقدم الى مولاى بسؤال أرجو ألا يضجر منه»

فقال أبو سلمة : « اسأل .. فانك مطاع »

فقال صالح : « العفو يامولاى .. انك أنت الآمر الناهى ، ولكننى رأيتك منبسط الوجه على غير ما تعودته من ظهور الاهتمام والقلق فى محياك منذ تشرفت بالمثول بين يديك فى المرة الماضية ، فهل من خبر جديد يدعو الى السرور ؟ »

فضحك أبوسلمة وقال : « ليس ثمة خبر جديد، ولكن عرافا باهرا جاءنى فى هذا الصباح رأيت منه العجائب ، وتحققت انه من أمهر العرافين الى حد بعيد »

فقال صالح : « أظنه الرجل الذى خرج من عندك الساعة ؟ »

قال أبو سلمة : « هل رأيته خارجا ؟.. نعم هو هذا بعينه .. انه العراف حاييم من يهود حران ، وله مهارة عجيبة فى علم

التنجيم .. »

فقال صالح : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

فقال أبو سلمة : « عرفْته مما شاهدته من كشفه الأسرار ، فقد أخبرنى عن أمور خفية لم يكن يعلمها أحد غيرى ، حتى ذكر لى مجيئك الىّ ، وتلا علىّ بعض ما حدثتنى به .. »

فلما سمع صالح قوله أجفل ، وتحقق ان ذلك اليهودى قادم للبحث عنه .. ولكنه استغرب اطلاعه على وجوده هناك ، وعلى ما دار بينه وبين أبى سلمة ، وخشى أن يبدو ذلك فى وجهه ، فتجاهل وأظهر الاستخفاف ، وقال وهو يضحك : « وما الذى قاله لك ؟ »

قال أبو سلمة : « أخبرنى قبل كل شىء عما يكنه ضميرى من أمر هؤلاء العباسيين وتعديهم على الخلافة ، فأنكرت ذلك عليه لئلا يكون قادما بدسيسة من أحدهم ، فاستخف بانكارى وظل على قوله .. وبرهن على صدقه بأقوال لم يكن أحد يعلم بها سواى ، وبعضها لم يطلع عليه أحد سواك . ومن جملة ذلك انه ذكر مجيئك الينا ومعك ابنتنا جلنار ، وقص ما أصابها من الأذى على يد أبى مسلم ، ورأيته ناقما على هذا الخائن لغدره بها مع انه لم يعرف الفتاة ولا أبا مسلم ولا رآهما .. وأنك أخبرتنى ان حديث جلنار ووالدها المسكين لم يطلع عليه أحد ، وقد أوصيتنى بحفظه مكتوما . وكان لا يقول شيئا الا بعد مراجعة

كتابه واستعمال اسطرلابه .. فلما رأيت منه صدق هذه الأقوال ، وثقت به وسألته عما يراه من مستقبل هذه الأحداث ، فطمأننى وبشرنى .. »

فلم يتمالك صالح عن قطع كلام أبى سلمة قائلا : « هل أخبرته عن المهمة التى ذهبت بها الى الشام ؟ »

فقال أبو سلمة : « لم يترك لى بابا لأخبره عن شىء ، بل هو كان يخبرنى عما فى نفسى حتى قال لى : ان المهمة التى سار بها صاحبك (يعنى أنت) لاريب فى نجاحها »

فاستعاذ صالح بالله ، وأيقن ان ابراهيم انما أتى بدسيسة من أبى مسلم للبحث عنه وعن جلنار ، ولكنه استغرب اطلاعه على تلك التفاصيل .. فانقبضت نفسه وأسقط فى يده ونسى فرحه بقتل الامام ابراهيم وأطرق مبهوتا ولم يحر جوابا ، فأنكر أبو سلمة حاله فقال له : « مالى أراك صامتا لا تتكلم ، أخبرنى عما فعلته فى سفرك ؟ »

فقال صالح بصوت ضعيف يكاد يكون مختنقا : « ما الفائدة من نجاحى فى مهمتى بعد ما سمعته منك ؟ »

فبغت أبو سلمة ولم يفهم مراده فقال : « وما الذى سمعته منى ؟.. انه ليزيدنا سرورا ويطمئننا على حسن العاقبة .. »

فقال صالح وقد ترقرقت الدموع فى عينيه من شدة الغيظ : « كلا يامولاى ، وانما هو يذهب بمساعينا أدراج الرياح ويجعل

حياتنا فى خطر »

فازداد أبو سلمة دهشة لما سمعه ولم يفهمه وصاح فى صالح : « ولماذا ؟.. قل ياصالح فقد شغلت خاطرى بما لم أفهم .. »

فقال صالح : « ان العراف الذى ذكرته ياسيدى سينقل كلامك الى أبى مسلم ، وربما زاد من عنده ما يضاعف ذنوبنا ، وأنت تعلم عاقبة الشكوك عند ذلك الرجل »

فتطاول أبو سلمة بعنقه ، وحملق بعينيه ، وتحفز كأنه يهم بالوثوب وقال : « الى أبى مسلم ؟.. وما شأنه مع يهودى من أهل حران ؟ أظنك واهما ؟ »

فقال صالح : « لست واهما — يامولاى — فانى أعرف الرجل معرفة جيدة وهو من أتباع أبى مسلم ، بل هو من أكبر ثقاته ومن أمضى أدوات القتل عنده »

فقال أبو سلمة وقد تلعثم لسانه من شدة التأثر : « افصح لقد شغلت بالى .. »

فقال صالح : « قد عرفت هذا اليهودى خازنا عند أبى مسلم وعلمت من دهائه ومكره ما أكد لى أن أبا مسلم يعول عليه فى التجسس على الأمراء بالاحتيال .. لاريب عندى فى ذلك مطلقا »

فقال أبو سلمة : « وما العمل الآن ؟ »

فقال صالح : « لابد من القبض عليه ، أو قتله ، حتى لايستطيع ابلاغ خبرنا الى أبى مسلم .. »

فقال أبو سلمة : « بِعْم الرأى ما رأيت » ثم صفّق فدخل حاجبه ، فقال له : « هل تعلم المكان الذى سـار اليه العراف الحرانى ؟ »

فقال الحاجب : « كلا يامولاى .. ولكننى رأيته ركب نحو الكوفة وقد ساق بغلته بسرعة كبيرة »

فنظر أبو سلمة الى صالح كأنه يستطلع رأيه ، فقال صالح : « أظنه نازلا فى بعض الحانات هناك أو فى بعض منازل اليهود أو معابدهم »

فالتفت أبو سلمة الى الحاجب وقال : « ادع لى أبا ضرغام العيار »

فخرج الحاجب وقد استغرب صالح طلب أبى سلمة فقال له : « وهل تنوى ارسال العيار فى طلب اليهودى ؟ »

فقال الحاجب : « نعم .. فان هذا العيار وجماعة تحت أمره من نخبة العيارين ، قد ادخرتهم لمثل هذه المهمة لسرعة حركاتهم واطلاعهم على خفايا الناس » . ولم يتم كلامه حتى عاد الحاجب ووراءه رجل عارى الصـدر والظهـر مكشوف الرأس ، حافى القدمين وليس عليه من الثياب الا سراويل قصـيرة من الخيش المتين كالجلد ، وقد علق بكتفه مخـلاة مملوءة بالحصى .. وفى يده اليمنى مقلاع ، وفى يده اليسرى قطعة من الخبز وهو يمضغ كأنه دعى وهو على المائدة فنهض وبقية الطعام فى يده . فوقف

بين يدى أبى سلمة بغير احترام كأنه واقف مع بعض رفاقه على ضفة الفرات ، فابتسم له أبو سلمة ، وقال : « هل تعرف الكوفة يا أبا ضرغام ؟ »

فضحك أبو ضرغام ، وقال : « وكيف لا أعرفها ؟ »

فقال أبو سلمة : « أرأيت العراف الذى جاءنا فى هذا الصباح وخرج من عندنا الآن ؟ »

قال أبوضرغام : « هل تعنى اليهودى المكحل صاحب العكاز؟ لقد رأيته خارجا ووراءه غلامه ، وقد أعجبنى الجراب الذى كان يحمله فانه يصلح لحمل الحصى ..! »

قال أبوسلمة : « هل تستطيع أن تأتينى به ، ولك جرابه وملء جرابه مما تشتهى .. لقد ذهب الرجل الى الكوفة ، وهو اما فى بعض الحانات ، أو عند بعض اليهود .. »

فقال أبوضرغام : « انى أسوقه اليك كما تساق الغنم للذبح.. فاذبح ، أو ضحّ ، أو اعفُ ، فانك صاحب الشأن .. ولكن هب انى لم أستطع احضاره حيًّا ، فماذا أفعل ؟ »

فقال أبوسلمة : « أحب أن أراه وأخاطبه ، فالأفضل أن يكون حيًّا .. وهل يعسر عليك ذلك ؟ »

فهز العيّار رأسه وضحك ، ثم قال : «يعسر على ؟ ! كلا.. فانى أحضره اليك ولو كان فى الجحيم ، وهب انه طار فى الهواء فانى أرسل اليه حجرا بهذا المقلاع أصيب ما شئت من مقاتله فيسقط

فآتيك به صيدا حلالا » . قال ذلك وأشار الى المقلاع الذى بيده

فضحك أبو سلمة وقال : « فاذهب سريعا واحذر أن يفوتك واذكر أن جرابه لك وفيه ما شئت من مال أو تحف .. »

فمشى أبو ضرغام وهو يقول : « لايهمنى ملؤه من المال ، وانما يهمنى أن أملأه من الحصى الملساء المناسبة لمقلاعى .. »

— ٦٦ —

غدر وفتك

فلما خرج العيار ، عاد أبو سلمة الى مخاطبة صالح وقد انشرح صدره بعد ذلك الانقباض لأنه لم يخامره شك فى نجاح أبى ضرغام فقال : « لا يلبث هذا اليهودى أن يأتيك صاغرا فافعل به ما تشاء .. أخبرنى الآن عما فعلته فى الشام ؟ »

وكان صالح قد اطمأن خاطره أيضا وسرى عنه ، فقصّ على أبى سلمة حديث سفره من أوله الى آخره ، فأعجب بدهائه ومكره غاية الاعجاب ، وعادت اليه آماله باسترجاع ما كاد يذهب من أمر العلويين وقال : « هل أنت واثق من مقتل امامهم ابراهيم ؟ »

قال صالح : « لاشك انه قتل الآن ، ولكن البيعة انتقلت الى أخيه أبى العباس .. فيهمنا أن نقضى على بقية أهله فتذهب البيعة ولا يبقى من يبايعونه من العباسيين ، فتفضى الخلافة طبعا

الى العلويين ، وهذا محمد بن عبد الله الحسنى مقيم فى المدينة ، وقد بايعه سائر بنى هاشم من العباسيين والعلويين على أن يكون هو خليفة المسلمين بعد ذهاب دولة بنى أمية ، وهذه البيعة ثابتة ولا ريب فيها .. » [1]

فقطع أبو سلمة كلامه وقال : « لاشك عندى فى صحة هذه البيعة ، وأنا على يقين أن العباس هذا وأخاه المنصور وسائر بنى هاشم بايعوا محمدا المذكور ، ولكنهم ينكرون هذه البيعة الآن ، ولولا ذلك لما كان ثمة باعث على هذا الاختلاف .. »

فقال صالح : « مهما يكن من الأمر فان العباس واخوته وأعمامه وسائر أهله قادمون اليك بعد قليل ، وسينزلون عندك فيكونون فى قبضتك ، فارسلهم الى خوارزم .. » قال ذلك وضحك ..

فلم يفهم أبو سلمة مراده فقال : « ولماذا نرسلهم الى هناك ؟»

فقال صالح : « انما أعنى أن تقتلهم ، وهذا تعبير تعلمناه من كبير القتلة ورئيس أهل الغدر أبى مسلم ، فانه يكنى بخوارزم عن القتل فاذا قال خذوا فلانا الى خوارزم علموا أنه يريد قتله »

فضحك أبو سلمة لهذا التعبير ، ثم قال : « وهل تعنى أن أقتل آل العباس ؟ »

فقال صالح : « سواء عنيته أو لم أعنه ، فان الأمر لا يتم

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ـ الجـزء الرابع

للعلويين الا بقتل هؤلاء ؛ واذا لم تقتلوهم قتلوكم »

فأطرق أبو سلمة وهو ينظر فى بساط بين يديه عليه رسوم بعض ملوك الفرس ، وصالح صامت يرقب ما يبدو منه ويرجو أن يوافقه على قتلهم لاعتقاده أنها فرصة ثمينة اذا لم يغتنموها ذهب أمرهم ضياعا ، مع علمه أن أبا مسلم لو سنحت له فرصة مثل هذه لاغتنمها ، ولا يبالى بمن يقتل فى سبيل غرضه

ظل أبو سلمة مطرقا حينا ، ثم رفع بصره الى صالح وقال وهو يشير بسبابته اشارة النفى : « لا .. لا .. لا أُقدم على هذا العمل الفظيع فانى اذا أقدمت عليه ارتكبت منكرين كبيرين : الأول انى أقتل جماعة من أبناء عم النبى لا ذنب لهم ، والثانى انى لا أراعى الشرف وأغدر بجيرانى ، بل هم ضيوفى فكيف أقتلهم ؟.. كلا »

فهز صالح كتفيه وقلب شفته السفلى وأشار بعينيه وحاجبيه اشارة التبرؤ كأنه يقول : « افعل ما بدا لك ، ان هـذا الأمر لايعنينى » .. ثم تحفز للقيام ، وهو يقول : « لا أنكر عليك فظاعة هذا العمل ولكن الدول لا تقوم الا بمثل ذلك . وهـذه وصية الامام ، لو عاملناهم بمقتضاها لجاز لنا قتلهم ، فهو يقول : « من شككت فيه فاقتله » ، وكم قتلوا من الناس الأبرياء ولا ذنب لهم سوى انهم وجدوا فى طريق تلك المطامع عرضا وهم لايعلمون

وأنا على يقين ان أبا مسلم لو كان فى مكانك لم يضيع هذه

الفرصة لأن الفوز مضمون . فالناس قد بايعوا آل محمد وأكثرهم يعتقدون أن البيعة لأبناء على ، ولكن أبا مسلم يموّه عليهم ويدعوهم الى بيعة آل العباس ، فاذا لم يبق أحد منهم فالبيعة تنحصر بالطبع فى آل على ، وهــذا محمد بن عبد الله فى المدينة وبيعته فى أعناق أولئك العباسيين . وأبو مسلم نفسه متى علم بموت أبناء العباس لا يرى بدا من مبايعة أبنــاء على والا فان حروبه وفتوحه تذهب هباء ، ولا يقدر هو أن ينتفع بها لعلمه أن الناس لا يخضعون الا لخليفة قرشى .. »

وكان أبو سلمة قد نهض أيضا ، وهو يسمع كلام صالح ولا يستطيع دفعه ، فقال : « لا أخفى عليك ان حجتك فى هذا البحث قوية ولكنى لا أستطيع ارتكاب هذين المنكرين ، ولا أقدر أن أتصور سيفا مسلولا لقتل جماعة من أبناء عم النبى .. ويكفى ما دبرناه لقتل أحدهم »

فضحك صالح وقال : « كأنك فهمت انى أريد قتلهم بالسيف جهارا كما يقتل المجرمون ؟كلا ، وانما نقتلهم بلا ضوضاء ولا بكاء ولا يشعر أحد بفعلك .. نقتلهم بالسم فى اللبن أو العسل كما كان يفعل بنو أمية بأعدائهم . واذا أكبرت أن تقتــل كل القادمين عليك من بنى العباس فاقتل اخوة ابراهيم الامام الذين يخشى نقل البيعة اليهم وهم ثلاثة ، أو اقتل أبا العباس الذى انتقلت البيعة اليه على الأقل ، واذا شــقّ عليك ذلك بنفسك

فاعهد به الىّ فأنا أقضيه لك على أسهل السبل »

وكانا يتكلمان وهما واقفان .. وظن صالح هذه المرة انه تغلب على رأى أبى سلمة ، ولكنه ما لبث أن رآه ينكر ذلك ويستعظمه الى أن قال : « لا أرانى قادرا على ارتكاب هذه الجريمة سواء على يدك أو يد سواك ، فالقاتل فى جميع الأحوال هو أنا.. والذنب يكون ذنبى .. فاذا كان عندك حيلة غير هذه فاذكرها »

قال : « لا أرى فرصة سانحة مثل هذه ، فاذا لم تغتنمها ذهب سعيك فى نصرة العلويين عبثا ، لأن أهل الفتك والغدر لاينبغى أن يعاملوا بغير ذلك والا فهم الفائزون ، ولا أظنك تجهل أن عليا وأولاده وأحفاده انما فشلوا فيما يطلبونه من أمر الخلافة لأنهم لايستعينون فى تأييد حقوقهم بغير الحق والتقوى والعدل والأريحية ؛ وبنو أمية يطلبونها بالدهاء والفتك . وكم من فرصة مثل هذه سنحت لدعاة العلويين فعدوا اغتنامها منكرا ، فذهبت هباء وأضاعوا بذلك حقوقهم .. وبعكس ذلك الأمويون ، فانهم كانوا ينقبون عن مثل هـذه الفرص ويبذلون فى سبيلها المـال والرجال . فاذا أطعتنى نلت ما تبتغيه وأقمت الدولة العلوية ، ولم يضع أمر العلويين هذه المرة كما أضاعوه من قبـل بضعف رأيهم وجبنهم ، وأنت بعد ذلك مخير .. واذا خالفتنى أطعتك »

فقال أبو سلمة : « لى أسوة بالامام على وأهله ، وأنا لا أطمع فى أن أكون أحسن منهم حزما وأصوب رأيا .. » .

فلم ير صالح حيلة فى اقناعه ، فسكت وعمد الى تغيير الحديث . وتذكر أمر ابراهيم اليهودى الخازن .. فعاد اليه وقال : « وهل تظن أن العيار عثر على العرّاف ؟ »

فقال أبو سلمة : « اذا كان العرّاف المذكور على سطح الأرض فانه لن يستطيع الفرار من يدى العيارين .. » ثم صفق فدخل الحاجب فقال له : « هل علمت شيئا عن أبى ضرغام ؟ »

فقال الحاجب : « علمت انه حينما خرج من حضرتك أشار الى رجاله فتبعوه وكل منهم فى مثل ملبسه وسلاحه ، وتلا عليهم ما أمرته به.. وفرّقهم فى أطراف المدينة ، وذهب هو الى وسطها ، ولم يَعُد بعد .. »

فهز رأسه أن : « فهمت » وهى اشارة الاذن بالانصراف عندهم .. فخرج الحاجب ، وتذكر صالح جلنار فرأى انه أبطأ عليها بعد أن بعث خادمه ليخبرها بمجيئه ، فاستأذن فى الانصراف فدعاه أبو سلمة الى البقاء ريثما يعود العيارون فقال : «سأكون بفضل مولاى فى أحد منازله لأنى لم أر جلنار بعد ، ولا بد أن تكون فى انتظارى على مثل الجمر »

فقال أبو سلمة : « صدقت وقد كنت أحسب انك لقيتها قبل مجيئك الىّ ، فاذهب اليها وطمئنها وعزّها على يتمها وشقائها » .. قال ذلك وترقرقت الدموع فى عينيه ، فخرج صالح من بين يديه وقد لاحظ اجهاشه بالبكاء ، فقال فى نفسه : « ان من كان فيه

حنان النساء وضعف الغلمان لايصلح لاقامة الدول .. وانما تقام الدول بالدهاء والحزم والفتك »

- ٦٧ -

الفشل

وظل سائرا حتى وصل الى دار النســاء .. وهى على مقربة من قصر أبى سلمة ، فالتقى بسليمان وكان واقفا بالباب ينتظر مجيئه ، فسأله عن جلنار فقال : « هى فى خير .. ولكنها قلقــة لطول غيابك ، وكانت تتوقع سرعة مجيئك اليها »

فقال صالح : « انما تأخرت لأمر هام .. أين هى الآن ؟ »

قال سليمان : « هى فى هذه القاعة ومعها ريحانة » وأشار الى قاعة داخلية

فقال صالح : « ادع لى أحد الخصيان »

فذهب وعاد بخصي أبيض ، فوقف بين يديه متأدبا .. فقال له صالح : « أخبر ضيفتكم الخراسانية انى أريد مقابلتها » ولم يذكر اسمها لرغبته فى كتمان أمرها لأسباب تقدم بيانها . ولم يكن أحد يعلم بحقيقتها غير أبى سلمة وزوجته وبعض الجوارى .. فذهب الخصى ثم عاد ودعاه الى قاعة تؤدى الى الخــارج بباب خاص لمثل هذه المقابلة . فدخل صالح واستقبلته جلنار باسمة ،

وكانت لم تبتسم منذ أن انتابتها تلك المصائب ، فانشرح صدر صالح برؤيتها ، ولعله أظهر الانشراح لأنه يضمر أمورا هى أكبر شأنا عنده مما يظهره من رغبته فى قيام الدعوة العلوية وسقوط العباسيين والأمويين ، ولو خيّروه لاختار ذهابهم جميعا .. لأن الخوارج لايرون الحكم لأحد من هؤلاء ، وهو من كبار أمراء الخوارج كما علمت ، ولكن الأحوال ساقته الى الاهتمام بشأن هذه الفتاة والانتقام لها من أبى مسلم ، بل هو انتقام لنفسه لأن أبا مسلم تعمد قتله .. على انه لا يبالى أن يضحى بجلنار فى سبيل ذلك ..

فلما دخل صالح الى القاعة حيا تحية مشتاق ، فابتدرته ريحانة بالترحاب والسؤال عن حاله الى أن قالت : « لقد شغلت بالنا بتأخرك الى الآن .. وقد أخبرنا سليمان أنك أتيت منذ عدة ساعات .. » قالت ذلك وفى صوتها نغمة العتاب

فقال صالح : « كان ينبغى لى أن أسرع بالمثول بين يدى مولاتنا الدهقانة على عجل ، ولكننى أحببت أن أفاوض أبا سلمة فى بعض الشئون الهامة لتدبير ما يساعدنا على اتمام ما نبتغى »

فقالت جلنار : « قد بلغنى من سليمان ما بذلته من المشقة والجهد فى سبيل غرضنا ، وانك جعلت مروان الأموى يقبض على ابراهيم الامام ويحبسه ، الى غير ذلك .. فبورك فيك .. وكنت أحب أن أسمع تفصيل هذا الخبر منك »

فأشار برأسه اشارة الطاعة وقال : « ان سليمان لم يعرف من أعمالى الا بعض ظواهرها ، هل أخبرك بأننا قتلنا ذلك الامام ؟ »

قالت جلنار : « كلا .. وهل قتلتموه ؟ »

فقال صالح : « نعم » وقصّ عليها قصة سفره ، وما دبره من الحيل وانتحله من الأسباب حتى نجح فى مهمته ، فأحست بانفراج كربتها كأنها انتقمت لوالدها .. وشعرت بعظم دينها لصالح حتى غدت لا تعرف كيف تبدى شكرها له لاعتقادها انه يفعل ذلك فى سبيل مصلحتها .. وقد سرّه ما بدا من سرورها وساءه تذكر ما لا يزال يضمره من أمر ابراهيم الخازن واطلاعه على مقرهم هناك . فاذا لم يقبض العيار عليه تمكن من الرجوع الى خراسان ، وكانت المصيبة كبيرة عليها وعلى أبى سلمة . ولما تذكر خراسان خطر بباله ابن كثير ، وتذكر الرسالة التى بعث بها اليه مع ذلك السائس الأبكم .. والتفت الى ريحانة وقال لها : « ألم يعد ذلك السائس من مهمته ؟ »

فضحكت ريحانة وقالت : « عاد منذ بضعة أيام »

فاستغرب ضحكها ، ورأى جلنار تضحك معها ، كأنهما تكتمان خبرا مضحكا فقال لها : « ما بالك تضحكين ؟.. ألم يبلغ رسولنا الرسالة كما يجب ؟ »

قالت ريحانة : « لا أضحك على ذلك فانه بلغها كما ينبغى ، ولكننى تذكرت حاييم العراف الذى جاء معه .. »

فخفق قلبه عند سماع ذلك الاسم ، واضطربت جوارحه وقال : « أي عراف ، ومن هو حاييم هذا ؟ »

قالت ريحانة : « هو عراف يهودى من أهل حران ، التقى به سائسنا أثناء رجوعه من مهمته .. »

فعلم صالح انها تعنى ابراهيم الخازن ، فخشى أن يكون قد اطلع منها على شيء فقال : « وما الذى أضحكك من هذا العرّاف ؟ »

قالت ريحانة : « أضحكنى منه انه خفيف الروح كثير المجون فضلا عن مهارته فى استطلاع الخفايا بالتنجيم .. انى لا أنسى حركاته فى استخدام الاسطرلاب ، فقد أضحكنا كثيرا .. ولولا السائس لم يتيسر لنا الاجتماع به .. وقد كان لمولاتى الدهقانة تسلية كبرى فى أثناء انتظارها رجوعك . ومع خفة روحه فانه نادر المثال فى استطلاع الخفايا وقد رأينا منه المعجزات .. »

فازداد خوف صالح ، وقال لها : « ما الذى كشفه لكم من الخفايا ؟ »

قالت ريحانة : « كشف لنا عن أشياء كثيرة ، وأغرب ما فى مهارته انه كان يطلعنا على أسرارنا بالاشارة ، ولا ينطق لفظا »

فتحقق صالح أن ذلك العراف لم يكشف لهم سرا ، ولكنه ساقهم الى كشف أسرارهم بالاشارات المبهمة على عادة أولئك المشعوذين فى مثل هذه الحال .. فانهم يستخدمون اشارات تنطق

على عدة معان ، فاذا كان السـائل يعتقد صـدق العراف فسر اشارته وأوّلها حتى توافق ما فى نفسه .. فيبوح بسره وهو يحسب أن المنجم قد كشفه بمهارته .. فأيقن صـالح ان ذلك اليهودى اطلع على أخبارهم بالتنجيم على هذه الصورة ، فاستعاذ بالله وهز رأسه وظهر الارتباك فى عينيه ، فظنته ريحانة لم يصدقها فقالت : « يظهر انك لم تصدقنى ، فاسأل مولاتى كيف قص عليها حديث والدها ومقتله وفرارها معك الى هنا حتى ذهابك الى الشام .. »

فلم يتمالك صالح أن صفق تصفيق الخاسر ، ووثب من مجلسه وهو يقول : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم »

فبهتت جلنار وريحانة ، ولم تفهما سبب وثوبه وبغتته..فقالت جلنار : « ما بالك يا صالح ؟.. لماذا فعلت ذلك ؟.. »

فوقف بين يديها والغيظ يكاد يتقطر من شفتيه ، وقال : « لم يبق لنا مقام هنا فقـد افتضح أمرنا .. خدعكم ذلك اليهودى الخبيث واستطلع أسراركم .. لعنك الله يا ابراهيم ولعن الساعة التى رأيتك فيها .. »

فابتدرته ريحانة قائلة : « ليس هو ابراهيم ، وانما هو حاييم »

فقال صالح : « بل هو ابراهيم اليهودى خازن أبى مسلم الذى سقانى السم كما سـقى ابن الكرمانى وهو يرقص بجلد الدب .. هذا هو بعينه ؛ وقد رأيته فى هذا الصباح خارجا من عند

أبى سلمة بعد أن كشف له عن سره أيضا ، ولولاكما لم يستطع ذلك ، لأنكما ساعدتماه على استطلاع حقيقة خبرى .. فساعده ذلك على خداع أبى سلمة حتى توهم فيه القـدرة على معرفة الغيب ، فباح له بأسراره »

قال ذلك وهو يخطر فى الغرفة جيئة وذهابا ، وجلنار وريحانة تتشاوران كأنهما تندمان على الثقة بذلك العراف ، وقد تولتهما الدهشة وجمد الدم فى عروقهما ، وغلب الخوف على جلنار حتى ترقرقت الدموع فى عينيها ، وساءها أن تكون هى السبب فى كشف ذلك السر فتتحمل تبعة ما يترتب على كشفه من الأذى — وليس على الانسان أثقل وطأة من تلك التبعة ولو تحملها من نفسه على نفسه — فلما رآها صالح فى ذلك الاضطراب ، أراد أن يخفف عنها فقال : « ولكننى سأدبر تدبيرا حسنا وأقتله أفظع قتلة .. وكل آت قريب .. »

فقالت ريحانة : « وكيف تقتله ؟ »

قال صالح : « قد أطلعت أبا سلمة على حقيقة أمره ، فأنفـذ بعض العيارين للقبض عليه حيا أو ميتا .. »

— ٦٨ —

استيقظ قلبها

فلما قال صالح ذلك لاحظ أن جلنار تنظر الى ريحانة نظرة

استحثاث كأنها تدعوها الى التصريح بشيء تخجل هي من ذكره ، فاستغرب ذلك منها وقد كان يتوقع فرحها بما ترجوه من القبض على العراف أو قتله ، فنظر الى ريحانة وقال : « ما بالى أراكما تترددان ..؟ هل أخطـأت فى رأيى فى سرعة القبض على هــذا الخبيث ؟ »

فقالت ريحانة : « كلا .. فانك فعلت الواجب ولكن ... » ونظرت الى مولاتها فاذا هى مطرقة خجلا ، فرفعت عينيها الى صالح وقالت : « ولكن ألا يمكن تأجيل قتله يوما ؟ »

فاستغرب صالح هــذا الاقتراح وقال : « وما معنى هــذا التأجيل ؟ »

فالتفتت الى مولاتها وسكتت .. فازداد صالح استغرابا ووجه كلامه الى جلنــار وقال : « ما الذى تكتمانه عنى ؟.. لعلكما تسيئان الظن بى ؟ »

فقالت ريحانة : « حاشا لنا أن نسيء الظن بك بعد ما رأيناه من جهادك فى سبيل مصلحتنا ، ولكن مولاتى تود تأجيل مقتل العرّاف لأنه شغل بالها بكلمة قالها ووعد بتفصيلها فى غد .. »

فقال صالح : « وأية كلمة ؟.. هل يجوز أن أعرفها ؟ »

قالت ريحانة : « نعم .. بل يجب أن تعرفها وذلك انه لما جاءنا المرة الأخيرة وعرض ذكر أبى مسلم فى حديثه نظر الى مولاتى نظرة اهتمام . وقال لها : « سآتيك غدا بخبر يسر قلبك لمجيئه

على غير انتظار منك ، وأنا انما أتيت هذه البلاد من أجله ولا أحب أن يعرفه أحد » وأحببنا أن نستزيده بيانا فأتاه خادم أبى سلمة يستدعيه اليه عاجلا فمضى »

فلما سمع صالح قولها ورأى تعلق آمال جلنـار بما سيقوله اليهودى لها عن أبى مسلم ارتبك فى أمره ولم يفهم القصد منه ، ولكنه خشى أن يكون أبومسلم قد ندم على مجافاته جلنار، فأحب أن يسترضيها فبعث بابراهيم متنكرا لهذه الغاية .. ولعله أوصاه أن يفعل ذلك خفية ، وربما كان فى جملة مهمته أن يستطلع مساعيه ويتجسس أحوال العلويين ونحو ذلك .. مرت هذه الخواطر فى ذهنه وهو ساكت.. وجلنار تنظر اليه خلسة وهى تخشى أن يجيب بالنفى، وهى تود الانتظار لأنها مابرحت منذ سمعت وعد ابراهيم وهى تنتظر ساعة الموعد ، وقد تحرك قلبها وتحولت مجارى آمالها

أما صالح فرأى من الدهاء أن يجزم بكذب ابراهيم ويشكك فى حسن نيته مخافة أن يكون وراء أقواله ما يعرقل مساعيه أو يعرضه للخطر ، فقال : « انى لأستغرب من مولاتى الدهقانة مع ما أعلمه من عقلها وذكائها أن تعلق أهمية على كلمة قالها هـذا المنافق ، وهو لايريد بها غير التمويه ليستطلع ما بقى من أسرارنا أو يوقعنا فى الفخ .. ألا تعلمين دهاء هؤلاء القوم ؟ وكم غدروا بالناس على هذه الصورة ؟ »

فقالت ريحانة : « صدقت ، ولكننا اذا سمعنا قوله فليس من

الضرورى أن نعمل به ، وعلى كل حال فنحن لا نخطو خطوة الا برأيك وتدبيرك ، فاذا أمكن استبقاء الرجل يوما أو يومين كان فى استبقائه وسيلة لذهاب قلق مولاتى باطلاعها على ما وعدت نفسها به »

فقال صالح : « لابأس من استبقائه ، ولكن لاحيلة لنا فى ذلك وقد ذهب العيارون للبحث عنه والقبض عليه حيا أو ميتا . فاذا جاءوا به حيا بعثنا به الى الدهقانة ، وأما اذا قتلوه فلا سبيل الى احيائه .. على انى لا أراه الا منافقا يريد التمويه .. واذا أطعتمانى وجاءكما فانبذاه وابصقا فى وجهه . ومع ذلك فافعلا ما بدا لكما » . قال ذلك وفى صوته وملامح وجهه امارات العتاب . فأدركت ريحانة انه استاء من الحاحها ، وقد سبق الى ذهنها حسن الظن به ورأت أن مجاراته فى رأيه قد تخفف قلق سيدتها فقالت : « وأنا أرى مثل رأيك فان هذا الرجل لا يأتى على يده غير الأذى ، والأحسن أن نحذره ونسعى فى القبض عليه وقتله لنتخلص من شره »

فلما سمعت جلنار اتفاق ريحانة وصالح فى الرأى وافقتهما ، وقد اقتنع عقلها بصواب رأيهما .. ولكن قلبها ظل يتحرك فعمدت الى السيطرة عليه بالتعقل ، فقالت : « دعوا المقادير تفعل ما تشاء .. فاذا جاءنا حيا سألناه ونظرنا فيما يقوله ، واذا قتل فلا حيلة لنا فيه .. وعلى كل حال فأنا لا أظنه يستطيع الفرار اذا

أراده لأن هؤلاء العيارين صنف من الأبالسة لا يفلت منهم طائر ولا هارب »

وعاد صالح الى هواجسه ، وأراد أن يعرف كيف جاء ابراهيم الى الكوفة لعله يستطيع بذلك معرفة الغرض الذى يهدف اليه فقال لريحانة : « كأنى سمعتك تذكرين السائس الأبكم مع هذا اليهودى ..؟ »

قالت ريحانة : « نعم .. قلت لك انه جاء به معه فى عودته من مرو .. »

فقال صالح : « وأين هو ؟.. أحب أن أراه .. »

فخرجت ريحانة مسرعة ثم عادت والسائس معها وهو على حاله الذى وصفناه به قبلا، فلما دخل حيًا ووقف .. فسأله صالح عما تم له فى سفره ، فأشار بيديه وعينيه انه وصل الى مرو ودفع الكتاب الى سليمان بن كثير . فسأله كيف عرف منزله ، فأجاب بأن رجلا كان يعرفه من قبل دله عليه . فسأله عن شكل ذلك الرجل وأين عرفه ، فأشار انه قصير القامة وانه عرفه للمرة الأولى فى بيت مولاه الدهقان يوم نزل أبو مسلم عندهم . فترجح عند صالح انه ابراهيم بعينه ، وانه لما رأى ذلك السائس يسأل عن ابن كثير وتذكر انه شاهده فى منزل الدهقان ظنه قادما بمهمة من الدهقانة أو منه ، فخشى صالح أن يكون قد اطلع على فحوى الكتاب فيقع ابن كثير فى هوة الشك فيتعرض للقتل . فسأله

كيف دفعت الكتاب الى صاحبه ، فأشار انه دفعه اليه سرا وكان منفردا فى حجرته فقال : « وماذا فعلت بعد ذلك ؟ » فأشار الى خروجه من مرو فى صباح اليوم التالى ، فلاقاه فى أثناء الطريق عرّاف يهودى صحبه الى الكوفة ومعه خادمه ، وكان يسايره ويتركبه أحيانا على بغلته ، ويطعمه من طعامه ، ونحو ذلك ، حتى وصل الى الكوفة

فتحقق صالح عند ذلك انه ابراهيم ، وأنه قادم فى مهمة سرية من عند أبى مسلم .. نبّهه اليها مجىء ذلك السائس الجاهل بالكتاب الى ابن كثير ، وأيقن انه اذا نجا وأبلغ الى أبى مسلم خبرهم فانه سيقتلهم ويقتل أبى سلمة لامحالة. فأصبح همه البحث عما أفضت اليه مساعى العيارين فى القبض عليه ، وقد نفر من رؤية السائس وندم على انفاذه بتلك الرسالة ، فأشار اليه أن يخرج.. فلما خرج تقدم صالح الى جلنار وخاطبها بصوت منخفض كأنه يحاذر أن تسمعه جدران الغرفة وقال : « يظهر اننا أخطأنا فى الاعتماد على الخدم والأعوان فى شئوننا .. فينبغى لنا أن لا نثق بأحد ، واعلمى يامولاتى ان العيارين اذا لم يظفروا بذلك اليهودى فاننا نكون معرضين لخطر شديد »

فبغتت جلنار ، وبدت البغتة فى عينيها ، وقالت : « وكيف ذلك ؟ »

فقال صالح : « ذلك لأن ابراهيم هذا انما جاء فى مهمة سرية

للبحث عنا وعن مقاصدنا ، وقد نجح فى مهمته نجاحا تاما فعرف كل شيء عنا وعن هذا المسكين أبى سلمة ، وعرف اننا سعينا فى مقتل الامام ابراهيم .. فاذا نجا من العيارين ووصل الى أبى مسلم فانه لايدخر وسعا فى السعى فى قتلنا ، وهو اليوم فى ذروة سلطانه ولا عبرة فيما موّه به عليك من الوعد »

فلم تستطع واحدة منهما أن تعارض هذا الرأى ، لأنه صحيح لاريب فيه ، فارتبكتا وشعرت جلنار بقلق وخوف وقالت : « لم يكن لنا ملجأ فيما مضى سواك ، وأنت اليوم ملجأنا وعوننا فأشر علينا بما تراه »

فقال صالح : « أرى أولا ، وقبل كل شيء ، أن نستغنى عمن معنا من الخدم ، فاذا انتقلنا فى مكان كنا وحدنا فقط — أى نحن الثلاثة — فالآن أنا ذاهب للاستفهام عن العيارين وما فعلوه .. فاذا تحققت من فشلهم عدت اليكما وأخبرتكما بما ينبغى عمله ، وانما أتوسل اليكما أن تكتما ما دار بيننا ، وأرغب منك ياريحانة أن تجمعى ما خف حمله وغلا ثمنه من الأموال ، وتهيئى كل شيء حتى نكون على أهبة السفر فى أية لحظة أردنا .. هل فهمتِ ؟ »

ثم نهض وودعهما وخرج .. ودخلتا تتأهبان للرحيل وهما مضطربتان ، ولا سيما جلنار فقد أصبحت كلما تذكرت ذلك اليهودى ترتعد فرائصها وتتألم من انطلاء حيلته عليها حتى كشف أسرارها ، ثم تتذكر ذهاب العيارين فى أثره فيطمئن خاطرها

وريحانة مشتغلة عنها بتدبير الثياب والحلى وانتقاء ما خف حمله

- ٦٩ -

بنو العباس

أما صالح ، فانه خرج يلتمس قصر أبى سلمة ليسأله عما فعله أبو ضرغام ورفاقه ، وقد عزم على انه اذا رآهم قد أتوا به حيا أن يحرض أبا سلمة على قتله حالا ويخفى ذلك عن جلنار ، وكانت الشمس قد مالت الى الأصيل . وقبل وصوله الى القصر سمع ضوضاء وقرقعة وصليلا وراء بعض البيوت مما يلى طريق الشام ، فالتفت اليها فرأى قافلة من الجمال يقودها حمار عليه عبد اسود ، وحول القافلة بغال بسروج عليها رجال بملابس حسنة وكلهم ملتفون بالعباءات ويكاد يزيد عددهم على العشرين غير المشاة فى ركابهم من الخدم والعبيد ، وفى مؤخرة القافلة بغال عليها الهوادج لحمل النساء والأطفال . ويتقدم الجميع فارس بملابس أهل الكوفة يظهر من شكله انه خرج من الكوفة للقائهم ، فتفرس فى الرجل فعرف انه من حرس أبى سلمة

وقد فكر صالح قليلا ، فبدا له انهم بنو العباس القادمون من الحميمة بعد القبض على ابراهيم الامام ، فتقدم حتى وقف بحيث يراهم وهم يمرون ، والناس لا يهتمون بهم لأنهم لا يعرفونهم ،

وقد تعودوا أمثال هذه القافلة من الضيوف ، ينزلون فى دور لأبى سلمة خاصة بالضيوف .. فأخذ صالح يتفرس فى الراكبين على البغال فرأى المنصور بينهم ، فتحقق أنهم بنو العباس وتذكر ما دار بينه وبين أبى سلمة بشأنهم فى هذا الصباح . وقد وقع نظر المنصور على صالح ، ولكنه لم يعرفه ولا فطن له لاختلاف سحنته عما كانت عليه يوم أن قابله . وكان صالح يتوسم فى المنصور قوة ودهاء ، ويتوقع له الخلافة بعد أبى العباس اذا ثبتت الخلافة فى العباسيين . ولما بشره بالخلافة يوم مقابلته فى الحميمة لم يقل ذلك عن روية ونظر ، وانما قاله لمجرد استرضائه لعلمه ان كل واحد من أبناء الخلفاء واخوتهم يعتقد أنه أحق بالخلافة وقد يوفق اليها غير أهلها ، فقال له ذلك كى يسره ، فاذا صدق قوله وتولى المنصور الخلافة كانت له يد عنده فلعله ينفعه فى أمر من الأمور

على أن صالح كان فى أثنـاء تلك المقـابلة لا يزال يعتقـد فى قدرته على نقل الخلافة الى العلويين ، فلما رأى ما رآه من ضعف أبى سلمة وعجزه عن الفتك وتحريمه الغدر أصبح لا يرجو للعلويين فوزا ، وفترت همته فى نقل الخلافة ، وحصر همه فى مقتل أبى مسلم انتقاما منه ، وثاراته كثيرة عليه ، وفى جملتها : أن سـقوط الخوارج انما كان بسببه .. فاذا قتله فانـه ينتقم لشيبان أمير الخوارج وسائر رجاله

وظل واقفا حتى مرّت القافلة ، ولما اقتربت من دار الضيوف تقدم اليها أحد أهل القصر ليحولها الى قصر أعده لهم فى بعض أطراف المحلة ، فأدرك صالح أن أبا سلمة ينوى كتمان أمرهم عن النـاس ، وعلم انه لا يلبث أن ينزل لملاقاتهم أو زيارتهم للترحيب بهم ، فأسرع لمقابلته قبل خروجه ليسأله عن نتيجة سعى العيارين .. فسار ماشيا حتى دخل القصر وطلب مقابلة أبى سلمة فأدخلوه اليه ، فرآه جالسـا وقد زاد غضبه وظهر الارتبـاك على وجهه ، فلما دخل عليه صالح لم يتمالك عن القيام بغتة ، ومشى نحوه مشية مستنجد وقال : « كأننا سعينـا بقتل أحـد هؤلاء العباسيين أن تتحمل أثقال سائرهم .. هل رأيتهم قادمين؟»

فلما أدرك صالح استياءه ، استبشر لعله يستطيع اغراءه على قتلهم فقال : « ولو علمت يامولاى انك تقف فى نصرتك للشيعة العلوية عند هذا الحد فيذهب سعيك بذلك وجهـدى هباء ، وتعرّض حياتك وحياة سائر أهلك وأصحابك للخطر ما أقدمت على ما أقدمت عليه ، مع انك قادر فى هذه الساعة أن تنقل الخلافة الى العلويين كما أخبرتك فى هذا الصباح ، ولا يكلفك ذلك الا كلمة .. قل هذه الكلمة وأنا أقضى الأمر فانها فرصة لا ينبغى ضياعها ، ووالله لو ظفر أبو مسلم بمثلها ما أغفلها ، وزد على ذلك أن حياتك أصبحت فى خطر اذا استبقيتهم »

فقال أبو سلمة : « وأى خطر ؟ »

فقال صالح : « اذا لم يظفر عيّاروك بذلك العرّاف ، وتمكن من الفرار الى أبى مسلم ، وأطلعه على خبرك ، فهل تظنه يعفو عنك ؟ »

فقال أبو سلمة : « وهل تحسبه يقتلنى ؟.. لا .. لا .. انه لا يفعل ذلك لما يعلمه من مساعدتى له بالمال والرجال ، والشيعة كلهم يعلمون انه لولا أموالى ونفوذ كلمتى على الدهاقين وبيوت الفرس لم تقم لهم قائمة ، فهل يجرؤ أحد منهم على أن يمسسنى بسوء ؟ »

فابتسم صالح وهز رأسه قائلا : « أما أبو مسلم فيفعل ، وقد فعل ذلك غير مرة .. أتظنه يرقب ضميره أو يتقى المحاسبة ، وقد زاده استبدادا وظلما وصية الامام ابراهيم بأن يقتل كل من يشك فيه ؟ »

فاستخف أبو سلمة بنصيحة صالح وحوّل وجهه عنه ، وسار نحو مشمعة من الذهب قائمة فى وسـط القاعة على كرسى من الأبنوس المطعم ، وتشاغل بنزع الغبار عن قاعدتها بأصبعه وهو يقول : « لا أظن أن ذلك الغلام يبلغ طموحه الى هذا الحد .. » وهمّ بتغيير الحديث فقال : « هل علمت ما فعله أبو ضرغام ؟ »

قال : « كلا .. وماذا فعل ؟.. فقد جئت لأسألك عن ذلك »

قال : « عاد الىّ منذ ساعتين وأخبرنى أنه قلب الكوفة رأسا على عقب هو ورجاله ، ولم يغادروا خانا ولا منزلا ولا كنيسة

ولا حانوتا الا دخلوه وفتشوا فيه ، فلم يقفوا للرجل على أثر ولا رأوا أحدا يعرفه .. حتى حراس أبواب المدينة ، سألوهم عن رجل هذه صفته فقالوا انهم لم يشهدوا أحدا بهذه الصفة أو ما يقربها ، مع انه أكد لى انه مقيم فى الكوفة . فأمرت أبا ضرغام أن يبحث عنه فى ضواحى المدينة وأرباضها ولا يترك منزلا حتى منزلى الا ويفتش فيه ، ويسأل عن خبر ذلك العرّاف المنافق ، ولست أدرى ماذا تكون النتيجة .. »

— ٧٠ —

دير العذارى

فأيقن صالح عند ذلك بافلات ابراهيم وانه أسرع سرعة البرق ليبشر أبا مسلم بنجاح مهمته ، ولن يتيسر لأحد اللحاق به ، ولكنه تظاهر بأنه لايزال يرجو العثور عليه فقال : « لا يبعد أن يكون هذا الخبيث قد اختبأ فى بعض هذه الأرباض فأطلب الى الله أن يمكنك من الظفر به » .. قال ذلك وودعه وخرج ، يبحث عن مكان يذهب اليه مع جلنار وريحانة ، فرارا من فتك أبى مسلم ، ريثما تتبدل الأمور . فتذكر أنه أثناء ذهابه الى دمشق وعودته منها ، مرّ بدير على مقربة من الكوفة يقال له دير هند .. أقامته هند بنت النعمان قبل الاسلام (١) وقد عرج عليه واستراح

(١) معجم ياقوت ـ الجزء الاول

عند بابه وشرب من سبيل قائم بجانبه ، وعلم من حارسه انه عامر يقيم فيه الرهبان ينذرون العفة ابتغاء مرضاة الله . فخطر لصالح أن يذهب بجلنار وحاضنتها كى تقيما هناك ، وهو يتردد عليهما أو يقيم فى بعض الأماكن بجوار الدير متنكرا ، وذلك يسير عليه.. فعزم على أن يتخذ قرارا فى الغد بعد أن يذهب الى الدير ويسأل عن كيفية الدخول اليه والاقامة فيه

فبات تلك الليلة ، ولم يغمض له جفن ، لشدة ماهاج فى خاطره من الغضب على ابراهيم الخازن ، وكيف تمكن من كشف أمرهم وعرقلة مساعيهم ..

وفى صباح اليوم التالى ، بادر الى دير هند فوجـده آهلا بالرهبان فسألهم : هل يضيفون النساء ؟.. فأجابه أحدهم : « فى الدير مكان للضيافة ينزل فيه من شاء على الرحب والسعة »

فأحب أن يسأل عن الاقامة فى مكان خفى لايراهم فيه أحد الا من أرادوه ، فخشى أن يؤدى استفهامه الى شيوع السر. وتذكر الاعتراف الشائع عند النصارى لقسسهم وانه سر مقدس لا يبوحون به ولو هددوا بالقتل ، فرأى أن يجعل حديثـه مع رئيس الدير على سبيل الاعتراف ، فسأل عنه فأخذوه اليه فاذا هو شيخ جليل عليه ملامح الاحترام والوقار ، فسلم عليه وأكب على يده كأنه يقبلها ، فقبله الرئيس ودعاه الى الجلوس وأمر له بالطعام وبعض الفاكهة والشراب ، فقال صالح : « أشكرك

ياحضرة الأب المحترم على تفضلك فانى لا أحتاج الى طعام ولا شراب ، وأنا جئتك بسر أريد أن أبوح به اليك وأستشيرك فيه ؛ وقد علمت انكم معشر القسس من رجال الله ومستودع أسرار خلقه »

فانشرح صدر الرئيس لهذا المديح وقال : « مرحبا بك .. قل ما تريد ولا تخف .. »

فقال صالح : « معى فتاة من أهل البيوت أصابتها نكبة أدت الى فرارها من وجه الظلم .. فلم تر خيرا من التجائها الى بيت من بيوت العبادة ، وقد دلنا بعضهم على هذا الدير ، فهل يجوز ذلك ؟ »

فقال الرئيس : « كيف لا ؟.. وعندنا دار خاصة بالضيوف . أما اذا استشرتنى فأخبرك أن دار الضيوف عندنا لا تخلو من المارة ولا يمكننا أن نمنع أحدا من النزول بها ، فلا يكون سركم فى أمان تام ، ولكننى أدلكم على دير للعذارى الراهبات على مرحلة من هذا المكان ، وهو أجدر باقامة النساء فيه ، لأنه خاص ولا يقيم به الرجال .. فاذا شئت أوصيت رئيسته بك ، فتهيىء لها غرفة خاصة . وأما أنت فاذا اخترت أن تقيم عندنا فمرحبا بك »

ففرح صالح بهذا التوفيق من الجانبين ، وهو يعلم أن الأديرة تقوم بهبات المحسنين ، فلو دفعت جلنار الى رئيسة الدير بضع مئات من الدنانير فانها تملك قلبها وتكون آمنة عندها ، فارتاح

باله لهذا التدبير وعاد الى حمام أعين ، وأراد قبل انتقاله الى الدير أن يكمل بحثه عما فعله العيار .. فسار الى قصر أبى سلمة واستفسر منه عن ذلك ، فأخبره انهم لم يقفوا للرجل على أثر .. فتحقق صالح من أن أبا سلمة وبطانته أصبحوا فى خطر ، فرأى أن يبعد عنه بالحيلة فذهب الى جلنار وأخبرها بما دبره وقال لها : « فالآن ينبغى أن نخرج من هـــذه المحلة خلسة بحيث لا يشعر أهلها بنا ولا يعلم أحد بقصدنا .. »

فقالت جلنار : « وخالتى لا تعلم أيضا ؟ »

فقال صالح : « وخالتك قبل الجميع »

فقالت جلنار : « والخدم ؟ »

فقال صالح : « نعم .. وكل انسان سواك وسوى ريحانة ، والسبيل الى ذلك أن تأمر الخدم فيسرحوا الخيول ونظهر أننا ذاهبون للتنزه على ضفاف الفرات ، ونشغل الخدم والسياس بما يلهيهم عن مرافقتنا أو اللحاق بنا ، ونحتج بأننا نحب التنزه على انفراد .. ومتى بعدنا عن المحلة عرجنا نحو الدير فنقيم هناك حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا »

فأحست جلنار كأن حبلا غليظا التف حول عنقها ، وكاد يخنقها، لشدة ما هاج فى نفسها من أسباب اليأس ، لاضطرارها بعد أن أقامت فى منزل أبى سلمة واستأنست بخالتها وأحبها نساء القصر أن تفر الى دير تنقطع فيه عن الناس .. ولم تر ما يخفف من

همها الا البكاء .. وبكت معها ريحانة ، وحتى صالح مع ما علمته من جمود قلبه أوشك أن يبكى معها .. على انه أخذ يخفف عنها ويقول لجلنار : « لا تيأسى يامولاتى ، لابد من الأخذ بالثأر ولو بعد حين ، فان العاقل من صبر على مضض الحياة وتربص لاغتنام الفرص .. وكل آت قريب »

فتذكرت أبا مسلم حبيبها القديم ، وكيف كانت تحبه ، وكيف أصبحت لا تصبر عن قتله مع ما جدده وعد اليهودى من تحريك قلبها ، فهاجت عواطفها وبكت مرة ثانية لسبب غير سبب بكائها الأول ، وصالح لايعبأ بذلك أو هو لايفهمه ، وانما كان همه أن يستعجل فى اعداد ما يحملونه معهم الى الدير . فقال لها : « مرى الخدم أن يسرجوا لنا الأفراس » فأمرتهم . وفى أصيل ذلك اليوم خرج الثلاثة من المحلة يتظاهرون بالتنزه على ضفاف الفرات ، وليس معهم أحد من الخدم ولا يعرف أحد مقصدهم .. حتى اذا تواروا عن الناس تحولوا نحو الدير فذهبوا أولا الى دير هند ، وقد أعد صالح صرة فيها مائة دينار دفعها الى رئيسه هبة للدير ، وكان الليل قد أسدل ستاره فدعاهم الى المبيت هناك على أن يبكروا فى الذهاب الى دير العذارى فأطاعوه ، فقدموا لهم من أطعمة الدير وفاكهته فأكلوا وشربوا وباتوا تلك الليلة

وفى الصباح التالى كتب لهم الرئيس كتابا الى رئيسة دير العذارى أوصاها فيه بالفتاة ومن معها ، ودفع الكتاب الى صالح

فحمله وذهب بجلنار وريحانة ، وأرسل الرئيس معهم دليلا يوصلهم الى الدير المذكور فبلغوه نحو الظهر .. فاستقبلتهم رئيسته أحسن استقبال وأنزلتهم على الرحب والسعة ، ولا سيما بعد ما رأت من لطف جلنار وكرمها ، لأنها حالما وصلت الى هناك أمرت ريحانة فدفعت الى الرئيسة هبة من المال ، فخصصت لهما غرفة فسيحة ، نظيفة الأثاث .. وأوصت بعض الراهبات بأن تعنى بهما

– ٧١ –

بيعة أبى العباس السفاح

فاطمأن صالح على جلنار ، وتفرغ للنظر فى شئونه .. فأقام فى دير هند ، وكان يتردد على دير العذارى حينا بعد حين يتعهد جلنار بما تحتاج اليه ، وينزل الكوفة متنكرا يتجسس الأخبار الشائعة ليتعرف على مصير الأمور ويترقب فرصة يتمكن بها من بلوغ غايته .. فعلم أن بنى العباس نزلوا عند أبى سلمة وانه كتم أمرهم وأهل الكوفة لايعلمون بمجيئهم ، وكان الخراسانيون قد علموا بانتقالهم الى هناك فجاء جماعة منهم وعسكروا خارج الكوفة عند حمّام أعين ، وقوادهم يبحثون عنهم .. وكان أبو سلمة بعد أن أنكر على صالح الفتك بهم ، عاد فنظر فى أمرهم فرأى أن

السداد فى رأيه .. ولكنه أعظم الاقدام على قتلهم فحبسهم ، وكتم أمرهم وتوقع أن يرجع اليه صالح فيفاوضه فى شأنهم لعله يصمم على الفتك بهم أو ببعضهم

وأما صالح فلم يعد يظهر لأحد قط ، وكان يمر بحمام أعين وهو متنكر، فيسمع أهل أبى سلمة وخدم جلنار يذكرون فقدانها منذ خرجت مع خادمتها على ضفاف الفرات ، وقد رجحوا غرقها فيه .. وكان يتنكر أحيانا فى ملابس الفقهاء ، فيقضى يومه فى المسجد يسمع أحاديث القوم ، ويلبس أحيانا ملابس الجنود أو الشحاذين أوالعيارين أوغيرهم ، فعلم أن الناس عرفوا بمقتل الامام ابراهيم وضجوا فى السؤال عن اخوته وأهله ، ثم علم بعد أربعين يوما من مجيء العباسيين أن الخراسانيين المعسكرين بظاهر الكوفة عرفوا بوجودهم فى دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم ، وهى الدار التى أنزلهم فيها أبو سلمة ، وان ابراهيم أوصى بالخلافة لأخيه أبى العباس فاتهموا أبا سلمة بأنه حبسهم هناك لرغبته فى نقل الخلافة الى العلويين

فلما علم شيعة العباسيين بوجودهم فى تلك الدار ، انطلق اليهم كبير منهم اسمه أبو حميد الحيرى ، فلما أقبل رأى جماعة لم يعلم أيهم الخليفة فسأل : « من الخليفة منكم ؟ » فتقدم داود ابن على أحد أعمام أبى العباس ، وقال : «هذا امامكم وخليفتكم» وأشار الى أبى العباس ، فسلم أبو حميد عليه بالخلافة قائلا :

«السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله » وقبّل يديه وقدميه وقال له : «مرنا بأمرك» وعزاه فى ابراهيم الامام . ثم رجع وأخبر جميع القواد وكبار الشيعة فجاء معه منهم جماعة حتى دخلوا على أبى العباس وقالوا : « أيكم عبد الله بن محمد بن الحارثية ؟» فقالوا : «هذا» وأشاروا الى أبى العباس فسلموا عليه بالخلافة وعزوه فى ابراهيم . فلما علم أبو سلمة بانكشاف أمر القوم أراد أن يدخل فيبايع أبا العباس مثل سـائر الناس ، فمنعوه الا أن يدخل وحده لأنهم أساءوا الظن به فدخل وسلم عليه بالخلافة

وكان صالح يسمع فى أثنـاء ذلك انهم سيخرجون بالخليفة ليبايعوه فى المسجد يوم الجمعة فى ١٢ ربيع أول سنة ١٣٢ هـ (١) فتنكر بملابس الفقهاء ووقف فى أحد الشوارع الكبرى ، فرأى أهل الكوفة قد حملوا السلاح واصـطفوا فى الطريق لخروج أبى العباس ..

ثم رآه مارا على برذون أبلق ، وحوله أهل بيته على الخيول أو البراذين ، والناس يتزاحمون ويتطاولون لمشاهدة الخليفة ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ويتبركون برؤيته . وما زال الموكب سائرا وصالح فى جملة المارة حتى وصلوا دار الامارة ثم رأى رجلا صعد المنبر فأنصت الناس وهم يتهامسون قائلين : « هذا هو الخليفة اسمعوا خطابه » فنظر صالح الى ابن العباس فاذا

---

(١) ابن الاثير — ٩٦ — الجزء الخامس

هو طويل القامة أبيض اللون جعد الشعر أقنى الأنف حسن الوجه واللحية . ثم رأى رجلا أكبر منه سنا صعد المنبر فى أثره ولكنه قام دونه فعلم أنه داود بن على ، ثم أطل أبو العباس على الناس والتأثر باد على وجهه ، ولو رآه أحدهم عن قرب لتبين فيه ارتعاشا من الوهن والضعف .. على انه لم يكن ثمة بد من الخطبة ، فقال والناس يسمعون :

« الحمد لله الذى اصطفى الاسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظّمه واختاره لنا ، فأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه ، والناصرين له ، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته وأنشأنا من آبائنا ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته ، جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا حريصا علينا بالمؤمنين رؤوفا رحيما ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم ، فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا » . وقال تعالى :« قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » . وقال : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . وقال : « وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى » ..

وقال : « واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول

ولذى القربى واليتامى » . فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلا علينا والله ذو الفضل العظيم . وزعمت الشامية الضلال ان غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم . ولِمَ أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصّرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ودحض الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ورفع بنا الخسيسة وأتمّ بنا النقيصة ، وجمع الفرقة .. حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة فى دنياهم واخوانا على سُرُر متقابلين فى آخرتهم ، فتح الله ذلك منّة وبهجة لمحمد صلى الله عليه وسلم..

« فلما قبضه الله اليه وقام بالأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم ، حووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها موضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خِمَاصا منها ، ثم وثب بنو حرب ، وبنو مروان فانتبذوها وتداولوها ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملأ الله لهم حينا حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولىّ نصره والقيام بأمرنا ليمنّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض وختم بنا كما افتتح بنا ، وانى لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت الا بالله ..

« يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينــا وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا .. فأنا السفاح المبيح .. »

ولما بلغ أبو العباس الى هنا غلب عليه الضعف واشتدت عليه الوعكة ، فجلس على المنبر وقام عمه داود فأتم الخطبة عنه بنحو هذا المعنى ، وطعن طعنا قبيحا فى بنى أمية وسوء سيرتهم وامتدح أهل خراسان لأنهم نصروا الحق ، ثم نزل أبوالعباس وعمه عن المنبر وذهبا الى دار الامارة .. وظل أبوجعفر المنصور فى المسجد يأخذ البيعة على الناس : فلم يزل يأخذها حتى صلى بهم العصر ، ثم المغرب ، وهجم الليل فدخل وصالح منزو يتأمل فيما جرى بين يديه ويكاد يتميز غيظـا لفشــل مسعاه فى ابطــال البيعة العباسية ، ولكنه توسم الفرج من جهة أخرى .. فانه رأى فى أبى العباس ضعفا لا يأذن ببقــائه طويلا ، وتحقق انه اذا مات فالخليفة بعده صاحبه أبو جعفر لأنه أفضل اخوته وخاصة لأنه تولى أخذ البيعة على الناس

- ٧٢ -

ذكرى الحبيب

وخرج صالح من المسجد ، وهو منقبض الصدر ، وذهب الى جلنار ، وأخبرها بما شاهده وان الأمر استتب لبنى العباس ولا حيلة فى ذلك . فبكت .. فقال لها : « لاتبكى ، ونحن فى الحقيقة لايهمنا قيام هذه الدولة أو سقوطها وانما يهمنا أن نقتل ذلك الرجل ، وانما سعينا فى افســاد أمرها لافســاد أمره ، فاذا لم يتيسر لنا ذلك من هذا الطريق .. فلنا طرق أخرى »

فسكتت وتنهدت ، وفى نفسها سر تحرص على كتمانه وتخجل من اظهاره حتى لريحانة ، لما فيه من صغار النفس وضعف الطبع ، فانها كانت مع كل ما أصابها من أبى مسلم لاتزال تشعر بالرغبة فيه ، وكلما تذكرته أحست بشيء يحسنه فى عينيها .. وكأن طول المدة أذهب ما فى نفسها من الحقد عليه ، ولكنه لم يؤثر على ما فى قلبها من الميل اليه .. فكانت تشعر بذلك الميل ، وتغالط نفسها لتسير مع التيار الذى دفعها غضبها فيه لطلب الانتقام ، وصالح يحرضها على الثبات ويحبب اليها الأخذ بالثأر . فلما طال جهاده وتوالى الفشل عليها ، أخذت نقمتها تتقلص وتصغر .. وحبها ينجلى ويظهر، ولاسيما بعد ماقاله لها ابراهيم ، حتى جاءها صالح بخبر استتباب الأمر للعباسيين واخفاق مساعيه فى ابدال دعوتهم،

فأحسّت بانقشاع سحابة الحقد عن قلبها .. وتجلت لها صورة أبى مسلم كما كانت على عهد شغفها به ، وهوّن الحب عليها كل عسير حتى أراها القصور مبنية فى الهواء ، فخيل لها أن أبا مسلم لم يفعل ما فعله بوالدها أو بها الا جريا على سياسته فى نصرة العباسيين ، وليس كرها لها ، فلعله ــ وقد تم له ما أراده من تأييد دولتهم ــ يصغى لنداء قلبه أو يشفق على انكسار قلبها ــ والمحب كثير الشكوك وواسع الآمال ــ اذا أسعده الزمان بما يبتغيه ، ووفّق الى الاجتماع بحبيبه ، توالت عليه المخاوف لئلا يطرأ عليه ما يبعده عنه ، وتكاثرت شكوكه فى صدق محبته . واذا جافاه حبيبه وعاداه ، فيشعر كأن قلبه يتقد نقمة وحقدا ، ولكن ثمة أملا يظلل ذلك الحقد .. والحب أمره عجيب !

فكانت جلنـــار تتنازعها الآمال وهى تغالط نفسها ولا تبوح لأحد بسرها .. فلما جاءها صالح بذلك الخبر، تأرجحت عواطفها بين الأمل والفشل ، فلم تتمالك عن البكاء . ولم يكن وعد صالح ليخفف عنها كثيرا لتوالى عدم تحقيق وعوده ، ولكنها أظهرت الارتياح لوعده وقالت : « وأى طريق تتوقع أن نصل به الى مقصدنا ؟ »

فقال صالح : « تمهلى يامولاتى وعلىّ تدبير ذلك ، وقــد صبرت فاصبرى أيضا ، ان الله مع الصابرين » فسكتت وأطرقت وتنهدت فشعر أنها تضمر شيئا ، وخشى أن يكون الفشل قد

أضعف عزمها وهو يحتاج اليها فى تنفيذ رغبته بقتل أبى مسلم . فقال لها : « يظهر لى يامولاتى أن فشل سعينا هذه المرة قد أثر فى عزمك فلا تيأسى من الفوز ، وأنا عبدك ورهن اشارتك أبذل نفسى فى سبيل مصلحتك ، وأنت تعلمين اننى تركت الناس وانقطعت الى خدمتك وعاديت أشد الناس وأدهاهم من أجل رضاك ، وقد سعينا فى معاكسة ذلك الرجل ولم ننجح ، وقد بلغه سعينا وعرف مقصدنا بواسطة خازنه اليهودى على يدك ، فلو أردنا الرجوع عن عزمنا فهو لايلبث حتى يعثر علينا ويقتلنا ، ولو عرفت أنه يكتفى بقتلى ويستبقيك لهان علىَّ ذلك ، لأنى أرغب اللحاق بوالدك ــ رحمه الله ــ فان ماعنده خير مما عندنا وأبقى»

قال ذلك وتظاهر بالاجهاش للبكاء ، فأوهم جلنار انه متفان فى خدمتها وذكرها بمقتل والدها ، فحرك عواطفها عليه ، فندمت على ما مرَّ بذهنها من الميل الى مسالمة أبى مسلم أو استعطافه ، وبخاصة بعد ما سمعته من تلميح صالح من أن كشف أمرهم لأبى مسلم انما كان على يدها ، فأصبحوا مهددين بالقتل .. فكيف يخطر ببالها الرجوع عن عزمها ؟.. فلم تر بدا من مسايرة صالح فى قوله فأنكرت ما توهمه فيها من ضعف العزيمة وأكدت له أنها باقية على قصدها ، وأنها لايمكن أن تتنازل عن الانتقام لوالدها ، ولكن يشق عليها ما يقاسيه هو من العذاب فى سبيل ذلك .. فأجابها بأنه يفعله راضيا مسرورا لما له من الرغبة فى

الثأر أيضا ..

قضت جلنار فى ذلك الدير زمنا ، وصالح يتردد عليها بالأخبار .. وأهمها فى تلك السنة هزيمة مرواز بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان قد جاء بجيشه لمحاربة العباسيين فى العراق ، فهزموه فى بلد يقال له الزاب .. فهرب الى مصر واغتيل ببلدة بوصير . وجاءها بعد أيام بنبأ قتل بنى أمية وهو يستغربه ، فقالت : « لا غرابة فى قتلهم بالحرب »

فقال صالح : « وأى حرب ؟ انهم قتلوهم غدرا بعد أن أمنوهم وسمحوا بدخولهم الى مجالسهم والجلوس بين أيديهم .. »

فقالت جلنار : « قتلوهم بلا سبب ؟ ! .. »

فقال صالح : « نعم .. بلا سبب ظاهر ؛ ولكننى أظن أن أبا سلمة حرضهم على قتلهم .. فدس شاعرا قال بيتا حرّض به أبا العباس على قتلهم ، فقتلهم دفعة واحدة وعددهم نحو تسعين رجلا »

فقالت جلنار : « وما هذا الشعر الذى كان له قوة هذا التأثير ؟ »

فقال صالح : « ليس هو تأثير الشعر ، ولكن النفوس مستعدة والقلوب ملآنة ، والشعر حرّكها ، لأن الشعر ذكر السفاح بمن قتله الأمويون فى أيام دولتهم من الهاشميين . قال ذلك فى حضرة السفاح ، وبنو أمية على مائدته يأكلون ، فأمر بهم فضربوا بالعمد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها ، وهو يسمع

أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا .. » (١)

فلما سمعت جلنار ذلك ، قطعت كلام صالح ، ولم تتمالك عن الصياح قائلة : « أعوذ بالله .. يا للفظاعة ، يغدرون بضيوفهم ثم يأكلون الطعام فوق جثثهم وهم يسمعون أنينهم ؟ ان ذلك لم يُسمع بمثله .. لقد اقشعر بدنى ، ووقف شعر رأسى ، قبَّحهم الله من أناس قساة القلوب »

فقال صالح يعرض بما خطر ببال جلنار من هذا القبيل : «أمثل هؤلاء يُركن اليهم ، أو يرجى الصفح عنهم ..؟ » .. فسكتت ..

ولا تسل عن حال جلنار لما جاءها صالح بخبر مقتل أبى سلمة ، فقد عظم مصابه عندها مثل مصاب والدها لأنه كان يحبها ويكرمها ، فسألت صالحا عن سبب قتله فقال : « وهل تجهلين السبب ، ان القوم قد شكّوا فيه فقتلوه ، ونسوا ما كان يبذله من الأموال فى سبيل نصرتهم .. وهبى انه كان ضدهم ، ألم يكن الصفح أولى بهم لرجل بذل ماله ونفسه فى سبيل دعوتهم .. بعد أن ملكوا قياد الدولة وصارت الأموال اليهم ؟ .. »

فقالت جلنار: «عجبا.. انى لم أسمع بمثل هذا البطش والفتك ، ولا أظن بنى أمية كانوا أشد فتكا من هؤلاء .. وكيف قتلوه ؟ »

فقال صالح : « قد علمت انهم شكّوا فى اخلاصه لهم ، ولكنه حينما رأى الأمر قد انقضى ، بايع فى جملة الذين بايعوا .. فقدمه

(١) ابن الاثير ــ الجزء الخامس

أبو العباس وجعله وزيره كأنه فعل ذلك ليبتز بقية أمواله — ثم عاد الى ظنه ، فحل قتاله عنده .. ولم يجرؤ على القيام بذلك بنفسه ، فكتب الى أبى مسلم وهو فى خراسان يستشيره فى شأنه فأجابه : « انه أوجب الشك واستحق القتل فاقتلوه » فلم يجرؤ على قتله خوفا من الخراسانيين الذين معه ، فبعث الى أبى مسلم كى يرسل من يقتله .. فأرسل رجلا قتله سرا ، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتلوه ، وهذا هو اعتقاد أهل الكوفة الآن ولكننى عرفت الحقيقة .. »

فبكت جلنار وقالت : « قبحهم الله ، ما أقسى قلوبهم .. ان أبا سلمة رجل ليس فيهم مثله »

فقطع صالح كلامها وقال : « وأغرب من ذلك قتلهم سليمان ابن كثير .. فان أبا سلمة — كما نعلم — كان ينوى الغدر بالعباسيين ، وأما ابن كثير فأشهد عند الله انه لم يخطر ببباله الغدر »

فبغتت جلنار وقالت : « قتلوه أيضا ؟ وكيف ذلك ؟ »

فقال صالح : « لما قتلوا أبا سلمة كما أخبرتك ، اتفق أن ابن كثير قال كلمة نقلها بعضهم الى أبى مسلم فشك فيه فقتله جهارا بلا تحقيق ولا نظر .. فهل يؤمن جانب أناس مثل هؤلاء ، فكل من عرفوا عنه انحرافا ولو أظهر الطاعة فانهم يفتكون به سرا أو جهرا » وقد أراد صالح أن يعرض مرة أخرى بما دار بينه وبينها

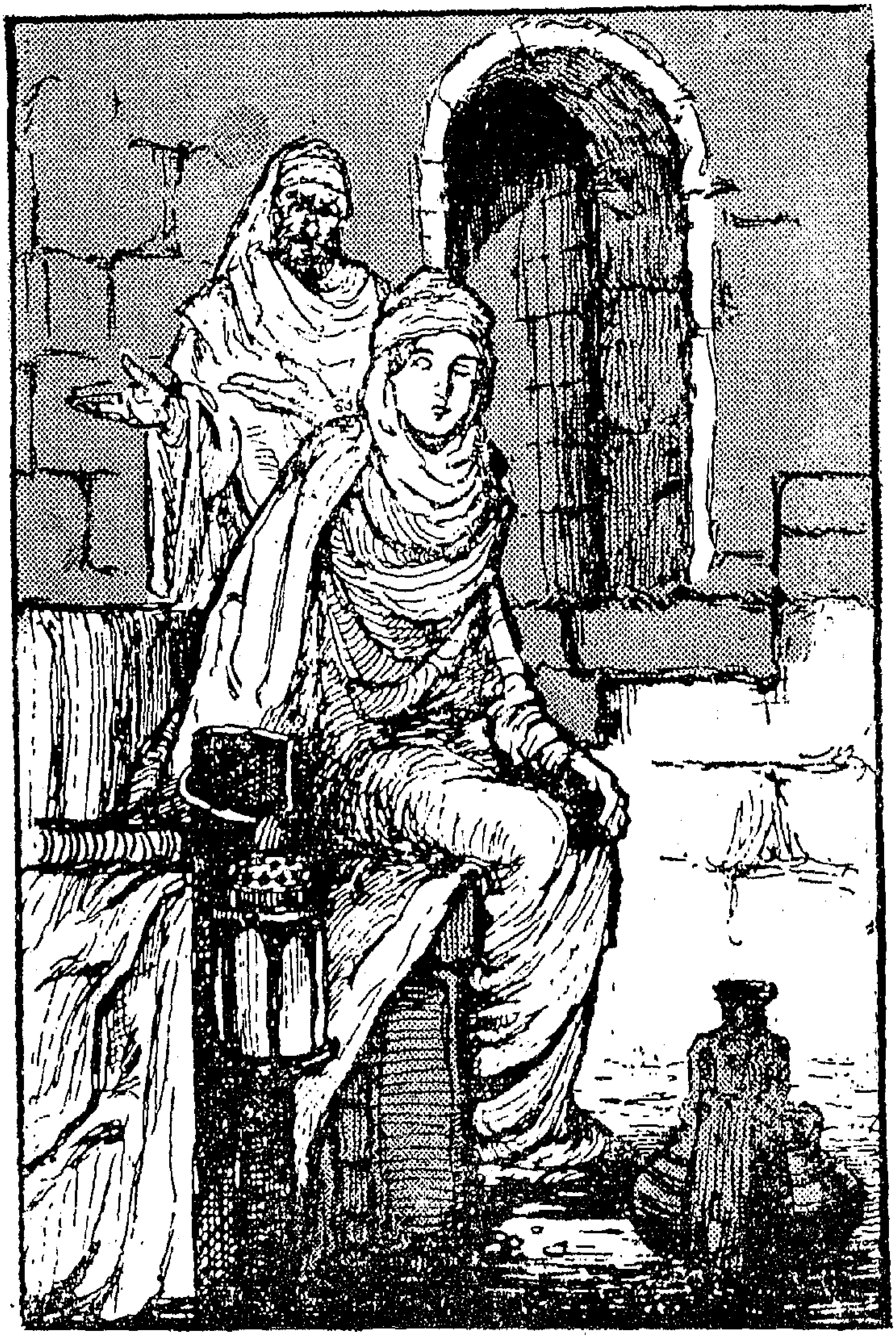

« فقال صالح بعد أن سمع ماقالته جلنار ، يعرض بما خطر ببالها من هذا القبيل : أمثــــل هؤلاء يركن اليهم أو يرجى الصفح عنهم ؟ .. »

فى المرة الماضية ليثبتها على عزمها ضد أبى مسلم ، فرآها أصبحت تخشى ذكره لأنه سبب تلك الفظائع كلها .. وقد ارتكبها فى أقل من عام

- ٧٣ -

خلافة المنصور

فلما أيقن صالح بثبات جلنار على عزمها ، أخذ فى تدبير الوسائل للفتك بأبى مسلم بنفس الطريقة التى قتلوا بها أبا سلمة ، وأخذ ينتهز الفرص لذلك . فلما مات أبو العباس السفاح سنة ١٣٦ هـ أفضت الخلافة الى أخيه المنصور ، فأيقن بوصوله الى الغرض المطلوب بعد ما قدمه من التمهيد فى هذا السبيل منذ لقيه فى الحميمة وبشره بالخلافة ، فلما علم بموت السفاح وخلافة المنصور ذهب الى جلنار وامارات السرور بادية على وجهه ، وكانت جلنار تنتظر مجيئه بفارغ الصبر ، فاذا رأته قادما خفق قلبها توقعا لما عساه أن ينقله اليها من الأخبار ، ثم تتفرس فى وجهه وتستطلع ما فى نفسه من سرور أو انقباض . فلما جاء فى ذلك اليوم ، رأت السرور باديا على وجهه .. فاستبشرت وفرحت ، وكذلك ريحانة فانها كانت تقرأ عواطف مولاتها ، فابتدرته قائلة : « **هل من بشرى طيبة ؟** »

فقال صالح : « قد دنا وقت النجاح الأكيد فمات أبو العباس وأفضت الخلافة الى أخيه المنصور صاحبى، وهذا يؤمن بكرامتى.. وقد بشّرته بالخلافة منذ بضعة أعوام ، وأرجو أن يكون تحقيق هدفنا على يده .. وخاصة لأن فى نفسه حقدا على أبى مسلم من قبل الخلافة »

فقالت جلنار : « وأى حقد فى نفسه وأبو مسلم هو الذى سلم اليه الخـلافة ، ولو أراد تحويلهـا الى سـواهم ما لقى معارضا ؟ »

فاستغرب صالح تصدى جلنار للدفاع عن أبى مسلم ، وقد فاته أن الحب اذا تأصـل فى قلب الكريم لم تنزعه الكوارث ، ولكنها قد تضغط عليه فتخفيه .. فاذا أزيحت عنه عاد الى رونقه بأحسن مما كان.. فلما سمع صالح قولها تجاهل وغالطها وقال : « لايخفى على مولاتى الدهقانة أن طلاب السيادة هذا شأنهم فانهم لا ينفكون عن المحاسدة والمفاخرة والمحاذرة . فأرى الآن أن أذهب الى المنصور ، فهو لاشك سوف يستقبلنى بترحاب ويقدمنى ويستبقينى عنده ، وأحب البقاء هناك للسعى فى أمرنا .. فهل تبقيان هنا ؟.. أم تذهبان معى الى الانبار لأن مقر الخلافة انتقل اليها »

فقالت جلنار : « كيف نبقى هنا وأنت بعيد عنا ؟.. اننى أرى أن ننتقل الى الانبار تقيم فى بعض بيوتها ، ولا خوف علينا فان

الناس قد نسوا أمرنا وكفانا هذا الحبس »

ففرحت ريحانة برأى سيدتها لأنها كانت قد سئمت الحبس فى ذلك الدير فقال صالح : « اسمحى لى بالذهاب أولا وحدى ، لأتجسس الأمور ثم أعود اليكما فأنقلكما اليه » فوافقته على ذلك لكنها ألحت عليه بسرعة الرجوع وقالت : « اذا أبطأت علينا سرنا اليك وبحثنا عنك فى بلاط الخليفة » قال : « حسنا » وخرج يتأهب لمقابلة المنصور، فصبغ لحيته وبدّل ثيابه ،كما كانحينقابله فى الحميمة منذ بضع سنوات ، وزاد على ذلك أنه تظاهر باصابته بالرمد ، وغطى عينيه بعصابة .. مبالغة فى التنكر ، لعلمه أن فى دار المنصور اناسا يعرفونه ، ولا سيما خالد بن برمك ، وكان قد رآه مرة فى بيت دهقان مرو ، والعينان أظهر ملامح الوجه وأدل على صاحبهما من سائر الأعضاء

أما المنصور فحالما أفضت الخلافة اليه ، تذكر منجم الحميمة وقال فى نفسه : « لو جاءنى لقربته مكافأة لبشارته » فما لبث ــ وهو ذات يوم فى داره بالأنبار ــ أن دخل عليه حاجبه الربيع وأنبأه بأن رجلا كفيف البصر يطلب المثول بين يديه على انفراد . فأشــار المنصور الى من فى حضرته من القواد فخرجوا وأذن بدخوله ، فدخل وهو مطرق يتوكأ على عكازه وقد شد عينيه بعصابة وبدت عليه مظاهر الضعف .. فلما أقبل على الخليفة سلم تسليم الخلافة ثم قال : « أشكر الله الذى أرانى صاحب القباء

الأصفر على كرسى الخلافة وان كنت أرمد »

فانتبه المنصور للرجل ، فوقف له وأخذ بيده حتى أجلسه على وسادة بين يديه وهو يقول : « مرحبا بالصديق القديم .. انى ما برحت منذ جلوسى هذا المجلس ، وأنا أفكر فيك وأرجو حضورك .. فاطلب ما تريد .. »

قال : « لا أريد شيئا يا أمير المؤمنين سوى تأييد دولتك وطول بقائك ، وقد أخبرتك يوم التقينا فى الحميمة انى سآتيك على غير انتظار ، وها أنا قد جئتك .. »

فقطع المنصور كلامه قائلا : « وما الذى أصاب بصرك ؟ »

قال صالح : « لست أدرى ماذا أصابه .. ولعلى ابتليت بهذه المصيبة لأنى لم أتمم المهمة التى جئتكم بها هناك كما ينبغى ، فلم أستطع تبليغ الرسالة قبل نفاذ الحيلة فى نجاة الامام — رحمه الله — ولكننى لم أتعمد ذلك كما تعلم . وعلى كل حال فما أنا فى حاجة الى البصر ، لولا رغبتى فى رؤية أمير المؤمنين »

فقال المنصور : « هل أدعو لك طبيبا يصف لك دواء ؟ »

فقال صالح : « كلا يامولاى .. فاننا معشر الزهاد لا نستعين على الأمراض بالعقاقير وانما ندفعها بالأدعية »

فقال المنصور : « فعسى أن يكون حضورك للاقامة عندنا هذه المرة .. »

فقال صالح : « دعيت اليك لأكون فى خدمتك الى أن تستغنى

عنى أو أموت ، فانى لا أرجو البقــاء طويلا ، ومثلى لا يليــق بمقابلة الخلفاء أو مخاطبتهم ، ولـكننى علمت بما يحيق بدولتك من الأخطار لـكثرة أعدائك وحسادك .. فأحببت أن يكون لى يد فى تأييدها ، على عجزى وقصر باعى .. »

فقال المنصور : « بل أنت صاحب الفضل الأكبر لأنك بشّرتنى بالخلافة وأنت لم تعرفنى ، فأحب أن تكون عندى الآن .. فاذا شئت جعلتك رئيس العرّافين »

فقــال صالح : « عفوك يامولاى ، فانى فضـــلا عن عـــدم استحقاقى لهذا المنصب لا أريد أن أسمى نفسى عرافا لأنى لا أحمل أدوات التنجيم ، وانما أقول ما يلقيه الىّ الهاتف أو يلهمنيه الله ، وقــد كنت أستعين بالنجوم ، فلمــا كف بصرى اكتفيت بالالهام ، فاذا شئت أن أكون فى خدمتك ضعنى فى حجرة من حجرات دارك ، أو فى مكان آخر لايرانى فيه أحد ، لأنى لا أرى أحدا »

فقال المنصور : « بل تقيم فى دارى لتكون قريبا منى » وصفق فجاء حاجبه الربيع فأمره أن يأخذ ذلك الزاهد الى حجرة منفردة فى داره ، ففعل وأمر بعض الخدم أن يقوموا بخدمته

أما المنصور فلما خلا بنفسه عاد الى دهائه وذكائه ، وطلاب السيــادة يومئذ يســيئون الظن حتى فى أولادهم .. وبخاصة المنصور ، لفرط حذره وحزمه .. فلما رأى ذلك الزاهد يطلب

الاقامة فى داره أساء به الظن .. وأحب أن يختبر صدق كرامته وولايته لئلا يكون دسيسة من أحد أعدائه ، فجعل يفكر فى رجل عاقل يختاره لامتحانه ، ولم يكن عنده أعقل من خالد بن برمك ، وكان مفضلا عنده ، والمنصور كثير الاعتماد على آرائه .. فبعث اليه فجاءه فأخبره بأمر الرجل الزاهد ، على أن يكون ذلك سرا لأنه اختاره عن سائر العرّافين ليستعين بآرائه عند الحاجة الى أن قال : « ولكننى أخشى أن يتعمد خداعى ، فلا يكون عنده علم ولا ولاية ، فادخل عليه وامتحنه » وأمر الربيع أن يأخذه الى حجرته

- ٧٤ -

كشف السر

فمشيا والمنصور معهما حتى أقبلا على الحجرة ، فدخل خالد وظل المنصور والربيع بالباب بحيث يسمعان ما يدور بداخلها . فلما سمع صالح وقع الأقدام داخل الحجرة تظاهر باعمال الفكرة ، أما خالد فلم يزد على أن قال : « السلام عليك » فعرفه صالح من صوته ، فأجابه على الفور : « وعليك السلام يا ابن برمك .. انك خير الوزراء لخير الخلفاء »

فدهش خالد لمعرفة اسمه وفرح لتسميته وزيرا ، فأصبح

يتمنى أن يعتقد المنصور فى كرامته فيعمل برأيه ويجعله وزيرا ، فالتفت خالد الى المنصور فرآه يشير اليه أن يغالطه ، فقال خالد : « وما ذنبى عندك حتى جعلت والدى مجوسيا ، فاذا كنت لم تعرفنى فقد كان ينبغى أن تصمت »

فضحك صالح وقال : « اذا كنت خالدا وقد وَلَدَكَ برمك المجوسى ، فما هو ذنبى عندك .. على أن خروجك من صلب رجل غير مسلم لايمنع فضلك ؛ فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن أبوه مسلما .. واذا كنت تقصد اختبارى ، فاسألنى فأكشف لك ما يجول فى خاطرك حتى لايبقى عندك شك فى اخلاصى .. »

فأعجب خالد بذلك الجواب وسرَّه وجود مثل هـذا الرجل فى بلاط الخليفة لعله يحتاج اليه فى شىء .. وكان ميَّالا الى الاعتقاد بمهارته لأنه تنبأ له بمنصب الوزارة ، ولكنه خشىَ اذا طلب اليه قراءة ما فى ضميره أن يصرح بأمور لا يرضاها المنصور ، والفرس لم تكن تخلو أفكارهم يومئذ من شىء على آل العباس ، فأحب تأجيل ذلك لخلوة يخلو بها معه . والتفت خالد الى المنصور فرآه يشير بالانصراف ، فرجعوا وقد رسخ فى أذهانهم صدق ذلك الزاهد فى أقواله وكرامته فى استطلاع الخفايا ، وأوصى المنصور الربيع أن لا يأذن لأحد بمقابلته ، وظل صالح وحده وهو يظهر من الضعف قوة ، وقد سرَّه أن يكون الممتحن خالد بن برمك لأنه مطلع على كثير من أحواله ويعرف صوته ، وخالد لم يخطر

بباله انه الضحاك الذى رآه فى منزل دهقان مرو منذ بضع سنين لاعتقاده انه قتل مع ابن الكرمانى

أما خالد فاشتغل خاطره بالزاهد ، وأراد مقابلته على انفراد لحاجة فى نفسه يريد أن يسأله عنها . فلما سمع الخليفة يوصى الربيع بمنع الناس عنه تقدم اليه أن يأذن له بمقابلته ، فقال للربيع : « امنع الناس كافة الا خالدا » لأنه كان يحبه ويثق به ويعتمد على آرائه

فسرّ خالد بهذا الاذن ، وبادر فى صباح الغد فدخل على صالح فحيّاه .. فرحب به صالح وأثنى عليه ، وبشّره ومنّاه استجلابا لرضاه عنه واستدناه لاعتقاده به . فجلس خالد بين يديه وقال : « لقد جئت اليك فى أمر يهمنى الاطلاع عليه ، فاذا كشفته فرّجت كربة كثيرين »

فقال صالح : « قل .. لعلى أستطيع ذلك باذن الله .. »

فقال خالد : « لى صديق وقع فى مشكلة لا دخل لها فى السياسة أو الحرب ، وانما هى تتعلق بشخصه وشخص آخر يحبه .. ولكنه لم يعد يعرف مكانه ، وهو يحب أن يعرفه »

فمد صالح يده حتى قبض على يد خالد وقال : « صرّح لى ، أو أعطنى أثرا من آثار ذلك الحبيب فأعرفه »

فقال خالد : « لاسبيل لى الى شيء من آثاره ، ولكننى أزيدك تصريحا .. أتعرف أبا مسلم الخراسانى ؟.. »

فاستبشر بذكر اسمه لعله يستفيد من حديث خالد عنه بما يعينه على الفتك به ، فقال : «ومن لايعرف صديقك أبا مسلم؟!»

فقطع خالد كلامه قائلا : « لا تقل صديقك ، لأن الخليفة ثائر عليه وقد اتهمه .. وأرجو أن لا تكون لى يد فى هذه التهمة ، ولذلك قلت انه سؤال لا علاقة له بالسياسة ولا بالحرب .. وانما مسألة أبى مسلم خاصة ، تتعلق بفتاة أحبته ولم يحبها فأساء اليها ، ثم ندم فأحب أن يقربها ، فلم يعثر لها على أثر .. ولا يزال يبحث عنها .. فهل تعرف مكانها ..؟ »

فلما سمع كلامه تذكر ما قالته جلنار عن موعد ابراهيم الخازن فعلم انه انما جاء للبحث عنها .. وتذكر ما لاحظه من عودة آمالها وتحرك قلبها ، وأيقن أن أبا مسلم ينوى قتله وأخذ جلنار منه ، والا لما كان ثمة باعث على فراره منه ، وقال فى نفسه : « لقد آن وقت العمل »

فلما فرغ خالد من كلامه ، كان صالح لايزال قابضا على يده فأطرق كأنه يفكر فى أمر هام ، ثم رفع رأسه وقال : « مسكينة جلنار .. كم أحبت هذا الخراسانى وخدمته ، وكم أساء اليها وعذبها .. فما الذى غيّر شعوره نحوها ؟ »

فدهش خالد لذكره اسم الفتاة وملخص حديثها ، واقشعر بدنه وقال : « ان الذى غيّر شعوره هو أنا .. لأنى كنت على علم بحبها له وتفانيها فى خدمته حتى قتلت زوجها لأجله ، ثم اتهم

أبو مسلم والدها بالخيانة وقتله ، فجاءت لتعاتبه على انفراد ، ولم أكن حاضرا ، وفى صباح اليوم التالى أخبرنى بما كان من غضبه عليها وسجنها ، ورأيت فى كلامه ضعفا وتوسمت فيه ندما على ما فرط منه على غير عادته ، فأخذت فى تأنيبه وحببت اليه تقريبها والزواج بها فرضى وبعث يستقدمها من السجن ، فقيل له انها ليست هناك فبحث عنها فى دار الامارة ، وبث الناس فى أطراف المدينة فلم يقفوا لها على خبر ، فتحققنا انها هربت الى مكان بعيد ..

«وكنت شديد الرغبة فى معرفة أخبارها لاعتقادى انها مظلومة، وأحببت أن تنصف» ، فحرضت أبا مسلم على البحث عنها فى الأطراف البعيدة .. فكلف رجلا يهوديا عنده أن يفتش عنها ، ووعده اذا جاء بها أن يعطيه مالا كثيرا ، فتنكر اليهودى وأخذ فى البحث حتى عثر عليها فى الكوفة بمنزل أبى سلمة وأوشك أن يظفر بها ، ولكنها غيّرت مكانها وكأنها طارت بين السماء والأرض .. فعاد الينا بهذا الخبر ، فغضب أبو مسلم عليه ، وأرجعه للتفتيش عنها ثانية ، وقد جاءنى منذ بضعة أيام وأخبرنى انه لم يعثر عليها ، فهل هى على قيد الحياة ؟.. وهل تعرف مكانها ؟..»

وكان خالد يتكلم وصالح يتابعه فى الحديث كأنه مطلع على القصة .. فاذا توقف خالد أعانه بكلمة مما يعلمه ، وخالد لا يستغرب ذلك لما سبق الى ذهنه من الاعتقاد فى كرامته

فعلم صالح من سياق الحديث انهم لم يكونوا يعلمون ببقائه

حيا ، ولا أخبرهم ابراهيم بذلك خوفا من ضياع فضله فى قتله ، مع انه ينبغى أن يكون قد علم هو ببقائه حيا فى اليوم الثانى لمقتل ابن الكرمانى ، اذ لم يجدوا جثته هناك .. وعلم أيضا أن ابراهيم قريب من ذلك البلد أو ربما كان فى بلاط الخليفة ، فأحب أن يتحقق من ذلك فقال : « انها على قيد الحياة ولا يصعب على معرفة مكانها ، انما يحتاج ذلك الى مهلة قليلة ، ويلوح لى انها ليست فى مكان بعيد من هنا ، ألم تسأل العرّافين عن ذلك ؟ »

فقال خالد : « سألت غير واحد ، فاختلفوا وتناقضت أقوالهم وليس فيهم من يعتمد عليه برغم رغبة أمير المؤمنين فى الاستكثار منهم للاستعانة بهم .. ولم أجد بينهم أحدا مثلك »

فقال صالح : « ان أكثر عرّافى هذا الزمان ينتحلون الصناعة لابتزاز الأموال ، ويخبطون فى أقوالهم خبط عشواء .. وانما هى موهبة يختص الله بها أناسا ، وقلّما يستطيعها أحد بالاجتهاد ، على أن بعضهم يتخذها وسيلة لغرض خاص ، كما يفعل العرّاف حاييم »

فضحك خالد لمعرفة صالح ذلك الاسم الجديد وقال : «مسكين حاييم .. أين هو من التنجيم ؟.. ومع ذلك فهو منخرط فى جملة عرّافى المنصور يقبض مرتبا مثل مرتباتهم »

فعلم صالح أن صاحبه فى بلاط الخليفة من جملة العرّافين ، فسكت وتزحزح من مكانه .. فأدرك خالد انه قد حان انصرافه ،

فنهض وودعه وأوصاه أن يكتم ما دار بينهما ، فوعده بذلك وانه سيخبره عن مكان جلنار بعد بضعة أيام ، فخرج خالد وقد تولته الدهشة .. اذ لم يكن يظن أن مثل هذا الرجل يوجد فى الأرض، فذهب توا الي داره وبعث الى ابراهيم اليهودى ، فلما جاء سأله : « هل وجدت الفتاة ؟ » فأجاب : « كلا .. »

فقال خالد : «قد وجدت عرافا يستطيع الوقوف على مكانها»

فقال ابراهيم اليهودى : « ومن هو ؟ أريد أن أراه .. »

فقال خالد : « لا سبيل لأحد اليه فان أمير المؤمنين لايأذن فى الدخول عليه لأحد ، وقد طلبت مقابلته من أجل هذا الأمر ، فلمست فيه مهارة غريبة .. ولم أكد أسأله عن الفتاة حتى تلا علىَّ خبرها وعرف مساعيك ، وانك انتحلت صناعة العرّافين لهذه الغاية وان اسمك كعرّاف حاييم ، ونحو ذلك مما أدهشنى ، وكنت أود أن تلقاه لولا ما ذكرته لك من تشديد الخليفة فى منع مقابلته »

وكان ابراهيم يسمع كلام خالد وهو يفكر فى من عساه أن يكون هذا العرّاف ، فلما سمع ما قصه عليه من معجزاته تبادر الى ذهنه انه عرّاف كاذب مثله ، ولم يستبعد أن يكون هو صاحبه الضحاك ، وقد تحقق من بقائه حيا فى الكوفة يوم أن التقيا بباب أبى سلمة وتناكرا ، فسأل خالدا عن شكل الرجل وملبسه فأخبره ان على عينيه عصابة ، وان لحيته محناة ، فسأله

حيا ، ولا أخبرهم ابراهيم بذلك خوفا من ضياع فضله فى قتله ، مع انه ينبغى أن يكون قد علم هو ببقائه حيا فى اليوم الثانى لمقتل ابن الكرمانى ، اذ لم يجدوا جثته هناك .. وعلم أيضا أن ابراهيم قريب من ذلك البلد أو ربما كان فى بلاط الخليفة ، فأحب أن يتحقق من ذلك فقال : « انها على قيد الحياة ولا يصعب على معرفة مكانها ، انما يحتاج ذلك الى مهلة قليلة ، ويلوح لى انها ليست فى مكان بعيد من هنا ، ألم تسأل العرّافين عن ذلك ؟ »

فقال خالد : « سألت غير واحد ، فاختلفوا وتناقضت أقوالهم وليس فيهم من يعتمد عليه برغم رغبة أمير المؤمنين فى الاستكثار منهم للاستعانة بهم .. ولم أجد بينهم أحدا مثلك »

فقال صالح : « ان أكثر عرّافى هذا الزمان ينتحلون الصناعة لابتزاز الأموال ، ويخبطون فى أقوالهم خبط عشواء .. وانما هى موهبة يختص الله بها أناسا ، وقلّما يستطيعها أحد بالاجتهاد ، على أن بعضهم يتخذها وسيلة لغرض خاص ، كما يفعل العرّاف حاييم »

فضحك خالد لمعرفة صالح ذلك الاسم الجديد وقال : «مسكين حاييم .. أين هو من التنجيم ؟.. ومع ذلك فهو منخرط فى جملة عرّافى المنصور يقبض مرتبا مثل مرتباتهم »

فعلم صالح أن صاحبه فى بلاط الخليفة من جملة العرّافين ، فسكت وتزحزح من مكانه .. فأدرك خالد انه قد حان انصرافه ،

فنهض وودعه وأوصاه أن يكتم ما دار بينهما ، فوعده بذلك وانه سيخبره عن مكان جلنار بعد بضعة أيام ، فخرج خالد وقد تولته الدهشة .. اذ لم يكن يظن أن مثل هذا الرجل يوجد فى الأرض، فذهب توا الي داره وبعث الى ابراهيم اليهودى ، فلما جاء سأله : « هل وجدت الفتاة ؟ » فأجاب : « كلا .. »

فقال خالد : «قد وجدت عرافا يستطيع الوقوف على مكانها»

فقال ابراهيم اليهودى : « ومن هو ؟ أريد أن أراه .. »

فقال خالد : « لا سبيل لأحد اليه فان أمير المؤمنين لايأذن فى الدخول عليه لأحد ، وقد طلبت مقابلته من أجل هذا الأمر ، فلمست فيه مهارة غريبة .. ولم أكد أسأله عن الفتاة حتى تلا علىّ خبرها وعرف مساعيك ، وانك انتحلت صناعة العرّافين لهذه الغاية وان اسمك كعرّاف حاييم ، ونحو ذلك مما أدهشنى ، وكنت أود أن تلقاه لولا ما ذكرته لك من تشديد الخليفة فى منع مقابلته »

وكان ابراهيم يسمع كلام خالد وهو يفكر فى من عساه أن يكون هذا العرّاف ، فلما سمع ما قصه عليه من معجزاته تبادر الى ذهنه انه عرّاف كاذب مثله ، ولم يستبعد أن يكون هو صاحبه الضحاك ، وقد تحقق من بقائه حيا فى الكوفة يوم أن التقيا بباب أبى سلمة وتناكرا ، فسأل خالدا عن شكل الرجل وملبسه فأخبره ان على عينيه عصابة ، وان لحيته محناة ، فسأله

عن قامته فقال : « لم أره واقفا .. ولكن يظهر انه طويل » فلم يشك ابراهيم انه صاحبه بعينه وبخاصة لتنكره بالرمد ، فانها حيلة تعلمها الضحاك منه يوم أن التقوا ومعهم القصاص فى معسكر شيبان بضواحى مرو .. فتجاهل ، ولم يبد أية ملاحظة .. ولكنه عزم على الحذر .. فصرفه خالد وعاد وهو متعلق الذهن بذلك الزاهد ، وأحب أن يلقاه ثانية فبكر اليه فى الغد ، وأخبره انه التقى بابراهيم وانه أطنب له فيما شاهده من كرامته ومهارته

فلم يفرح صالح بما سمعه من هذا الاطناب ، وساءه ما قاله عنه لابراهيم خشية أن يدعوه ذلك الى الشك فيه لعلمه انه لم يطلع أحدا على تلك الحقائق غيره .. على انه كتم استياءه ، وأثنى على خالد ، وعمد الى اجتذاب قلبه اليه كما اجتذب قلب المنصور قبله بتبشيره بما تتوق اليه نفسه ، وكان خالد يطمع فى الوزارة وهو أكفأ حاشية الخليفة لها ، فقال له صالح : « ان الله سيكافئك على سعيك فى التوفيق بين هذين المحبين بأكبر منصب تطمح اليه الأبصار بعد الخلافة » فأدرك خالد انه يبشره بالوزارة فانشرح صدره ، ولكنه تذكر ما يحول دون ذلك من انشغال المنصور بأبى مسلم .. اذ خشى أن ينتقم المنصور بسببه على سائر رفاقه القواد فيلحقه نصيب من تلك النقمة ، فأراد أن يستفتى الزاهد فى ذلك فقال له : « أحب أن أستفتيك فى مسألة أخرى تهمنى وقد شغلت بالى ، وبالطبع أرجو أن يكون ذلك سرا بينى

وبينك »

فقال صالح : « قل .. لا تخف »

فقص عليه خالد سبب غضب المنصور على أبى مسلم ، وانه ينوى القبض عليه خوفا منه .. وأطلعه على تفاصيل لم يكن يعرفها ، ثم سأله : « هل تظن أن المنصور يجعل نقمته عامة على سائر أنصاره ؟ »

فأطرق وهو يعمل فكرته ، ثم قال : « كلا .. لأن المنصور لم يتغير على أبى مسلم لأنه قام بدعوته بل لأنه طمع فى الملك لنفسه .. وهب انه نقم على سائر الخراسانيين ، فلن ينقم عليك »

فاطمأن باله وخرج مسرعا خشية أن يأتى المنصور فيراه هناك

— ٧٥ —

المنصور وأبو مسلم

وظل صالح ينتظر مجىء المنصور ، فما لبث أن جاءه وحده ودخل عليه خلسة حتى دنا منه وقبض على يده ليبغته ، فلم يبغت لعلمه انه لايجرؤ أحد على ذلك غيرالخليفة ، وكانقد سمع صوته من عهد قريب بجوار حجرته فقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله »

فقال : « وعليك السلام .. كيف ترى حالك ؟ »

قال : « أرانى فى نعيم والحمد لله لصدق بشارتى ، ويسرنى أن

أرى أمور المسلمين فى قبضة أمير المؤمنين أيده الله . ولكن هل تذكر عبارة قلتها لك يوم تلك البشارة ؟ .. »

قال المنصور : « اذكر كلامك كله ، ولم أنس منه حرفا .. أظنك تعنى الظلمة التى تحدق بخلافتى »

قال : « نعم .. هذا ما أعنيه وقد عرفته قبل وقوعه وأظنه وقع ، فلماذا تكتمه عنى ؟ »

قال المنصور : « لم أكتمه وقد جئت الآن بشأنه ، ولكن ما هى الظلمة التى تعنيها ؟ »

قال : « أتمتحننى يا أبا جعفر ؟ ان الظلمة التى أعنيها انما هى مطامع الناس فى خلافتك ، وبعضهم فى الحجاز ، والبعض الآخر فى خراسان ، وآخرون فى هذه المدينة ، بل فى قصرك يؤاكلونك ويشاربونك »

فجاء كلام صالح مطابقا لما فى نفس المنصور كل المطابقة لأنه كان يخشى العلويين فى الحجاز بعد أن بايعهم على أن تكون الخلافة بعد بنى أمية لمحمد بن عبد الله الحسنى ، وأراد المنصور نكث البيعة وحصر الخلافة فى بنى العباس ، وكان يخشى أبا مسلم اذا أقام بخراسان لأنه قادر على نقل الخلافة ، والناس يطيعونه . وكان يخاف بعض أهله على الخلافة وفيهم أعمامه وأبناء عمه وهم مقيمون معه يؤاكلونه . فلما سمع ذلك من صالح ، زاد يقينا بكرامته ومهارته فقال : «صدقت ، انى أخافهم الأقرب فالأقرب»

يعنى بعض أعمامه

قال صالح : « ليس أدعى للخوف من ذلك الخراسانى الفتاك»

قال المنصور : « تعنى أبا مسلم ؟ »

قال صالح : « اياه أعنى .. فان نجمه فى أسمى المطالع ، ولو استنهض الحجارة لنهضت معه ؛ ولو حارب الأبالسة لغلبهم .. هذا الذى يخشى بأسه ، ولكننى أرى نجمك أسمى من نجمه ، وسعدك أبقى من سعده .. »

قال المنصور : « ولا أخفى عنك ما فى نفسى من هذا الخراسانى فقد كنت أخشاه من أيام أخى السفاح ـ رحمه الله ـ فأشرت عليه أن يحبسه فلم يطعنى ، ولما أفضت الخلافة الىّ رأيت منه انحرافا ، وبلغنى عنه أمور أغضبتنى وخوّفتنى ، فاستخدمته فى محاربة عمى عبد الله الطامع فى الخلافة ، وضربت أحدهما بالآخر فمن قتل منهما نجانى الله منه ، ففرّ عمى وفاز أبومسلم بما فى عسكره من الغنائم .. فبعثت اليه أطلب الغنائم فغضب وقال : « انى خوّنته» وأخبرنى الرسول انه شتمنى . فلما رأيت هذه الجرأة خشيت اذا سار الى خراسان أن يعصانى .. فبعثت اليه وهو فى الجزيرة انى وليته الشام ومصر ، وطلبت اليه أن يأتينى فأجابنى جوابا يدل على خوفه منى وهذا نصه :

« لم يبق لأمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عدو الا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون

الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون عن قربك حريصون على الوفاء لك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وان أبيت الا أن تعطى نفسك ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى »

« فلما قرأت كتابه كتبت اليه وأظهرت له انه مخطىء ، فأصر على الامتناع ومضى الى حلوان .. وجاءنى منه كتاب جمع بين الاحتجاج والاعتذار هذا نصه :

« أما بعد فانى اتخذت رجلا اماما ودليلا على ما افترض الله على خلقه ، وكان فى محلة العلم نازلا وفى قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا فاستجهلنى بالقرآن فحرّفه عن موضعه طمعا فى قليل قد نعاه الله الى خلقه ، فكان كالذى ولانى بغرور ، وأمرنى أن أجرد السيف ، وأرفع الرحمة ، ولا أقبل المعذرة ولا أقيل العثرة .. ففعلت توطئة لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان يحملكم ، ثم أنقذنى الله بالتوبة فان يعفو عنى فقد فعل ما عرف به ونسب اليه ، وأن يعاقبنى فبما قدمت يداى وما الله بظلام للعبيد » فأشكل علىّ أمر هذا الكتاب فجمعت العرّافين منذ بضعة أيام ، وطلبت اليهم استطلاع ما فى نفس الرجل ، فأحسنوا الثناء عليه وقالوا : « انه تاب عما كان فيه ، واذا أحسنت الظن به وقربته نفعك » فأمسيت فى حيرة من الأمر ، هل

أصدق هؤلاء ، أو أظل على عزمى فى القبض عليه .. وكنت أنا فى حيرتى هذه أفكر فيك ، وأطلب الى الله أن يرسلك الىّ لعلك تطلعنى على الصواب »

وكان صالح يسمع كلام المنصور وهو جالس متكىء بكوعيه على فخذيه ، ووجهه نحو الأرض كأنه ينظر فيها .. فلما فرغ المنصور من كلامه رفع صالح رأسه وقال : « أى العرّافين يقول ان الرجل تاب وان بقاءه ينفعك ؟.. ان صوت قلبك يا أمير المؤمنين أصدق من تكهن العرّافين ، وخاصة اذا كان فيهم عرّاف يهودى اسمه حاييم »

فاستغرب المنصور معرفته ذلك الرجل وقال : « قد لاحظت من حاييم هذا رغبة شديدة فى تبرئة أبى مسلم واثبات حسن نيته أكثر من سائر العرّافين »

فقال : « لأنه صنيعته .. وهو عين له عليك »

فدهش المنصور لصدق ذلك الزاهد فى كل ما قاله ، كأن الغيب كتاب مفتوح بين يديه يقرأ منه ما شاء . وكان المنصور قد أساء الظن بذلك اليهودى لأنه لمس فيه الرياء والمكر ، فقال : « أظنك على صواب فيما قلت ، وسينال هذا اليهودى عاقبة سعيه .. فماذا ترى أنت فى نية أبى مسلم ؟ »

قال : « كما ترى انت يا أمير المؤمنين .. فانى أرى فى بقائه خطرا عليك وعلى دولتك ، ولا تعبأ بما جاء فى كتابه من عبارات

الاعتذار فانه يلقى التبعة على أخيك الامام ــ رحمه الله ــ أو هى حيلة يحتالها عليك ريثما يتمكن منك فيقاتلك وتندم حيث لاينفع الندم .. وكأننى فهمت من كلامك ، انك اذا قبضت على أبى مسلم تنوى استبقاءه محبوسا . وقد قلت لك ان بقاءه خطر عليك وعلى دولتك ، لأن الرجل لا تقتصر مطامعه على ولاية خراسان .. وانما هو طامع فى الخلافة »

فضحك المنصور، وقال وهو يظهر الاستخفاف : « لا أظنه يبلغ به جنونه الى هذا الحد لعلمه ان نسبه أقصر من أن يتطاول الى هذا المنصب ، وهو مولى أعجمى والخلافة لاتكون فى غير قريش »

قال : « أتوسل الى مولاى أمير المؤمنين اذا قلت قولا أن لايكذبنى لأنى لا أقول شيئا من عند نفسى . فأبو مسلم طامع فى الخلافة ولم يغفل عن حصرها فى قريش ، ولذلك فهو ينتحل لنفسه نسبا فيهم ، فيزعم انه من نسل سليط بن عبد الله بن العباس جدكم »

فلما سمع المنصور قوله وثب من مكانه وثوب الأسد ، وقد غلب عليه الغضب ، ولم يتمالك أن قال : «يا للجرأة والوقاحة .. صدقت .. يظهر انه طامع فى الخلافة ، وهو يستخف بى .. فقد كتب الى يخطب عمتى وجعل اسمه فى ذلك الكتاب قبل اسمى ، فبقاؤه حجر عثرة فى طريق دولتنا ولا بد من قتله .. ولكننى قد يئست من استقدامه بالحسنى ، وهو مقيم فى حلوان وينوى

الانتقال الى خراسان .. »

قال : « أهديك الى وسيلة لاستقدامه على أهون سبيل . ذلك أن تكتب اليه كتابا مع رجل ليّن اللسان، يخاطبه بلطف ، ويرغّبه فى الحضور اليك ، ويؤكد له حسن قصدك ، وانك تنوى ترقيته وجعله وزيرا لك .. وتوصى رسولك اذا لم يفلح منه بالحسنى ، أن يهدده بأنك ستحمل عليه حالا وهو بحلوان بعيدا عن رجاله الخراسانيين .. »

فقطع المنصور كلامه قائلا : « هذا الذى كنت عازما عليه »

فقال صالح : « بقى عندى رأى : وهو أن تستكتب حاييم اليهودى كتابا الى أبى مسلم يختمه بخاتمه يدعوه فيه الى المجىء ويطمئنه ويؤكد له حسن قصدك وانك تنوى ترقيته .. اكتب انت ما تراه من هذا القبيل على لسان هذا اليهودى الى أبى مسلم وأحضر الرجل واجعله يختم عليه بخاتمه . وسترى اسمه على خاتمه « ابراهيم » فلا تستغرب لأن هذا هو اسمه الحقيقى .. وتبعث هذا الكتاب مع رسول آخر ، يدفعه الى أبى مسلم على حدة كأنه مرسل من صاحبه هذا .. وبعد أن تدبر هذا التدبير انتقل الى بلد آخر وابق جندك الخراسانيين هنا وأوص رسولك أن يأتى بأبى مسلم الى ذلك البلد ، فاذا سار اليك اسرع فى قتله .. واحذر أن تبقى عليه .. هذه وصيتى .. وليست هى من عندى ، وانما أقول ما يلقى الىّ .. ! »

قال : « حسنا .. ولكن لابد من ذهابك معى فقد أصبحت لا أستغنى عنك »

قال : « سمعا وطاعة .. ولكنك تأذن لى أن أعرج فى أثناء ذهابى الى مكان مبارك لى فيه نذر ، ثم آتيك الى حيث شئت »

قال المنصور : « لابأس من ذهابك .. وما رأيك فى المكان الذى سأنتقل اليه ؟ »

قال صالح : « أرى أن تنتقل الى المدائن لتوسطها بين البلدين ولأنها المدينة التى هزم فيها الفرس فى أول الاسلام ، وسيهزم فيها هذا الفارسى أيضا باذن الله »

فأعجب المنصور بهذا التعليل وتفاءل به ، وقال : « سأفعل .. ومتى عدت ، وافنى الى هناك »

ثم ندم المنصور على الاذن بذهاب الزاهد لئلا يفلت منه ثم لايراه ، أو أنه يطلب الفرار خلسة فقال : « ولكنك كفيف البصر فينبغى أن أرسل معك من يتولى خدمتك فى الطريق » فلم يسع صالحا الا القبول .. وأخذ فى التأهب ، فخرج المنصور من عنده ، وأمر الحاجب أن يعد له فرسا ويرسل معه رجلين من الخدم يكونان فى ركابه حتى يعود

- ٧٦ -

من القلب الى القلب

وكان صالح ينوى الذهاب الى جلنـــار ، ليطمئنها وينصحها بالبقاء فى الدير ريثما تهدأ الأحوال ، لأنه تذكر قلقها ورغبتها فى مرافقته ، حتى انها هددته اذا أبطأ عليها أن تلحق به .. كأن قلبها قد دلها على أن أبى مسلم قد بدأ يحبها ، فأحست بما يجتذبها نحوه .. وهذا هو الذى يخشاه صالح على نفسه ، لأنها اذا أتت الى دار الخلافة وعلم بها خالد أو ابراهيم أخبروها برسالة أبى مسلم فتسعى فى انقاذه .. فاذا نجحت بقى أبومسلم حيا فيقتله ، فضلا عما فى ذلك من اخفاق مسعاه

وخرج المنصور ، فكتب الكتابين كما أشار صالح ، وبعث الى العراف حاييم « ابراهيم الخازن » فلما دخـــل عليه دعاه الى الجلوس فجلس وهو خائف من تلك الدعوة ــ ويكاد المريب أن يقول خذونى ــ وخاصة بعد علمه بوجود الزاهد « صالح » فى دار الخلافة ، فلما دعاه الخليفة خشى أن يكون صالح قد وشى به فيقتله المنصور على التهمة . فلما جلس بين يديه لاحظ المنصور خوفه فقال له : « لا تخف يا حاييم لأنى دعوتك لتساعدنى على اقناع أمير بنى العباس (أبى مسلم) اننا لا نريد به شرا لأننــا كاتبناه غير مرة ندعوه الينا وهو يأبى ، مع أنك تعلم حسن ظننا

به ، كما تعلم صدق توبته ورجوعه الى الصواب .. فاكتب اليه كتابا اذكر فيه صـــدق نيتنا فى ترقيتـــه ، وان ليس له عندنا ما يكرهه »

فعلم ابراهيم أن المنصور لم يكلفه بذلك الا لعلمه بصـــداقة أخبره بها صالح فقال : « وما الفائدة من كتابى الى جانب كتاب أمير المؤمنين ؟ »

فقال : « انه نافع باذن الله » وكان المنصور قد أمر الكاتب فأعد كتابا يرغّب أبا مسلم فيه بالحضور ، ويؤكد له حسن ظن الخليفة .. فدفعه الى ابراهيم ، وقال له : « هات خاتمك »

فارتبك ابراهيم فى أمره ، ولم ير مندوحة عن الطاعة ؛ فمدّ يده الى منطقته وأخرج كيسا صغيرا من جانب الدواة دفعه الى الكاتب ، فأخرج الكاتب من الكيس خاتما طلاه بالمداد وختم به الكتاب ، ودفعه الى المنصور فقرأه فاذا هو : « ابراهيم » فلم يبد ملاحظة ، ولكنه ضحك وقال : « يظهر انك ذو اسمين : اسم داخلى ، واسم خارجى.. لابأس عليك..» وتلطف المنصور معه ، لعله يحتاج اليه فى كتاب آخر ، ولكنه أبقى الخاتم عنده وأقام الارصاد على ابراهيم لئلا يخرج من الانبار . وذهب المنصور فى اليوم التالى الى المدائن مع جماعة من خاصته ، وترك سائر الجند فى الانبـــار ، ولم يظهر غرضـــه لأحد . واصطحب بعض العرّافين ، ولبث ينتظر مجىء الجواب من أبى مسلم ويود مجىء

الزاهد قبلا ليستعين برأيه اذا دعت الحاجة الى ذلك

أما الزاهد «صالح» فانه ركب الى دير العذارى .. فلما وصله أبقى الخادمين مع الفرس خارجا ، ودخل وقد رفع العصابة عن عينيه وتشدد وسار حتى لقى جلنار فى غرفتها ، فوجدها فى حالة يرثى لها من البكاء وريحانة الى جانبها تخفف عنها ، ولما وقع نظرها عليه صاحت فيه : « آه يا صالح .. لقد طال سجنى فى هذا الدير ونفد صبرى وقلبى يحدثنى بخير عند خروجى منه ، وتراكمت علىّ الأحلام على غير المعتاد .. ولا أظن أبا مسلم باقيا كما كان ، فقد رأيته فى منامى جاثيا بين يدى يلتمس العفو عما اقترفه نحوى وهو يبكى ويتوسل .. تأمل يا صالح .. رأيت أبا مسلم الخراسانى بطل المسلمين يبكى بين يدى فهممت أن أقبّله فاستيقظت ، وذهب خياله من أمام عينى .. ولا أزال أبكى الى الآن » قالت ذلك وهى تكاد تشرق بدموعها

فاستغرب صالح مطابقة حلمها للواقع ، وكاد يبكى لبكائها لولا فظاظة قلبه .. لأنه لم يسمع منها مثل هذا التصريح قبل تلك الساعة .. كأن عواطفها طفحت فلم تعد تملك نفسها ، فاستسلمت لرغبة قلبها وباحت بسرها .. فلما رآها صالح على تلك الحال ، لم ير خيرا من تسكين ما بها بالكلام اللين ، وتكذيب الأحلام وطمأنتها لتبقى فى الدير بضعة أيام أخر .. ريثما يتم ما بدأ به من مقتل أبى مسلم فقال لها : « مالى أراك على غير ما أعهده

فيك من التعقل والرزانة .. أمن أجل حلم لا معنى له تبكين وتنتحبين وتصدقين المستحيل ؟.. ومتى كانت أضغاث الأحلام مما يعوّل عليها فى تصاريف الزمان ؟.. دعى الأوهام وارجعى الى رشدك .. اذا كنت تتوقعين من أبى مسلم حبا فانك تطلبين من النار ماء لأنه رجل لا قلب له يحب به أحدا ، حتى ولا امرأته .. فكيف تأملين أن يندم على مجافاتك ، بل كيف تتوقعين حبه ؟ »

فلما سمعت كلامه لم تتمالك أن صاحت فيه : « ألم تكن أنت أول من نقل الىّ خبر حبه ؟.. وأسررت الىّ ما فى نفسه من الشغف بى ، وانه انما يمنعه من التصريح به خوفه من أن لايكون عندى مثل ما عنده . فكيف تقول الآن انه لا قلب له يحب به وتستغرب بكائى شوقا اليه ؛ وتستبعد أن أخطو بباله ؟ لقد رأيته الليلة رأى العين ، كأنى فى يقظة ، أو كأن روحه ناجت روحى .. لاشك انه يحبنى .. هل يمكن أن يكون قلبى مخدوعا الى هـذا الحد ؟ كيف يمكن أن يبلغ منى حبه هذا المبلغ حتى أراه فى المنام كاليقظة ، وأتلقى عذابه كالراحة ، وأنسى سيئاته وان كثرت وأموت أو أحيا بكلمة منه ؛ ويكون هو بلا قلب ولا عقل ؟ فان لم يلتفت الىّ حبا فانه يرقّ لى شفقة .. » قالت ذلك وقد بحّ صوتها ، وخنقتها العبرات ، وتكسرت أهدابها ، واحمرّت عيناها من البكاء ، وريحانة تضمها وتقبلها وتخفف عنها ، ودموعها تتساقط بلا صوت ، كأنها تبكى همسا ..

فتعجب صالح لتفاهم القلوب ، ومطابقة تلك الرؤيا للحقيقة .. وحدثته نفسه أن يبوح لها بحب أبى مسلم وندمه ، ثم توقف لعلمه انها اذا علمت بذلك فسدت خطته ، فتماسك وقال وهو يظهر العتاب : « لابأس يامولاتى انى أحتمل هــذه الاهانات اكراما لمحبة والدك ــ رحمه الله ــ ولا أعتب عليك لأنك فتاة لم تعرفى أمور الدنيا .. أهذه عاقبة سعيى فى خدمتك طول هذه المدة ؟ »

فخجلت جلنار لهذا التوبيخ ، وتقدمت ريحانة وهى تقول : « لاعتب على مولاتى مهما قالت ، وهى فيما تراه من التأثر .. لست أدرى ما الذى أصابها منذ ألقى اليها ذلك اليهودى هذه العبارة .. ليته مات قبل ذلك الحين »

فقال صالح : « وهل اذا أذنب اليهودى أعاقب أنا ؟.. لقد تحملت المشاق فى هذه البرارى لأطمئن عليكما وأبشركما بقرب النجاح ، فبدلا من أن تلقيانى بالترحاب وتسـألانى عما جرى تسمعاننى هذا التوبيخ ؟.. لابأس ياسيدتى .. هل عندكما طعام؟.. فانى لم أتناول طعاما منذ أمس .. »

فخجلت جلنار وأسرعت ريحانة وأتته بما عندها من الطعام .. فأكل وهم سكوت ، وقد هدأ روع جلنار فندمت على ما أظهرته من الحدة ؛ ولكنها استنكفت الاعتذار وشعرت بتغيير قلبهـا ، وأحست لسبب لا تعلمـه بما ينفرها من صالح ، وأصبحت اذا

نظرت فى عينيه اعتراها نفور ، فلم تعد تستطيع الاقتراب منه .. فنهضت الى غرفة أخرى ، واستلقت على الفراش وهى تتظاهر بالتعب والنعاس ، وظلت ريحانة بين يدى صالح تعتذر عما فرط من سيدتها وسألته عما جرى ، فأظهر انه متأثر مما سمعه وقال : « سأخبرك عن ذلك فى المرة القادمة فانى أسعى جهدى فى مصلحتها ، ولا أبالى بغضبها أو رضاها .. فاسمحى لى أن أنصرف الآن ، ومتى أفاقت مولاتك اهديها سلامى » قال ذلك وخرج فأصلح عصابة عينيه وعاد الى ما كان عليه ، فوجد الخادمين فى انتظاره بالجواد .. فركب وعاد ..

- ٧٧ -

مقتل أبى مسلم

أما المنصور فنزل فى قصره بالمدائن ، ومكث ينتظر مجىء أبى مسلم أو جوابه ، وبعد بضعة أيام وصل صالح (الزاهد) وقد سمع ما سمعه من جلنار، وصمم على تعجيل قتل أبى مسلم جهد الطاقة لئلا يعترضه معترض .. وهو يعلم انه اذا لم يقتله قتل هو ، اذ ليس من يعرف حقيقة حاله الا هو وخازنه ابراهيم ، واستبطأ المنصور أبا مسلم فسأل صالحا عن سبب الابطاء فقال : « لابد من حضوره .. واذا لم تنجح معه هذه الحيلة ، فعندى حيلة

أخرى لاشك فى نجاحها » وهو يهدف الى تزوير كتاب عن لسان جلنار جوابا على كتابه اليها .. فهذا لاشك يحمله على الحضور

على انه لم يجد حاجة الى ذلك .. فبعد بضعة أيام أخر ، جاء البشير أن أبا مسلم قادم ، فبعث المنصور من يستقبله ويرحب به ويبلغه سلامه وشوقه .. فاطمأن أبومسلم ، وكان لايزال حزينا كئيبا لارتيابه فى هذه الدعوة . فسار فى موكبه حتى أقبل على قصر المنصــور فأذن بدخوله فدخــل . وكان صالح عنده على وســادة فى أحد جوانب القاعة ، فتقــدم أبو مسلم وقبّل يد المنصور ، فأظهر ارتياحه وأمره أن ينصرف ويفرج عن نفسه ثلاثة أيام ويدخل الحمّام .. فانصرف ، وشقّ هذا التأجيل على صالح مخافة أن يحدث ما يمنعه من قتله ، فقال للمنصور: « أرى مولاى يؤجّل فيما يدعو الى المبادرة ؟ »

فقال : « تركناه ليطمئن قلبه ، ثم نرى .. »

فلما سمع قوله خشى أن يكون فى نيته غير القتل ، فقال : « ثم ترى ماذا ؟.. اقتل .. ثم اقتل .. ثم اقتل .. واذا لم تقتله قتلك »

فضحك المنصور ، وقال : « لا تخف .. لا يلتقى فحلان فى اجمة الا قتل أحدهما صاحبه » فاطمأن صالح

أما أبومسلم ، فمكث ثلاثة أيام لم ير فى أثنائها خازنه ابراهيم، ولا خالد بن برمك .. فاستوحش من غيابهما وانقطاعهما ، وعاد

الى هواجسه .. وفى اليوم الثالث جاءه رســـول من المنصور ، فركب ومعه بعض رجاله . وكان المنصور قد أعد خمسة من حراسه خبأهم خلف الرواق بالسلاح وقال لهم : « اذا صفقت فاهجموا عليه جميعا واقتلوه» فلما وصل أبومسلم عند الباب ترجل ودخل منفردا حتى مرّ بالرواق الى القاعة ، وفى صدرها سرير قد جلس عليه المنصور وحده . وليس فى القاعة الا ذلك الزاهد ، وقد جلس جاثيا وأطرق.. فلما دخل أبومسلم حيّا ، ووقف وقد تقلد سيفه ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة .. فلم يدعه المنصور للجلوس فزاد استيحاشا ، فاحتال المنصور قبل كل شيء فى أخذ سلاحه منه ، فقال له : « أخبرنى عن نصلين أصبتهما مع عمى عبد الله »

فمد أبو مسلم يده الى سيفه وقال : « هذا أحدهما »

قال : « أرنى اياه »

فدفعــه اليه ، فوضعه المنصــور تحت فراشه .. ثم أقبــل يعاتبه عن أمور كثيرة كان قد أساء فيها ، وهو يرد ردا جميلا حتى قال المنصور : « ألست الكاتب الى تبدأ بنفسك وتخطب عمتى آمنة بنت على وتزعم انك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبا » فكانت هــذه العبارة أول ما حرك غضب أبىمسلم ، ولكنه كظم غضبه .. وظل ساكتا وقد تشاغل باصلاح ردائه على كتفيه فقال له المنصور : « ما الذى دعاك الى قتل سليمان بن كثير ؟ برغم مناصرته لدعوتنا ، فانه

أحد فتياننا .. وهو الذى أدخلك فى هذا الأمر »

قال : « أراد الخلاف وعصانى فقتلته » ولما طال العتاب على هذه الصورة لم يعد أبو مسلم يطيق صبرا فقال : « لا يقال هذا لمثلى بعد بلائى ، ونصرتى ، وماكان منى » يشير بذلك الى نصرته لدعوتهم . فقال المنصور : « يا ابن الخبيثة .. والله لو كانت أمة مكانك لفعلت مثل ما فعلت ، انما عملت ما عملته فى دولتنا بريحنا وجاهنا .. فلو كان ذلك اليك ما قطعت فتيلا »

فأحس أبو مسلم بدلائل الغدر فى المنصور ، ورأى نفسه منفردا هناك .. فتقدم الى المنصور ، وأخذ بيده يقبلها ويعتذر ، فقال المنصور : « ما رأيت كاليوم .. والله ما زدتنى الا غضبا »

فـادت الانفة الى أبى مسلم فقال وصوته يرتجف من الغضب : « دع هذا .. لقد أصبحت لا أخاف سوى الله » فغضب المنصور وصفق بيده على الأخرى ، فخرج عليه الحرس .. فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه فصاح أبو مسلم : « ابقنى لعدوك يا أمير المؤمنين » فقال : « لا أبقانى الله اذن ، أى عدو أعدى منك لى؟» فصاح : « العفو .. العفو .. يا أمير المؤمنين » وما من مجيب ، فتساقطت السيوف عليه .. فخر على الأرض صريعا .. (١)

فنهض المنصور ليتحقق من موته فرآه لايزال يتخبط فى دمه ويزأر كالأسد الجريح ، فحوّل بصره وهو يتجلد .. وسمع غوغاء فى غرفة مؤدية الى تلك القاعة ثم رأى بابها قد دفع بقوة ،

(١) ابن الاثير والفخرى

ودخلت منه فتاة مكشوفة الرأس ، محلولة الشعر، سافرة الوجه ، يتدفق وجهها جمالا وهيبة ، وقد هرعت ويداها ممدودتان وصاحت : « العفو يا أمير المؤمنين ، العفو عنى وعنه أو اقتلنى معه » وفى أثرها خادمتها تصيح مثل صياحها ، فلما سمع صالح الصوتين عرف انهما صوتا جلنار وريحانة فأسقط فى يده ؛ واستغرب مجيئهما فى تلك الساعة .. وجمد الدم فى عروقه ، ولكنه تجلد ووقف ، وأراد أن يزوغ فى أثناء الغوغاء ، فاذا برجل قد دخل على أثر المرأتين وأمسك بطوقه وصاح : « امكث هنا ياخائن .. لقد خدعت أمير المؤمنين، وحملته على قتل كبير فواده ، وتطلب الفرار ؟ »

فبغت المنصور لتلك الضوضاء ، واستغرب جرأة الداخلين عليه بغير استئذان ، وأراد أن ينادى الحرس ليسألهم عن ذلك فاستوقف انتباهه منظر تتقطع له الأكباد ، اذ رأى جلنار أقبلت على أبى مسلم وهو مطروح على أرض القاعة والدم يسيل من جوانبه ، وقد توسط البساط معارضا ووجهه نحو المنصور كأنه يتوعده ، وقد انتثرت قلنسوته عن رأسه فظهر شعره وتلوث بالدم . فلما رأته جلنار على تلك الحال صاحت : « أبا مسلم ..! » فالتفت ونظر اليها بعينين ، تكادان تجمدان من الاحتضار ، وقال بصوت مختنق : « سامحينى ياجلنار » ثم ارتج عليه وأخذ يبكى بكاء الطفل فسقطت وقد أغمى عليها .. فتجمع الحضور حولها

ورشوها بالماء .. فلما أفاقت لم يكن همها الا أن تنظر الى أبى مسلم ، وكان قد فارق الحياة وشخصت عينــاه وجمدتا وهما متجهتان اليها والدمع لايزال فيهما ، فرمت بنفسها عليه وراحت تتمرغ فى ردائه وتغمس كفيها فى دمه وتمسح وجهها .. ثم همَّت بيديه وصدره ، وأخذت تقبل ثوبه ، وتستنشق ريحه ، وتبكى وتلطم حتى لم يبق فى الغرفة الا من تقطع قلبه عليها . فلما رأى المنصور ذلك ، أمر الحراس أن يلفوا جثــة أبى مسلم بالبساط ويخرجوها من القاعة .. فلفوه وهى تحاول دفعهم عنه ، وخرجوا جميعا ولم يبق هناك الا جلنار وخادمتها .. استبقاهما المنصــور ليعرف سبب اقدامهما على ذلك العمل .. ثم تقدم الى الفتــاة ، وأنهضها وهو يقول لها : « ما بالك يا بنية ..؟ ما الذى أصابك؟»

فانتبهت والتفتت الى ما حولها ، فلم تجد جثــة أبى مسلم فقالت : « أين هو ؟.. دعونى أودعه .. أو خذونى معه »

فقال لها المنصور : « اعلمى ياصبية ان أمير المؤمنين يخاطبك»

فوقفت وتأدبت ، ثم التفتت وهى تبحث عن ريحانة ، فرأتها ممسكة بثوب صالح ، وابراهيم قابض على طوقه وهو يحاول الفرار فصاحت فيه : « أهذا جزاء الثقة ياصالح ؟.. يأتيك كتاب أبى مسلم بالتوبة والمصالحة ، وأخبرك أن قلبى يحدثنى بذلك وأنت تخفى عنى حبه..كأنك خفت أن يفلت هذا الأسد من القتل ، فيقتلك .. وما كفاك ذلك ، بل حرَّضت أمير المؤمنين على قتله

وأقنعته أن كتابه ينطوى على الخداع ، وأن التوبة التى تحدث عنها اليه كاذبة .. وهذا كتابه الى كتبه منذ بضع سنوات يشهد بصدق توبته عن كل شىء » قالت ذلك وأخرجت من جيبها منديلا من الحرير الأحمر فيه كتاب من رق دفعته الى المنصور . فتناوله وهو فى حيرة مما يشاهده ، وقد دهش على الخصوص لما رآه من قبض ابراهيم اليهودى على طوق الزاهد . وكان المنصور لايزال ممسكا بيد جلنار ، فأجلسها على السرير وجلس الى جانبها وصاح بابراهيم : « ويحك ما هذه الجرأة ؟ كيف تقبض على هذا الرجل الصالح فى حضرتى .. »

قال : « لا تدعه صالحا يا أمير المؤمنين فانه من أشر خلق الله.. انه شرير يستوجب القتل الشنيع لأنه حرضك على قتل أبى مسلم وأنكر توبته ، وخدعك بما يظهره من التقوى والزهد ، وهو من أكبر أعداء أمير المؤمنين »

فبهت المنصور حتى ظن نفسه فى حلم ، فقال : « دعه . وأخبرنى بما تعرفه عنه .. »

قال : « لا أتركه حتى تأمر بالقبض عليه »

فقالت ريحانة : « اتركه فانى قابضة عليه .. وسوف يعجز عن الفرار منى »

- ٧٨ -

الخاتمة

فتركه ابراهيم ووقف بين يدى الخليفة ، وقال : « ان هذا الذى يتظاهر بالزهـد ، ويسمى نفسه تارة صـالحا ، وطورا الضحاك ، وآونة الزاهد ، رجل من الخوارج الأشرار .. كان فى جملة رجال شيبان بقرب مرو فى أثناء محاصرة أبى مسلم اياها . وقد قام فى نفسه أن يساعد حزبه بالمكائد والحيل ، فالتصق بوالد هذه الفتاة وهو من الدهاقين فى خراسان .. فجعل نفسه خادما عنده ، واحتال حيلا استخدم فيها هذه الفتاة لقتل أعدائه ، وهى تطيعه عن سذاجة وسلامة نية طمعا فى مساعدته فى الفوز بأبى مسلم ، وقد كان أقنعها ان أبا مسلم يحبها ، وزعم انه شكا اليه حبها ، ولم يكن هذا القتيل يعلم ذلك .. ثم ظهر لها ان أبا مسلم لايحبها ، فحملت ذلك محمل الخيانة منه .. وحرضها هذا الشرير على الانتقام منه لوالدها ، وكان أبو مسلم قد قتله بدسيسة بعضهم . فحمل هذه الفتاة وطار بها فى الآفاق يترقب الفرص لاتمام غرضه ، والخوارج كما لايخفى على أمير المؤمنين لا يرون السلطة جائزة لأحد . ثم ندم أبو مسلم على جفائه ورأى أن هذه المسكينة مظلومة ، فبعثنى بكتاب منه هو هذا الذى بيد أمير المؤمنين ، وكلفنى أن أطوف البلاد للبحث عنها .. فوجدتها فى

الكوفة وهممت أن أخبرها بالأمر ، فحال هذا اللعين بيننا لأنه لما علم بمجيئى هرب بها الى دير خارج الكوفة ، وأسرع للاحتيال على أمير المؤمنين حتى أقام فى قصره ، وأظهر انه يشير عليه ويطلعه على الغيب . ثم بلغه انني أبحث عن هذه الفتاة لأبلغها هذه الرسالة ، فكتم ذلك عنها مع انه شاهدها بالأمس ، وشكت اليه غربتها وان نفسها تحدثها برضى حبيبها .. وهو ينكر ذلك مخافة أن يكون فى اطلاعها على فحوى الكتاب ما يخفف ذنب ذلك المسكين عند أمير المؤمنين .. ولا شك عندى أن أمير المؤمنين لو اطلع على هذا الكتاب قبل فتكه بهذا القائد العظيم لحفظ له حياته اذ يتحقق من توبته ، وتعلقه بالخلافة العباسية ..

« وقد عرفت بوجود هذا الخارجى فى دار أمير المؤمنين منذ أمرتنى بكتابة ذلك الكتاب الذى كان سببا فى مقتل هذا الرجل . وعلمت انه ما من أحد يعرف مكان جلنار سواه ، فما زلت أترقب خروجه اليها حتى المرة الأخيرة فأرسلت غلاما عرف مكانها ، وعاد الى قبل رجوعه ، وأنا مع أمير المؤمنين فى هذه المدينة . فلما جاء أبو مسلم منذ ثلاثة أيام فرحت بمجيئه ، وأحببت أن أفاجئه بمجيء حبيبته ، فلم أذهب للسلام عليه بل أسرعت الى الدهقانة ودفعت الكتاب اليها فجاءت معى وقلبها يكاد يطير من الفرح، فسرنى أن يتم لقاء هذين الحبيبين تحت ظل أميرالمؤمنين ،

فلما وصلنا الى هذا القصر قيل لنا ان أبا مسلم فى مجلس الخليفة ، فالتمسنا من قيم الدار أن يدخلنا لنقيم ريثما يفرغ من المقابلة .. فأدخلونا الى هذه الحجرة المؤدية الى هنا ، فجلسنا ننتظر خروج هذا المسكين ، ثم سمعنا صوته واستغاثته .. وعلمنا انه يقتل ، فهجمت هــذه الفتــاة وهى لا تعى ولم أستطع ردها ، وفعلت ما رأيتموه .. واذا شــاء أمير المؤمنين أن يتلى هــذا الكتاب بحضرته ، تحقق من صدق قولى .. »

فأخفى المنصور الكتاب لئلا يكون فيه ما يثبت توبة أبى مسلم فيذاع انه قتل مظلوما ..

فلما فرغ ابراهيم من كلامه ، صاحت جلنار بصالح : « ويلك ياخائن .. انت من الخوارج وقد خدعتنى طوال هذه المدة ، وأنا أضعك فى منزلة أبى ؟ » وصرّت على أســنانها وأطرقت وهى تبكى ..

فقالت ريحانة وهى لا تزال ممســكة بثوب صالح : « اعلم يا أمير المؤمنين ان هذا الرجل هو الذى سعى فى مقتــل الامام ابراهيم عند مروان .. ثم جعل نفسه زاهدا ، فجاءكم فى الحميمة وخدعكم ولا يزال يخدعكم الى الآن . واذا كنت لا تصدق قولى فاطلب منه أن يزيل هذه العصابة عن عينيه ، فيظهر لك انه سليم البصر وهو يتظاهر بالعمى » قالت ذلك ومدّت يدها ، فحلت العصابة فبانت عينــاه .. فأجال نظره فى الحضور ، وهو ثابت

الجنان ، رابط الجأش كأنه واقف على ضفاف دجلة للنزهة

فلما سمع المنصور ذلك ، انفطر قلبه على تلك الفتاة .. ولكنه لم يندم على قتل أبى مسلم ، ثم التفت الى صالح فرآه واقفا لا يتكلم ولا يرتعد ولم تظهر عليه البغتة ، فأراد أن يسأله عما سمعه فقال له : « ماذا تقول عما سمعته ؟ »

فقال صالح : « كل ما قالوه صحيح .. »

فقال المنصور : « تقول ذلك ولا تخشى غضبى ؟ »

فقال صالح : « لست أخشى غضبك .. فهل تستطيع أن تفعل بى شيئا أشد من القتل ؟ وأنا لا أبالى بالذى يصيبنى بعد أن حققت هدفى بقتل هذا الظالم .. غير انى أنصحك أن تقتل هذا اليهودى أيضا لأنه من أكبر المنافقين »

فقال المنصور : « أما القتل فانه قليل على ذنوبك لأنها كثيرة ، وكل واحد منها تستحق عليه القتل » ثم نظر الى جلنار فرآها مطرقة وقد استغرقت في أحزانها ، فأراد أن يشفى غليلها فقال لها : « ان هذا الجانى لك .. فاختارى الطريقة التى تريدينها لقتله مما يشفى غليلك »

فرفعت بصرها الى الخليفة ، والدمع ملء عينيها ، وقالت : « هل اذا بالغت فى عذابه يحيا حبيبى ؟.. لا يهمنى بأية طريقة يقتل .. » . قالت ذلك وقد خنقتها العبرات ، وكانت قد هدأ

روعها من البغتة وعاد اليها رشدها

فأعجب المنصور بتعقلها والتفت الى صالح وقال : « كل ضروب القتل قليلة على ذنوبك ، ولكننى سأقتلك كما قتل الحجاج فيروز» وصفق فدخل الحراس فأمرهم أن يشقوا القصب الفارسى ويخلعوا ملابس الرجل ، ويشدوا القصب المشقوق على جسده ، ثم يسلوه قصبة قصبة فيجرحه ، ثم يصبون عليه الخل والملح حتى يموت من الألم .. فأخذوه وفعلوا به ما أمرهم به الخليفة ..

فلما سمعت جلنار ذلك الوصف ، اقشعر بدنها ، والتفت المنصور اليها وقال : « وأنت يا بنية عظم الله أجرك فى والدك وحبيبك وقد نفد القدر ولا راد لما نزل ، فاذا شئت أن تنزلى فى دار أمير المؤمنين مثل سائر أهله نزلت مكرمة معززة ، أو اخترت الاقامة فى مكان آخر كان لك ما تريدين »

فأثنت على فضل المنصور وقالت : « اذا أحب أمير المؤمنين أن يسعدنى فليلحقنى بهذا .. » وأشارت الى مكان أبى مسلم وعادت الى البكاء .. »

فقال المنصور : « ان البكاء لا ينفعك ، فاذهبى الآن مع حاضنتك الى دار النساء للاستراحة فاننا فى شغل »

فنهضت وأخذت تبحث عن جثة أبى مسلم فى أقصى القاعة فلم

تجدها لأنهم كانوا قد لفوها فى البساط ، ثم التفتت الى المنصور ووجهها ملوث بالدم وقالت : « أوصيك بهذه الجثة خيرا » وخرجت وهى تبكى ، وكفاها على عينيها ، وقد جمد الدم عليهما وريحانة تتبعها ..

أما ابراهيم فان وصية صالح بقتله أثرت على المنصور وأوجبت الشك فيه على الأقل ، فأمر بقتله سرا .. والتكتم وحفظ الأسرار من شئون الدولة العباسية

وأما جلنار فقضت تلك الليلة هناك وهى تندب حظها وتبكى حبيبها ، وأصبح أهل الدار فى اليوم التالى فلم يجدوها بينهم ولا عرفوا مكانها .لأنها كرهت معاشرة الأحياء واختارت الاقامة فى الدير الذى كانت فيه مع حاضنتها ، وانقطعت عن الناس ولم نعلم مصيرها .. !

العدد القادم

من روايات تاريخ الإسلام

العباسة أخت الرشيد

لجرجي زيدان

ترقبه أول يونيو ٨٤

مصر للطيران

علم مصر في كل مكان

أكثر من

٥٠

سنة خبرة

مصر للطيران

في خدمتكم

أوربا - أفريقيا - آسيا

الجامبو ٧٤٧ - إيرباص - بوينج ٧٠٧ - بوينج ٧٣٧

Bibliotheca Alexandrina
0401579